حياة مسعودي

عودة ميت للحياة

أدليس للنشر و التوزيع

عوْدةُ ميّتٍ للحيَاة

عنوان العمل: عوْدةُ ميّتٍ للحيَاة
اسم المؤلف: حياة مسعودي

الطبعة الأولى 2025
الإيداع القانوني : السداسي الأول 2025 / 1446
ISBN : 978-9969-573-44-2

تصميم الغلاف: أكرم مذكور
إخراج فني: يسين قعودة

أدليس بلّزمة للنشر والتوزيع
الهاتف: 0.77.89.27.44
الإيميل: Adlisedition@gmail.com
الفايسبوك: أدليس للنشر والترجمة والتصميم
الأنستغرام: Adlisedition

جميع حقوق الطباعة والنشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع محفوظة للناشر.
يُمنع نسخ هذا الكتاب أو تعديله أو تداوله بأي شكل من الأشكال دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

عوْدةُ ميّتٍ للحيَاة

حياة مسعودي

الطبعة الأولى
2025

إهداء:

لكلّ القرّاء..

الذين يتعاقبون على قراءة هذه الرّواية، حللتم علينا أهلًا، ونزلتم بإذن الله سهلًا.

أرجو لكم قراءة ممتعة.

مقدمة:

تتكلّم هذه الرّواية عن شاب غني، يعود والده الشّرير بعد غياب، دام سنة بأكملها، وبعد أن ظنّ الجميع بأنّه قد مات، إثر غرق الباخرة، التي كان على متنها.. وبعودته تبدأ أحداث هذه الرّواية، بحيث يعود كل الأشرار، الذين تربطهم علاقات بوالد البطل، أو ممّن لديهم عداوات مع هذا الأخير..

وقد جاءت هذه الرّواية مكوّنة من جزأين، الجزء الأول بعنوان: (أفق.. أنت تحلم).. والذي رأينا من خلاله عودة والد البطل، الذي تحوم حوله الشّكوك، وكيف أنّ عودته قد جلبت معها، الكثير من المشاكل، لكل المحيطين به، من أفراد عائلته، كما جلبت الأشرار، بدءًا بزوجته الثّانية الشّريرة، التي حاولت أن تستفيد من رجوعه، مرورًا بصديقه العم مروان، الذي يتحول لعدوّ لدود، إثر خلافات بينه، وبين والد البطل.

وفي هذا الجزء الذي جاء بعنوان: (عودة ميّتٍ للحياة)، سوف تتصاعد الأحداث، وذلك بموت إخوة البطل، ثمّ والده (العم سالم)، واتّهام البطل بقتله، والحكم عليه بالإعدام.. ثمّ تأتي اللّحظة الحاسمة، وهي لحظة إعدام البطل.. في هذه اللّحظة سيحدث شيء، لم يكن في الحسبان، والذي سيقلب كل الموازين، بحيث سيجعل الرّواية تنحو منحى مختلفًا، تمامًا عمّا سبق..

*** الجزء الثّاني ***

- لقد قلتُ لك بأنّي رأيته، بأمّ عيني، يتكلّم مع إحدى الموظّفات، وقد كان مهتمًّا بها، لدرجة أنّه حين رآني صُعق، وغضب، بل وكاد يطرحني أرضًا، أو يقتلني.

كانت سارة تشتكي سوء معاملة هاني، لصديقتها المقرّبة، التي تعوّدت أن تحكي لها كلّ شيء، فأجابتها هذه الأخيرة، بعد صمت، وحيرة:

- ألا يمكن أن تكون مجرّد زميلة؟ فأنا أعرفك، تشكّين حتّى في نفسك.

- لا أظنّ ذلك، فهاني قد تغيّر كليًّا، والسّبب هو تلك الفتاة، التي رأيته يتكلّم معها البارحة.

- على كلّ حال، عليكِ أن تحلّي الموضوع، في أقرب وقت، تعاملي معه بلطف، لكيلا يحقد عليك، ويرفض الاعتراف بالطّفل.

سكتت سارة قليلًا، ثمّ تنهّدت، وقالت:

- سأحاول أن أجد حلًّا، لهذا الموضوع.

***

دقّت أمّ هاني الباب، على ابنها مرّة، واثنتين، ولكنّه لم يجب، ففتحت الباب، ودخلت، لتجده غارقًا في أفكاره، ودخان السّجائر يملأ الأرجاء، لدرجة أنّ الهواء النّقي قد انعدم، منها تمامًا، فأسرعت لتفتح النّافذة، ثمّ التفتت لابنها، وقالت:

- ما بك يا هاني؟ لما كلّ هذه السّجائر؟ أين أنت؟ أجبني.

كانت توجّه أسئلتها له، وتلوّح بيدها، في نفس الوقت، لتلفِت انتباهه، وهنا نزع هاني السّمّاعات، من أذنيه، وقال:

- ماذا تريدين يا أمّي؟

فاقتربت منه، ثمّ جلست بجانبه، وقالت:

- ما بك يا هاني؟ لا تبدو بخيرٍ أبدًا، هل حصل شيءٌ ما؟

- أرجوك يا أمّي، دعيني وشأني الآن.

- هل تشاجرت مع أبيك؟

فنظر هاني لأمّه بيأس، ثمّ عاد للحديث:

- كلّا.. لم أتشاجر معه.

- إذًا.. ماذا؟ هيّا أخبرني.

وظلّت تلحّ عليه، إلى أن أخبرها، بأنّ وردة قد رأته، مع صديقة قديمة، ومن وقتها لم تعد تجيب، على مكالماته، ولم تحضر للشّغل، فقالت:

- ألم تقل بأنّها تمارس هواية الرّسم؟ وأنّها تذهب للمعهد؟

وهنا عاد لهاني تركيزه، وانتباهه، فقال (مستغربًا):

- أجل.

- ما عليك إلّا أن تنتظرها، عند المعهد، وحين تخرج تحدّث معها.

- ولكن لا أظنّها ترضى.

- ألم تقل لي بأنّك تريد أن تخطبها؟

- بلى.

- جميل، إذًا بمجرّد أن تراها قل لها، بأنّك تريد أن تخطِبها، وسترضى بعد ذلك، فالبنت لا تهتمّ بشيء، في الدّنيا، إلّا بموضوع الخِطبة، لأنّك بهذا ستثبتُ لها، حسن نيّتك اتّجاهها.

وهنا ابتسم هاني، ثمّ اقترب من أمّه، وقبّل رأسها، وقال:

- يا لكِ من أمّ رائعة، في حياتي لم أرَ في مثل ذكائك.

- انهض الآن، واستحم، حتّى يعود لك نشاطك.

- حسنٌ.. في الحال.

وقام بسرعة للحمّام، فضحكت أمّه في هذه الأثناء، وقالت:

- مرّ الوقت بسرعة، حتّى صار هؤلاء الأطفال شبابًا، بل ويحبّون أيضًا.

***

نظر أبي لساعته، فاستغرب من مرور الوقت، ثمّ قال:

- كيف مضى الوقت بهذه السّرعة؟ إنّها العاشرة، كنت أظنّها الثّامنة.

وحمل هاتفه، ليرنّ لأحد رجاله، وبعد أن انتظر بضع دقائق، ردّ الرّجل:

- سيّدي.. كيف حالك؟

فأجابه أبي بشكل مقتضب، كما تعوّد دائمًا، حين يكلّم أحد رجاله، في الهاتف، قال:

- بخير.. غدًا يتمّ تسليم البضاعة.

- سيّدي.. أنا جاهز.. هل تأمرنا بشيء آخر؟

- لا أريد أن أوصيك، عليك أن تفتح عينيك جيّدًا، فهذه المرّة لن أكون معكم، لا مجال للخطأ.. هل فهمت؟

- بالطّبع يا سيّدي، لن تكون إلّا راضيًا عنّا، أعدك بهذا.

- حسنٌ.. إلى اللّقاء إذًا.

***

- ما رأيك؟ هل أعجبكِ المنزل؟

عادل يقول لجنّات متسائلًا، فتختار الصّمت، لتكمل جولتها عبر أرجاء المنزل، وكأنّها لم تُصغ لسؤاله أصلًا، فلحِق بها، ليعيد سؤاله:

- هاه.. لم تقولي لي إن أعجبكِ المنزل، أم نختار غيره؟

فتوقّفت عند المطبخ، وبعدما تأمّلته هو الآخر، لينال المرتبة الأخيرة، في المنزل بأكمله، في حصّته من تلك النّظرة التّأمليّة، قالت:

- المسألة ليست في المنزل، بل في القرار، في حدّ ذاته.

- هل لكِ أن توضّحي، فأنا لستُ ذكيًّا، للحدّ الذي أحلّ فيه الألغاز.

فضحكت جنّات من كلامه، ثمّ عادت لتقول:

- لا أعرف، ولكن علينا ألّا نتسرّع، في اتّخاذ قرارٍ مصيري كهذا.

- أوه.. فهمتك.

سكت عادل قليلًا، قبل أن يضيف:

- سأمهلكِ أسبوعًا لتفكّري، وإن لم توافقي، فسأضطرّ آسفًا، لأن أتزوّج بامرأة أخرى.

وضحك بصوتٍ عال.. فتقدّمت منه جنّات، وضربته ضربة خفيفة بيدها على كتفه، كنوع من المزاح، ثمّ قالت:

- افعلها.. وسترى ما الذي يمكنني فعله.

- حسنٌ.. دعينا نخرج، وحين تقرّرين، ساعتها لكلّ حادثٍ حديث.

أخرج عادل المفاتيح من جيبه، ليغلق الباب، بعدما يخرج هو وجنّات، التي خرجت قبله، وحين همّ بالخروج بعدها، رنّ هاتفه فجأة، فأخرجه من جيبه، ليرى من المتّصل، وما إن تعرّف عليه حتّى تغيّر لونه، وارتبك، وهنا نادى لجنّات (وهو لا يزال ينظر لهاتفه):

- جنّات.

فالتفتت نحوه، وقالت:

- ماذا هناك؟

- خذي مفاتيح السّيّارة، واسبقيني، لديّ مكالمة.. وعليّ أن أنهيها.

وبعد أن نزلت، قام بإعادة الاتّصال، بنفس الرّقم، ليقول بعدها:

- ألو.. كيف حالك سيّدي؟

- بخير.. هاه؟ أخبرني.. هل الأمور تسير على ما يرام؟

- أجل، لقد اقترحتُ عليها الزّواج، في السّر، وما هي إلّا أيّامٌ وتوافق.

- حسنٍ.. سنرى.

قال الرّجل، وأنهى المكالمة، ليغلق عادل هاتفه (قائلًا):

- ما به؟ هل قلتُ شيئًا أغضبه، ليغلق هاتفه، في وجهي هكذا؟

وأغلق باب المنزل، ونزل.. ليتّجه لجنّات، التي كانت تنتظره.

***

خرج الطّبيب من غرفة لبنى، بعد أن فحصها، أين قالت له أمّها:

- أخبرني يا دكتور، كيف حال ابنتي؟ هل هي بخير؟

- لقد كتبتُ لها على أدوية، ستتحسّن بعد أن تأخذها.

وأعطى الوصفة لأخت لبنى، التي أخذتها منه، قبل أن يقدّمها لأمّها، وقالت:

- سأذهب، لأشتريَ لها الدّواء.
وهنا عاد الطّبيب ليكمل حديثه:
- ولكن لا أخفيكِ سيّدتي، يجب أن تُنقل لبنى للمستشفى، فهي ليست على ما يرام، وبقاؤها دون علاج، لن يزيد حالتها إلّا سوءًا.
انصرف الطّبيب، بعد أن دفعت له أمّ لبنى أجره، واتّجهت لابنتها، التي كانت مستلقية، ثمّ قالت لها بنبرة (تحمل في طيّاتها العتاب):
- أما كان من الأفضل، لو أخذناكِ إلى المستشفى، لتتعالجي؟
فقالت لبنى بصوتٍ خافت، بالكاد يخرج من داخلها، ليصحبه سُعال، من حين لآخر:
- أرجوك أن تكفّي عن عتابك.. سبق وقُلتُ لك، بأنّ العلاج لن يفيدني في شيء، كلّ ما سيفعله أنّه سيضيف لي أيّامًا، أو ربّما أسابيع فقط، مع الكثير من الألم، هذا هو قدري.. فتقبّلوه كما تقبّلتُه.
وقامت من فراشها بالكاد، كي تتّجه نحو الحمّام، حاولت الاستناد على الجدار، لتصل إليه، وهنا هرعت أمّها نحوها، وأسندتها بنفسها، إلى أن أوصلتها إلى حيث تريد، ثمّ قالت:
- سامحكِ الله يا ابنتي، ما أشدّ عنادك.
***
ظلّ رجال أبي يسيرون، عبر تلك الطّرقات، حتّى وصلوا لطريقٍ جانبيّ، يخلو من المارّة، في الحقيقة لم يكن طريقًا معبّدًا، مثل باقي الطّرقات، ولكنّه تكوّن بفعل مرور بعض السّيّارات، التي كانت تجتازه، لاختصار الطّريق، ممّا أدّى لنشوئه، بمرور الوقت، ليصبح شبه طريق، وهنا توقّف الرّجال، بأمرٍ

من رئيسهم، الذي كلّفه أبي، لينوبه هذه المرّة، وبعد مدّة من الانتظار، جاءت سيّارة رباعيّة الدّفع سوداء، كانت تسير باتّجاههم، فنزل الشّاب، الذي كلّفه أبي، بهذه المهمّة، وأخرج مسدّسه، ليستعدّ لأيّ طارئ، ونزل بعده رجاله، وهم يحملون مسدّساتهم، تحسّبًا لأيّ غدر، فقد تعوّدوا بألّا يضعوا الثّقة، في أيٍّ كان، توقّفت السّيّارة أخيرًا، لينزل منها أربعة رجال، تقدّمهم شاب، يحمل حقيبة سوداء، وقال لرجال أبي:

- أين البضاعة؟

وهنا اقترب أحد رجال أبي، وهو يحمل معه حقيبة بنيّة اللّون، وبعد أن عاين كلا الطّرفين حقيبته، وتأكّدوا ممّا فيها، تبادلوا الحقائب، وما إن همّ الطّرفان بالمغادرة حتّى حاصرتهم الشّرطة، فلم يجد الرّجال بدًّا، من رفع أيديهم، بعدما رموا أسلحتهم على الأرض، بناءً على طلب الشّرطة، التي حذّرتهم من عاقبة الغدر.

***

ظلّ هاني في سيّارته، ينتظر خروج وردة، من المعهد، وبعد مرور ربع ساعة خرج الطّلبة، والعمّال أيضًا، ومعهم وردة، التي كانت تسير برفقة صديقتها، وما إن رآها هاني حتّى نزل، من سيّارته، في البداية تردّد، قبل أن ينادِيَ عليها، ولكنّه تشجّع آخر الأمر، وناداها.. فنظرت وردة ناحية الصّوت، لتتفاجأ برؤيته، لدرجة أنّها بقيت في مكانها، ما أثار استغراب صديقتها، التي سألتها:

- ما بك يا وردة؟

ثمّ نظرت لهاني، وقالت:

- من هذا الشّاب؟

فهمست وردة لها بصوتٍ خافت، وقالت:

- سوف أخبركِ فيما بعد، سأذهب، لأرى ماذا يريد منّي الآن.

ثمّ اقتربت منه، وقالت:

- ماذا تريد يا هاني؟

فاستغرب هاني من تغيّرها، وتحوّلها لهذا الحدّ، وقال:

- ألا يمكنكِ أن تقولي صباح الخير، بدلًا من ذلك؟ لقد جئتُ لأتكلّم معكِ في موضوع، ولن أذهب، إلّا بعد أن تسمعيني.

بقيت وردة صامتة، ولم تنطق بكلمة، وكأنّها تريد أن تقول له، تكلّم هنا في الشّارع.. وهنا عاد للحديث:

- أعلم بأنّكِ غاضبة، ولكن أعدكِ بأنّكِ ستغيّرين رأيك، بعدما تسمعين ما سأقوله لك، ولكن ليس هنا، ما رأيكِ لو نذهب لأيّ كافتيريا، ونتكلّم؟

شردت وردة قليلًا، محاوِلة نسيان ما رأته، المرّة السّابقة، ولكن عبثًا، فشكلها يوحي بأنّها لا زالت غاضبة، فعاد هاني ليلحّ عليها:

- إن لم يعجبكِ كلامي، فأعدكِ بأنّها ستكون آخر مرّة، أتعرّض لكِ فيها، أو أعترض طريقك.

وهنا تنهّدت، ثمّ تقدّمت بضع خطوات، وتوقّفت بعدها، فقال هاني:

- هيّا.. اركبي، لا تخافي.

***

كان أبي في مكتبه، حين رنّ هاتفه، فردّ بعد تعرفُّه على المتّصل:

- ألو.

فأجاب الآخر (وقد بدا عليه الخوف):
- سيّدي.. لقد ألقوا القبض على كلّ رجالنا.
وهنا قام أبي من على الكرسيّ، وقال (بدهشة يخالطها الغضب):
- ماذا قلت؟
- كما قلتُ لك، لقد حاصرتهم الشّرطة، وأخذتهم هم ورجال (ف.س).
تعمّد الرّجل عدم ذكر اسم الرّجل، الذي اشترى البضاعة من أبي، وهذا من التّعاليم التي علّمه إيّاها أبي، في الحقيقة لم يكن هو وحده، من علّمه والدي أصول الشّغل، وقواعده، بل كلّ من يشتغل معه، فأبي من النّوع الكتوم، لأنّ شغله يتطلّب الخصوصيّة، وإلّا فسيصبح هو ومن معه في خبر كان.. أنهى أبي المكالمة فورًا، ليتّصل بأحد معارفه، أين أخبره بكلّ ما حصل لرجاله، فطمأنه هذا الأخير (قائلًا):
- كن مطمئنًّا، منذ اللّحظة اعتبر رجالك بخير، سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام.
فعاد أبي لرشده، واطمأنّت نفسه، وعاد لها هدوؤها، وجلس على كرسيّه مرّة أخرى، ثمّ قال للرّجل:
- لا تعرف كم أنا ممتنٌّ لك.. أشكرك من كلّ قلبي.

***

فتح والد نور الباب، ليجد حازم برفقة أبيه، وبعدما رحّب بهما أدخلهما للصّالون، وخرج، ليطلب من زوجته، بأن تعدّ الشّاي لهما، وعاد ليرحّب بضيفيه مرّة أخرى (قائلًا):
- أهلًا بحازم وأبيه، كيف حالكما؟

ليجيب حازم:

- نحن بخير يا عمّي.

ثمّ نظر لوالده، وقال:

- أحضرتُ لك أبي، لتتعرّف عليه كما اتّفقنا سابقًا، ولنستمع لطلباتكم.

فابتسم أبو نور، ثمّ قال:

- ليس قبل أن تنالا واجب الضّيافة، ثمّ نتكلّم في التّفاصيل.

***

- أنا لم أكذب عليك يا وردة، كما لم أدّعِ بأنّي شابٌّ صالح.

- هذا صحيح، ولكنّك أخفيت عنّي قصّة هذه البنت.

- لم أكن أعيرها أيّ أهميّة، وحين رأت بأنّي لم أعد أهتمّ بها، كما في السّابق، جاءت إلى الشّركة، لتتكلّم معي، في محاولة منها لاستعطافي.

أمسكت وردة كوب العصير، ثمّ شربت منه القليل، وقالت:

- أمم.. قلتَ لي استعطاف؟

في إشارة منها إلى أنّها لم تصدّقه، فقال هاني (بحزم):

- اسمعي، أنا لم آتِ بكِ إلى هنا، لنتكلّم عنها، وإنّما لنتكلّم عنّا.

فنظرت وردة بتركيز، لأوّل مرّة، منذ دخولها للكافيتريا، ثمّ قالت:

- عنّا نحن الاثنين؟ كيف ذلك؟

- أريد أن أتقدّم لخِطبتك.

فعادت وردة لتمسك بالكوب، وتشرب القليل منه، وهي تنظر لجمال المنظر، من النّافذة، دون أن تعلّق على عرضه بالرّفض، أو القبول.

***

دخل هاني للبيت، والدّنيا لا تسعه من الفرح، وما إن رأته أمّه حتّى دنت منه، مستغربة سرّ سعادته هذه، وقالت له (متسائلة):

- خيرًا.. إن شاء الله.

فقبّل رأسها، ويدها، وهمس في أذنها (قائلًا):

- أبشري يا أمّ هاني.. لقد وافقت وردة، على موضوع الخطبة.

فابتسمت، وقالت:

- جميل، ولكن لا تنسَ من ساهم، في حلّ مشكلتك معها.

- لن أنسى يا أمّي، اطلبي ما تشائين.

- أريد منك أن تهتمّ بشغلك، وأن تكسب ثقة أبيك.

- حسنٌ.. أنا موافق، ولكن لي رجاءٌ أخير.

فقالت أمّه (متذمّرة):

- وما هو هذا الرّجاء؟

- أريد منكِ أن تكلّمي أبي، في موضوع الخطبة.

- حسنٌ، حين يعود آخر اللّيل، سأكلّمه.

***

- ماذا قلت؟ عرض عليكِ الزّواج؟

- أجل.

- ألم تقولي بأنّكِ رأيته يكلّم أخرى، ثمّ ركبتْ معه، في سيّارته؟

- أجل.. ولكنّه أخبرني بأنّهما قد انفصلا، ورغم ذلك ظلّت تبحث عن فرصة، لتزعجه فيها.

قالت وردة، لتردّ عليها أختها (متسائلة):

- حسنٌ.. وماذا قلتِ له؟ هل وافقت، أم ماذا؟
- في البداية وافقت، ولكن لا أعرف لِما أحسّ الآن بالنّدم.
- إن أردتِ نصيحتي، فسأطلب منكِ بألّا تتسرّعي في رفضه، ركّزي على الجانب المشرق من شخصيّته.. أرى أنّه شابٌّ طيّب، وصريح، بالإضافة لهذا كلّه فهو يحبّك، والدّليل على ذلك، أنّه طلب يدك.
سكتت وردة قليلًا، ثمّ قالت:
- لا أعرف.
- حسنٌ، اسألي أبي، من المؤكّد بأنّه سيفيدك، في هذا الموضوع، فوالد هاني يكون صديقه المقرّب.
- سأحكي معه بعد قليل.

***

كان أبي يتكلّم مع أحد معارفه، في الهاتف، وهو يثني عليه (قائلًا):
- لا أعرف كيف أشكرك.. نِعم الصّديق أنت.
فقال الآخر (مازحًا):
- لا يوجد شيءٌ بدون مقابل.
ثمّ ضحك، فضحك أبي، وقال:
- هذا أكيد، لن أنسى صنيعك أبدًا، مهما طلبت، فلن أوفّيَك حقّك.
- أنا أمازحك ليس إلّا.. فأنت أخي.. والأخ لا يمكن أن يردّ لأخيه طلبًا.. أم ماذا؟
- أجل.. أجل.

دخلتْ عليه في هذه الأثناء أمّ هاني، فنظر لها مستغربًا، ولكنّه كان مشغولًا بالمكالمة، فأشار لها بالجلوس، لتنتظره، حتّى ينهيَ الحديث، وهو ما كان بالفعل.. قال أبي حين أنهى كلامه:

- ماذا هناك؟

- جئتُ لأكلّمك في موضوع، يخصّ هاني.

فنظر أبي لساعته، التي كانت تشير للحادية عشرة والنّصف، من اللّيل، ثمّ قال (مستغربًا، ومستنكرًا في الوقت نفسه):

- الآن؟ لا تقولي لي بأنّه قد ارتكب حماقة جديدة؟

- لا.. ليس هذا، بصراحة هاني يريد أن يتزوّج، وطلب منّي بأن أفاتحك، في الموضوع.

فضحك أبي بأعلى صوته، ثمّ قال:

- هاني يريد أن يتزوّج؟ قولي كلامًا غير هذا، ومن تعيسة الحظّ، التي سترضى بالزّواج منه؟

فانتفضت أمّ هاني، وقالت:

- وما به هاني؟ أيّ بنتٍ تتمنّاه.

- هل هناك بنتٌ محدّدة؟

- أجل.

- من تكون هذه البنت؟ هل هي من عائلة مرموقة؟ لا تقولي لي بأنّها من البنات، اللّواتي يرتاد عليهنّ ابنك، مع رفاق السّوء كلّ ليل؟

فقالت أمّ هاني (مستغربة):

- وكيف عرفتَ بأنّه يرتاد على البنات؟

فعاد ليضحك، ثمّ اقترب منها، وهمس في أذنها (قائلًا):

- وهل تعتقدين بأنّني نائمٌ على أذني؟ أعرف حتّى ما تفكّرين فيه بينك، وبين نفسك.

فبلعت أمّ هاني ريقها، ثمّ قالت:

- كلّا.. إنّها من عائلة مرموقة، وأبوها يكون صديقك.

فعاد لأبي هدوؤه، ثمّ سألها، بعد أن جلس على الكرسيّ:

- ابنة صديقي؟

- أجل، وردة ابنة صديقك، الذي يشتغل مديرًا بالبنك، والتي عيّنتها في الشّركة منذ مدّة.

فهزّ أبي رأسه (قائلًا):

- آااه.. أجل.. أجل، على أيّ حال، تلك البنت مؤدّبة فعلًا، وأبوها رجلٌ شريف، ومحترم.

وسكت قليلًا، ثمّ قال:

- أتمنّى أن يحصل هذا، فهاني بحاجة لامرأة تُعقّله، وتعلّمه مصلحته، التي لم تستطع أمّه، أن تعلّمه إيّاها، ولكن أتمنّى ألّا تندم عن قرارها، بعد أن ترتبط به.

وسكت قليلًا، ثمّ عاد ليقول:

- أخبريه بأنّي موافق، فليتّفق معها على موعد، لنخطبها بشكل رسمي.

***

أحسستُ بنعاسٍ شديد، فوضعتُ الكتاب جانبًا، وأطفأت النّور، وقمتُ بتغطية جسمي، ووجهي لأنام، وبعد دقائق دخلتُ في نومٍ عميق، وفجأة

سمعتُ صوتًا ينادي عليّ، في البداية لم أعره أيّ أهميّة، لكنّه بدأ يقترب منّي، أكثر فأكثر، وبعدما اقترب صاحب الصّوت، وضع يده بالقرب من كتفي، ثمّ هزّ كتفي بيده، وقال:

- حامد.. حامد.

وهنا التفتُّ ناحيته، بعد أن خلعتُ الغطاء، لأرى من الذي يناديني، وإذْ بي أجد بأنّها امرأة مسنّة، كانت ترتدي ملابس فضفاضة، وتضع شالًا على رأسها، لونه أخضر، نظرتُ إليها متأمّلًا إيّاها، فكلّ شيءٍ فيها شدّ انتباهي، ملابسها، وعطرها، بل حتّى وجهها، هو الآخر لفت انتباهي، إذ وبالرّغم من كبر سنّها، إلّا أنّ وجهها مليءٌ بالنّور.

أمّا هي فظلّت مبتسمة، وتوقّفت عن النّداء، وكأنّها تريدني أن أسألها، لتتكلّم، في البداية أحسستُ برهبة، ولم أستطع قوْل شيء، ولكن بعدما رأيتُه منها تشجّعت، وسألتها:

- من أنت؟ وماذا تريدين منّي؟

- ألا تريد أن تعرف الحقيقة؟

- حقيقةُ ماذا؟

وهنا أشارت بيدها لزاوية، من زوايا الغرفة، وقالت:

- انظر هنا.

فنظرتُ للنّاحية التي أشارت إليها، وإذْ بي أرى إخوتي، هاني ونريمان، وخالد، بالإضافة لنور، وحازم، الذين كانوا نائمين، على الأرض، وبدون شعور منّي، ركضتُ نحوهم بسرعة، ثمّ أخذتُ أنادي عليهم، الواحد تلو الآخر، لعلّهم يستيقظون، ولكن دون جدوى، فتراجعتُ للوراء قليلًا، وفي

هذه الأثناء لاحظتُ شخصًا، كان هو الآخر ممدّدًا، على الأرض، لم أستطع التّعرّف عليه، فاقتربتُ منه، لعلّي أفعل، وإذْ بي أجدها جنّات، ولكنّها لم تكن نائمة كالباقي، بل كانت مستيقظة، لكنّ حالتها لم تكن جيّدة، على أيّ حال، فقد كان وجهها مليئًا بالكدمات، بالإضافة للدّم، الذي كان يملأ ثيابها بأكملها، فصرختُ (قائلًا):

- جنّات.. من الذي فعل بكِ كلّ هذا؟

ثمّ عدتُ لأنظر للباقي، وكأنّي قد صرتُ على يقين، بأنّ الذي أذاهم، هو نفسه الذي أذى جنّات.. فقُمت، لأنسحِب للوراء قليلًا، ثمّ أخذتُ أوزّع نظراتي، يمينًا ويسارًا، وأنا في حيرة من أمري، لا أدري ماذا أفعل، لم أجد ما أفعله إلّا العودة للصّراخ، ولكن هذه المرّة كان صراخًا ممزوجًا ببكاء، أين قلتُ (متسائلًا):

- من الذي فعل بكم كلّ هذا؟ أخبروني.

وحين لم أجد استجابة، عدتُ لألتفتَ لجنّات، وقلتُ (بيأس):

- أخبريني أنتِ على الأقل.

فنظرتْ لي بيأس، كانت تريد أن تخبرني، ولكن لم تستطع، فاكتفت بإخراج تلك الأنفاس من صدرها، تلك الأنفاسُ التي تُنمّ عن تعب، وألمٍ شديدين، وهنا اقتربت منّي تلك العجوز، التي نسيتُها تمامًا، والتي ظلّت واقفة خلفي، دنتْ منّي، وربتت على كتفي، فشعرتُ بالخوف، والتفتُّ نحوها بسرعة، لأعرف من الذي ربت على كتفي، وإذْ بي أجدها تقول لي:

- أتريد أن تعرف من الذي قتل هؤلاء كلّهم؟

فأومأتُ برأسي، في إشارة منّي بالموافقة، فقالت:

- انظر خلفك.

فالتفتُّ خلفي، أين واصلت العجوز حديثها:

- هذا الشّخص هو السّبب.. وإن لم تتدخّل قبل فوات الأوان، فستكون أنت آخر واحد.

فعدتُ لأنظر إليها، وقلت (مستغربًا):

- أنا آخر واحد؟

فقالت (بكلّ ثقة، وهدوء):

- أجل، ستلحق بكلّ هؤلاء.

فالتفتُّ مرّة أخرى للشّخص، الذي أشارت له، ثمّ ركضتُ إليه مسرعًا، وأمسكته من ذراعه، وصرختُ فيه (قائلًا):

- لماذا فعلتَ بهم هذا؟ ماذا فعلوا لك؟ أخبرني.

وفي هذه الأثناء التفت هذا الشّخصُ إليّ، لأجد بأنّه أمّ هاني، فنظرتُ إليها مستغربًا، ثمّ تراجعتُ للوراء، وقلتُ لها:

- أنتِ من فعل كلّ هذا؟ لماذا؟

فضحكتْ بأعلى صوتها، وقد بدا عليها الجنون، واقتربت منّي، لتقول:

- وأنت ستكون آخر واحد.

وعادت للضّحك، وكانت في كلّ مرّة تقترب منّي، تريد خنقي، ولكنّي لم أترك لها سبيلًا لذلك، فقد أمسكتُها بيديَّ، وخنقتها، أمّا هي فاكتفت بإصدار تلك الضّحكات المزعجة، إلى أن خبا صوتها، وسقطت أرضًا، بعد أن أفلتُّ قبضتي، من على رقبتها، أين عدتُ للوراء، وأنا أنظر ليَديَّ، غير مصدّقٍ ما

اقترفتهُ من إثمٍ، عدتُ لأنظر لها، لأجدها تحوّلتْ فجأة، لتصبح أبي، وهنا اقتربتُ منه، وقُلت:

- أبي.. أبي.

ولكنّه لم يجبني أبدًا، تمامًا كالباقي، وهنا شعرتُ بحرارة في جسمي، وثقلٍ رهيب، تقلّبتُ يمينًا، ويسارًا إلى أن استيقظت، لأجد نفسي في مكاني نفسه، وفي غرفتي نفسها، نظرتُ حولي، وقُلت:

- يا له من حلمٍ فظيع.

ثمّ وضعتُ يديَّ على رأسي، وقلتُ (بحسرة):

- يا إلهي.. ما هذه الأحلام؟ إلى متى ستظلُّ هذه الأحلام تطاردني؟

وأنا على هذا الحال، وإذْ بي أسمع صراخًا، يصدر من غرفة نريمان، فأزحتُ الغطاء من على جسمي، وقمت مسرعًا نحوها، أين وجدتُ أمّي تجلس بجانبها، وتقول لها:

- لا تخافي.. لا تخافي، أنتِ تحلمين فقط.

ففتحتُ الدّرج، لأخرج منه الدّواء، واقتربتُ من نريمان، لأعطيها إيّاه، فقالت لي:

- رأيتُ أبي يقتل سهيل، ثمّ هَمَّ بقتلي أنا أيضًا.

كانت نريمان ما تزال نائمة، أي أنّها لم تستيقظ بعد، فقد كانت بين الحُلمِ، واليقظة حين هممتُ بتقديم الدّواء لها، فقلتُ لها:

- نريمان.. خذي هذا الدّواء.

وهنا فتحتْ عينيها، ونظرت إليّ، ثمّ إلى أمّي، وبقيتْ على هذا الحال للحظات، ثمّ دخلتْ في نوبة بكاء، فقالت أمّي (بغضب):

- إلى متى ستظلّ على هذا الحال؟ إنّها لم تماثل للشّفاء أبدًا، فهي نائمةٌ معظم الوقت، بسبب هذه الأدوية، وما إن ينتهيَ مفعولها حتّى تعود للبكاء، تمامًا مثل أوّل مرّة، حين سمعتْ بوفاة سهيل.

فنظرتُ لأمّي نظرة اليائس، الذي لم يعد يعرف، ماذا عليه أن يفعل، اتّجاه أهله، ماذا عليه أن يفعل اتّجاه نريمان، ولبنى.. كنت أنظر للحزن، الذي في عينيْ أمّي، وأنظر لنريمان، التي صارت مجرّد حاضر غائب، في اللّعبة كلّها، لجسدها معنا، وروحها مع سهيل، تأبى مفارقته.. وفي الوقت نفسه، كنت أفكّر في الحلُم، الذي رأيتُه قبل قليل، تُرى هل يمكن أن يكون له علاقة بالأحلام، التي رأتها نريمان، فأبي هو المفتاح، لكلّ هذه الأحلام، فهو القاتل في كلّ منها، أيُعقل أن يكون المنام تنبيهًا لي، لما سيقع في الأيّام القادمة؟ أم لعلّه يتكلّم عن الماضي، وخصوصًا وأنّ أبي قد منع زواجي من نور، وقتل سهيل كما ادّعت نريمان، ممّا يعني بأنّه أذانا بطرقٍ غير مباشرة، ومن يعلم؟ من الممكن أنّه قد أذى الباقي: هاني وخالد وجنّات، وإلّا فلِما رأيتُهم في الحلُم..

عدتُ لأطمئن أمّي:

- أرجوكِ يا أمّي أن تكفّي عن التّشاؤم، الذي أنتِ فيه، فنريمان مريضة نفسيًّا، والمريض النّفسي لا يتماثل للشّفاء بسرعة، كما هو الحال مع باقي الأمراض، من المؤكّد بأنّه سيأخذ وقتًا أطول.

وهنا تنهّدت أمّي، وقالت:

- ليس تشاؤمًا يا بُنيّ، بل هو أبعد من ذلك بكثير.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد بأنّ الموضوع أكبر من مجرّد هواجس، فقد رأيتُ أحلامًا، تتشابه مع التي رأتها أختك، والتي لا زالت تراها، لحدّ السّاعة.
- هوّني عليك يا أمّاه.. اذهبي، لتنامي الآن، وغدًا سنتكلّم بإذن الله، في هذا الموضوع.
قلتُ كلامي هذا، بعدما صرتُ على يقين تامّ، بأنّ لأبي دخل، في كلّ ما نراه من كوابيس، ولكنّي لم أشأ أن أنقل خوفي لها، فهمومها تكفيها.

***

- أخبرتني أمّك بأنّكِ تريدين، أن تقولي لنا شيئًا، خيرًا إن شاء الله!
قال أبو وردة، بعد أن جلس بجانب ابنته، وجلست أمّها بجانبهما، وهنا قالت (باستحياء):
- في الحقيقة.. لقد تقدّم اليوم شابٌّ لخطبتي.
- جميل.. ومن يكون هذا الشّاب؟
وهنا سكتت وردة قليلًا، قبل أن تعود لمواصلة حديثها:
- إنّه هاني ابن صاحب الشّركة، التي أشتغل فيها.
وهنا اتّسعت عينا أمّها، التي حاولت أن تخفيَ فرحتها، ولكن عبثًا:
- ماذا قلت؟ ابن صاحب الشّركة؟
ثمّ نظرت لزوجها، لتوجّه له السّؤال هذه المرّة:
- إنّه صديقك، أليس كذلك؟
فردّ عليها (ببرود):
- بلى.
ثمّ نظر لابنته، وقال:

- وأنتِ - يا وردة - ما هو رأيك؟
- لا أعرف يا أبي، فأنا ما زلتُ متردّدة.
وهنا قالت أمّها (منتفضة):
- وهل يأتينا عريسٌ مثله كلّ يوم، لكي تتردّدي؟
فقاطعها زوجها (قائلًا):
- دعيها تتّخذ القرار، الذي تراه مناسبًا لها، فهي من ستتزوّجه لا أنت.
ثمّ التفت لابنته مرّة أخرى، وسألها:
- ولكن لِما أنتِ متردّدة؟ هل هو شابٌّ سيّء السّمعة؟
- هذا ما أريده منك يا أبي، أريد أن تخبرني عن أبيه، فقد سمعت بأنّه شرّير، ومتسلّطٌ جدًّا، بالإضافة لهاني أيضًا، فالبعض في الشّركة يقولون بأنه تافه، وتجمعه علاقاتٌ بنساء كثيرات، ولا أعرف إن كان ما يقولونه صحيحًا، أم مجرّد إشاعات.
وهنا تدخّلت أمّها (قائلة):
- ومالكِ أنتِ إن كان كلامهم صحيحًا، أم مجرّد إشاعات؟ المهمّ أنّه اختاركِ أنت، وتقدّم لخطبتك وهو ابن عائلة مرموقة، وفاحشة الثّراء، ماذا تريدين أكثر من هذا؟
وهنا صرخ أبو وردة فيها (قائلًا):
- هل لكِ أن تمسكي لسانكِ قليلًا؟
فقامت زوجته غاضبة، وقالت:
- حسنًا.. سأخرج، لأتركك أنت وابنتك، فأنا ليس لي علاقة بالموضوع، وكأنّي لستُ أمّها.

فابتسمت وردة، ثمّ قالت لوالدها:

- لما أغضبتها يا أبي؟

فقال أبوها (متجاهلًا موضوع أمّها تمامًا):

- أنا شخصيًّا جمعني بالسّيد سالم، الكثير من المصالح، والحقُّ يُقال، فهو ذو أخلاقٍ عالية، ولم يصادف أبدًا وأن أهان أحدًا، ممّن يشتغلون معه، بالرّغم من كلِّ ما يقوله النّاس.. أخبريني أنت.. كم مرّة تقابلتِ فيها مع السّيد سالم؟

- حوالي ثلاث مرّات.

- جيّد.. وهل عاملكِ بسوءٍ خلالها؟ أسمعتِ موظّفًا يشتكي، من سوء معاملته؟

- لا.. أبدًا.

- حسنٌ، إذًا علينا أن نمشيَ بما يمليه علينا ضميرنا، لا بما يقوله النّاس، فلكلّ إنسانٍ تجربة معيّنة، وموقفٌ معيّن، لا يصلح إلّا له هو شخصيًّا، ولا يمكن أن نسقطَ هذا الموقف، على غيره، أمّا بالنّسبة لابنه، فأعتقد بأنّه مدلّلٌ بعض الشّيء، وهذا أمرٌ طبيعي جدًّا، بالنّسبة لشخص ثريّ مثله، ولكن لا أستطيع الحكم عليه، أنتِ وحدكِ من يستطيع ذلك، وخصوصًا أنّه زميلكِ في الشّغل، وتعرفينه أكثر منّي.

وهنا أحسّت وردة ببعض الرّاحة، فقالت:

- أشكرك على كلامك يا أبي، فأنا لا أرتاح إلّا بعدما أستمع لنصائحك القيّمة، حتّى وإن لم أعمل بها، في بعض الأحيان، إلّا أنّ آراءك دائمًا ما تعجبني، وهو ما جعلني أستشيرك، في هذا الموضوع.

- أتمنّى من الله بأن يوفّقك في حياتك، لما فيه الخير لكِ يا ابنتي.

***

ظلّت سارة تتّصل بهاني، طوال المساء، ولكن بدون جدوى، إلى أن أحسّت باليأس أخيرًا، فتوقّفت لمدّة من الزّمن، نظر هاني لهاتفه، بعد أن أحسّ بأنّها قد توقّفت، أين وجد بأنّ السّاعة تشير للواحدة ليلًا، وهنا وضع رأسه على الوسادة، كي ينام.. كان لا يريد أن يشغل باله، بمشكلة سارة، فكلّ همّه هو نيل رضى وردة، التي ما انفكّ يفكّرُ فيها، في البيت، وفي الشّغل، بل وفي الحُلم أيضًا.

رنّ هاتفه مجدّدًا، ليفسد عليه أحلام اليقظة تلك، ويعكّر صفوه، فقام من فراشه متأفّفًا، وردّ مباشرة:

- ألا تخجلين أبدًا؟ كم من مرّة اتّصلتِ بي، ولم أجبك، أليستْ لديكِ كرامة؟

فقالت سارة (بحزنٍ شديد):

- أرجوك يا هاني، اسمعني فقط.

- قولي ما عندكِ بسرعة، فليس لديّ وقت.

- أعرف بأنّي قد أسأتُ التّصرّف، في المرّة الماضية، ولكن..

وسكتت فجأة، ممّا جعل هاني يسألها (بغضب):

- ولكن ماذا؟

- دعنا ننسى ما فات، ونبدأ من جديد، وخصوصًا أنّك ستكون أبًا.

- أب؟ أتمزحين؟

- أجل.. أم إنّك تريد أن تتنصّل من مسؤوليّاتك اتّجاهه؟

- حين يكون ابني أصلًا، اكذبي هذه الكذبة، على شخص آخر.

قال هاني كلامه هذا، وأنهى المكالمة، ثمّ أغلق هاتفه.. أمّا سارة فقد بقيت للحظة تتكلّم، معتقدة بأنّه لا يزال على الخطّ، إلى أن أحسّت بأنّه لم يعد يتجاوب معها، أين ألقت نظرة على هاتفها، لتجد بأنّ المكالمة قد انتهت، فثارت ثائرتها، وقامت من مكانها، وهي تتوعّد بالانتقام منه.

***

ظلّ حازم ونور يتنقّلان بين المحلّات، ليختارا خاتم الخِطبة، إلى أن أحسّت نور بالتّعب، فقالت لحازم (متذمّرة):

- أرى بأن نؤجّل موضوع اختيار الخاتم هذا، ليوم آخر، فقد تعبت.
- لا تكوني كسولة يا نور، نحن لم نرَ إلّا أربعة محلّات فقط.
- أربعة محلّات؟

قالت نور مستغربة من العدد، قبل أن تستأنف الحديث:

- بل قُل لم نترك محلًّا إلّا وزرناه، ثمّ إنّني لا أكاد أختار خاتمًا، حتّى تطلب منّي أن أعيده، لنختار ما هو أجمل منه، في محلّ آخر، وهكذا.. إلى أن زرنا معظم محلّات المدينة، بدون جدوى.
- أريد أن أشتريَ لكِ أجمل خاتم، وليس مجرّد خاتم بسيط، لا يعبّر عن مكانتكِ في قلبي.

ظلّت نور تنظر له للحظات، ثمّ قالت (مستغربة):

- من يراك لا يقول بأنّك درست الطّب، فالأطبّاء عادة لا يفكّرون بهذه السّطحية.. ثمّ إنّ قيمة الخاتم ليست في ثمنه، هناك أناسٌ كُثر يحبّون البساطة، في كلّ شيء، وأنا واحدة منهم.

- السّطحية؟ سامحكِ الله.. عمومًا إن شئتِ نعود، لنأخذ الخاتم، الذي أعجبك في المحلّ الثّاني، طالما صار الأمر متعلّقًا بالسّطحيّة.

- أنا لم أقصد السّطحيّة بمفهومها السّلبي، لا أعرف لما تحسّس من أبسط الأشياء.

- حسنٌ.. ماذا قلت؟

- أجل.. أرى بأن نعود للمحلّ الثّاني، ونشتري الخاتم، فلا معنى لهذه الجولة أبدًا، فأنا لا أحبّ التّجوال في الشّوارع، بدون هدف.

- كنت متأكّدًا بأنّكِ ستقولين هذا الكلام، فأنتِ طبيبة طبعًا.

- من يسمع كلامك لا يقول بأنّك..

وهنا قاطعها حازم (قائلًا):

- لا يقول بأنّني طبيب، حفظتُ الدّرس.. دعينا نذهب، لنأخذَ الخاتم، قبل أن يشتريه أحدٌ غيرنا، ثمّ تضطرّين لجولة أخرى.

وضحك الاثنان معًا، ثمّ واصلا طريقهما إلى المحلّ، وبعد انقضاء بضع لحظاتٍ خرجت نور، ليلحق بها حازم، وفي يده علبة صغيرة، ليقدّمها لها، وقال:

- خذي خاتمك، الذي كدنا أن نتشاجر بسببه، في الشّارع.

***

كانت جنّات تتكلّم مع زميلاتها، اللّاتي كُنّ يجلسن داخل المدرّج، ويتناقشن حول مواضيع شتّى، لها علاقة بأيّ شيء في الدّنيا إلّا الدّراسة، نظرت واحدة منهنّ لساعتها، ثمّ قالت:

- ألن يأتيَ هذا الأستاذ؟ لقد تأخّر كثيرًا.

فقالت أخرى:

- لو أنّ طالبًا تأخّر كلّ هذا الوقت، لطرده الأستاذ، بل ولم يقبل منه أيّ مبرّر، وحين يتعلّق الأمر بالأساتذة، فإنّهم يعطون لأنفسهم ألف عذر، وليس هذا فحسب، بل إنّه يجب علينا انتظارهم، ولو غادرنا المدرّج فإنّ الأستاذ لن يعيد لنا المحاضرة، بل سيتجاوزها إلى التي بعدها.

فقالت الأولى (مازحة):

- علينا إذًا أن نندّد بهذه التّصرّفات، بل ونُضرب عن الدّراسة أيضًا.

وضحكت، ليضحك معها عددٌ لا بأس به، من البنات، وفي هذه الأثناء رنّ هاتف جنّات، فتركت تلك الأحاديث، لتنشغل بهاتفها، وخاصّة بعد أن وجدت بأنّ عادل هو المتّصل، فردّت (قائلة):

- ألو.

فقال عادل:

- كيف حالك؟

- بخير، وأنت؟

- أنا بخير.. كنت أريد أن أطلب منكِ طلبًا، ولكنّي خجِلٌ بصراحة.

- ولِما الخجل؟

- بصراحة.. كنت أحتاج مبلغًا من المال، ففكّرت أن أسألك، إن كان معكِ بعضٌ منه.

- أَجل، عندي بعضٌ منه، في حقيبتي.

- جيّد.. وأين أنت؟

- وأين أكون؟ أنا في الجامعة طبعًا.

- في المدرّج، أليس كذلك؟
- أجل.
- ما هذه الصّدفة؟ أنا قريبٌ منه.
- انتظر لحظة.

قالت جنّات، قبل أن تقوم، لتضع هاتفها في الحقيبة، وسارت باتّجاه الباب، أين سألتها زميلتها:

- إلى أين يا جنّات؟
- أوه.. تذكّرتُ شيئًا، عليّ القيام به.
- هل ستعودين، لتحضري للمحاضرة؟
- لا أعلم.

وأكملت طريقها نحو الباب، وما إن خرجت حتّى وجدت عادل، الذي كان يقف مع شابّين، ويتحدّث إليهما، وهنا اقتربت منه قليلًا، ثمّ نادت عليه، وحين سمع صوتها، التفت ليرى، وإذْ به يجدها تقف بالقرب منه، وهنا ترك رفاقه، وسار نحوها، وهو يبتسم، ثمّ قال:

- أنا آسفٌ جدًّا، لأنّي جعلتكِ تتركين المحاضرة.
- لم أترك المحاضرة، فالأستاذ لم يأتِ أصلًا، لم تقل لي، ما هو المبلغ الذي تحتاجه؟

ثمّ فتحت حقيبتها، لتخرج بعض المال، وشرعت تعُدُّه، إلى أن وصلت لآخر ورقة، فقالت:

- عشرون ألف دينار.

وهنا اتّسعت عينا عادل، وبعد أن فكّر قليلًا، قال:

- بصراحة كنت أحتاج لعشرة آلاف دينار، لأصلح عطلًا في سيّارتي، ولكنّي لا أعتقد بأنّه سيَفِي بالغرض.

وسكت قليلًا، قبل أن يضيف:

- ماذا كنت أريد أن أقول؟ أعطني العشرين ألف دينار، والباقي سأعيده لك.. ومعه ما استلفته منكِ سابقًا.

وأخذ المبلغ، دون أن يترك لها المجال، لتقدّمه بنفسها، فضحكت، ثمّ قالت:

- ومنذ متى كنت تعيد لي، ما استلفته منّي؟

فغضب عادل، وقال:

- أتريدين إذلالي، فقط لأنّكِ أقرضتني بعض المال؟ خذي مالكِ إذًا.

- ما بك؟ كنت أمازحك فقط، قل لي، كيف عرفت بأنّني في المدرّج؟ هل كنت تراقبني؟

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله.. قلتُ لكِ خذي مالك، كم أنتِ شرّيرة.

وهنا مدّت جنّات يدها، لتأخذ المال، وقالت:

- حسنٌ، ما دمتُ بهذا الشّر في نظرك، إذًا هاتِ المال.

فوضع عادل المال في جيبه، ثمّ قال (وهو يضحك):

- كنت أمازحكِ فقط.. ثمّ إنّكِ تعرفينني جيّدًا، المبلغ الذي أضع عليه يدي، من المستحيل أن أتركه، حتّى لو كلّفني حياتي.

- أعرفك جيّدًا.. اسمع، لقد جاء الأستاذ، عليّ أن أدخل بسرعة، قبل أن يسبقني، ثمّ يطردني بحجّة أنّي جئتُ بعده.. مع السّلامة.

- إلى اللّقاء يا عصفورتي، على أمل الحصول على مبلغ مثله، في المرّة القادمة.

قال عادل هذا الكلام بصوتٍ خافت، لكيلا يسمعه رفيقاه، اللّذان كانا ينتظرانه، وفي هذه الأثناء اقترب واحدٌ منهما، وقال:

- هل نذهب؟

فقال عادل:

- أجل.

فسأله الثّاني:

- أخبرني، كم أقرضتك؟

- عشرة آلاف دينار.

- جميل، إذًا دعنا نذهب.

ثمّ قال الآخر:

- كم أنت محظوظ يا عادل، تلك الفتاة تحبّك، لدرجة أنّها لا ترفض لك طلبًا.

فقال الآخر:

- فعلًا.. بالرّغم من أنّه لا يستحقّها أبدًا.. فهي أفضل منه بكثير.

وهنا قال عادل:

- هل أصابتك جدّتك بالعدوى، حتّى صرتَ تتكلّم مثلها؟ أنصحك بألّا تتكلّم كالنّساء.

فضحك الآخر، ثمّ قال:

- دعونا من هذا الكلام، ولنذهب للمكان، الذي اتّفقنا بأن نذهب إليه.

***

بعدما ركن هشام سيّارته، بجانب المدرسة، سار باتّجاه الباب، فوجد الحارس، الذي سأله (قائلًا):

- هل من خدمة سيّدي؟

- أريد أن أقابل المدير، هل هو في مكتبه؟

- أجل.. تفضّل بالدّخول.

ثمّ أشار له بيده (قائلًا):

- ذاك هو مكتب المدير.

- أنا أعرفه، فقد سبق لي وأن زرته مرّاتٍ عديدة.. شكرًا لك.

ودخل لمكتب المدير، فطلب منه الجلوس، ريثما ينتهي من تسجيل تلميذٍ جديد، ثمّ قال له:

- مرحبًا بك، هل من خدمة؟

- أنا والد الطّفلين فارس وفراس، اللّذين يدرسان بالسّنة الثّانية، وقد جئتُ لآخذهما، لأنّنا سنسافر بعد ساعتين.

وبعدها أخرج بطاقته الوطنيّة، وقدّمها للمدير، بناءً على طلبه، والذي نادى للمُشرفة، وطلب منها إحضار الطّفلين، وإبلاغ معلّمتهما أنّ أباهما يريد أخْذهما، وبعد مدّة عادت المشرفة، ومعها الطّفلان، وما إن رآهما هشام حتّى أقبل نحوهما (قائلًا):

- لقد اشتريتُ لكما، الكثير من الألعاب.

وهنا بدأ الطّفلان بالبكاء، كان فراس يقول لوالده:

- لا أريد أن أذهب معك، اتركني وشأني.

وبالكاد استطاع هشام إمساك الولدين، ليخرج، وأسرع لكيلا يكتشف أمره أحد، وخاصّة مع تعالي صراخ الطّفلين.

***

- أتعلمين؟ لقد اشتقتُ لكِ كثيرًا، لا تتصوّرين كم المكتب مملّ، في غيابك يا وردة.

- أشكركِ على كلامك.. وأنا أيضًا اشتقتُ لكِ كثيرًا، وللشّغل أيضًا.

فنظرت جهينة بمكر لوردة، ثمّ قالت:

- للشّغل فقط؟

فتجاهلتها وردة، وذلك بأن قالت (مازحة):

- اهتمّي بالملفّات التي بين يديك، ولا تتكلّمي خارج مجال الشّغل، لو سمحت.

ثمّ ضحكت، لتضحك بعدها جهينة، التي عادت للحديث:

- اتّصلتُ بكِ مرارًا، لأطمئنّ عليك، ولكنّ هاتفك كان خارج الخدمة، حتّى إنّي قد فكّرتُ في أن أزورك.

- لم يكن لهذا داعي.. فقد أُصبتُ بالزّكام، ولهذا تغيّبت.

سكتت وردة للحظات، ثمّ عادت لتقول:

- كنت أريد أن أخبركِ شيئًا.

فانتبهت جهينة، وقالت:

- كلّي آذانٌ صاغية.

- لطالما سألتِني، فيما إن كانت هناك علاقة بيني، وبين هاني، وكنت دائمًا أتهرّب من الإجابة.. في الحقيقة..

وسكتت مرّة أخرى، لشعورها بالخجل، فقاطعتها جهينة (قائلة):
- أعرف يا وردة.. أعرف كلّ ما تريدين قوله.
فتفاجأت وردة، واستغربت من إجابتها، ثمّ سألتها:
- تعرفين ماذا؟
- أعرف بأنّكِ على علاقة بهاني.
- ولكن كيف عرفت؟
وهنا ابتسمت جهينة، وقالت:
- أنا خبيرة في هذا المجال.
- لم أشأ إخبارك، لعدم ثقتي من مشاعره اتّجاهي، بالإضافة للشّائعات، التي كانت تحوم حوله، هذا كلّه جعلني لا أفصح عن الأمر.
- وما الذي تغيّر الآن، حتّى جعلكِ تقولين ما قلته؟
- لقد تقدّم لخطبتي، وبما أنّكِ صديقتي المقرّبة، رأيتُ أن أخبرك، قبل أيّ شخص آخر.
- أممم.. هذا يعني بأن أحضّر نفسي للخِطبة، أليس كذلك؟
فضحكت وردة، ثمّ قالت:
- أجل.
- مباركٌ عليك يا وردة.

***

- ما الذي فعلته بنفسي؟ كان عليّ أن أفكّر، قبل الارتباط بأنانيّ كهاني.

كانت سارة تكلّم نفسها، وتلومها على ما فعلته بها، فلا أحد يستحقّ أن تضحّيَ بنفسها، من أجله، هكذا قالت لنفسها، قبل أن تدخل عليها أمّها، التي قطعت حبل أفكارها، فاستغربت حين وجدتها تكلّم نفسها، وقالت:

- مع من تتحدّثين يا سارة؟

وهنا انتبهت سارة لوجود أمّها، فقالت (محاولة إخفاء حزنها، وغضبها بابتسامة مصطنعة):

- كنتُ أحاول أن أتذكّر، ما حفظته البارحة، فالاختبارات على الأبواب.

فاقتربت أمّها منها، ثمّ جلست بجانبها، وقالت:

- ما بك يا سارة؟ مالي أراكِ حزينة؟

ارتبكت سارة من هذا السّؤال، ولكنّها ظلّت متحكّمة في مشاعرها:

- أنا بخير.

- صحيح، كنت أريد أن أسألك، عن ذاك الشّاب، الذي يُدعى.. آه، تذكّرت، هاني.. كيف حاله؟

- أوه.. إنّه بخير.. بخير.

- أما زلتِ تكلّمينه يا سارة؟

- أوه.. أجل، من حين لآخر، فأنا كما تعلمين، مهتمّةٌ حاليًّا بالتّخرج.. ولا أفكّر في أيّ شيء آخر.

- لقد أخبرتِني سابقًا بأنّه ينوي، أن يتقدّم لخطبتك.

لم تكمل أمّ سارة كلامها، حتّى قامت ابنتها مسرعة للحمّام، وهي تضع يدها على فمها، فقامت أمّها لتلحق بها، وقالت (متسائلة):

- هذه ثاني مرّة تشعرين فيها بالغثيان.

خرجت سارة من الحمّام، بعد أن أرجعت ما في معدتها، وعادت لترتاح في غرفتها، أمّا أمّها فقد اكتفت بدور المراقب، الذي أخذ على عاتقه طرح الاحتمالات، وكأنّها طبيبٌ يشخّص حالة:

- من المحتمل أن يكون هذا نتيجة تسمّم، أو ما شابه..

فنظرت لها سارة، ثمّ قالت (ببرود):

- أظنّ ذلك.

وعادت لتغرق في بحر أفكارها، محاوِلةً إيجاد حلٍّ لهذه المصيبة، التي وضعت نفسها فيها، قالت في نفسها:

- ما هذه المصيبة التي حلّت عليّ، والآن ما العمل؟ عليّ التّصرّف قبل أن ينكشف أمري.

***

- صحيح، هل سبق لك وأن رأيتِ أخا هاني، المدعوّ بخالد؟
- لا.. لم أره أبدًا.
- ولكن كيف لا تعرفينه، وهاني يكون أخاه؟ ألم يخبركِ عنه من قبل؟

أومأت وردة برأسها، نافية أن تكون قد رأت خالد، من قبل، وقالت:

- غريب.. كيف لم يخبرني عنه هاني؟

وسكتت قليلًا، قبل أن تضيف:

- دعينا منه الآن، وأخبريني عن ذلك الشّاب، الذي حدّثتني عنه.

فابتسمت جهينة، ثمّ تنهّدت، وقالت:

- أتصدّقين؟ لم يحدث أيّ شيء، منذ آخر مرّة التقيته فيها.

***

خرجت فلّة من البيت للمدرسة كالعادة، وما إن وصلت حتّى طلبت من السّائق التّوقّف، ريثما يخرج التّلاميذ، وما هي إلّا دقائق حتّى خرجوا، القسم تلو الآخر، نظرت فلّة للتّلاميذ، باحثة عن ولديها، كما كانت تفعل دائمًا، وحين تأخّرَا نزلت من السّيارة، واقتربت من باب المدرسة، ثمّ أخذت تنظر للصّفوف، حتّى رأت زملاء أولادها قادمين مع معلّمتهم، فأحسّت بالطّمأنينة، وراحت تنتظرهم، حتّى دنوا من الباب، نظرت فلم تجد فارس وفراس، وهي على هذا الحال من البحث، وإذْ بالمعلّمة تتقدّم نحوها، لكي تسلّم عليها، فسألتها فلّة عن ولديها، لتخبرها بأنّ زوجها قد أخذهما، وهنا لم تتمالك فلّة نفسها، فبدأت بالصّراخ، ما جعل المعلّمة تستغرب، فقالت:

- ما بكِ سيّدتي؟ هل من خطب؟

ولكنّها لم تجبها، بل ظلّت تصرخ، وتبكي، وتقول:

- لقد خطف أولادي، اتّصلوا بالشّرطة.

وهنا التفّ حولها المعلّمون، الذين خرجوا مع تلاميذهم، وخرج المدير، ليطلب منها بأن تهدّئ من روعها، ولكنّها لم تكن تدري، بما يحدث حولها، لتسقط مغشيًّا عليها، وينقلها بعض المعلّمين لقاعة المدير.

***

كان أبي جالسًا برفقة أحد رجاله، في حديقة المنزل، يتحدّثان عن آخر عمليّة، قال أبي بعد أن أشعل سيجارة:

- علينا أن نعرف من الذي يراقبنا، ومن الذي أبلغ الشّرطة، عن العمليّة الأخيرة.. فالأمر في غاية الخطورة.

- نحن نعمل على هذا، سوف يكون غريمك تحت رجلك، في القريب العاجل، لتفعل به ما تشاء.

وهما على هذا الحال، إذْ بهاتف أبي يرنُّ فجأة، فطلب من الرّجل الذي معه، بأن يلزم الصّمت، ريثما ينهي المكالمة، ثمّ ردّ:

- ما الأمر؟

- سيّدي أنا مع فلّة، لقد أغمي عليها.

فاعتدل أبي في جلوسه، ثمّ قال:

- ماذا؟

- لقد خطف هشام زوجها الأولاد.

وهنا أنهى أبي المكالمة، ليتّصل بأحد رجاله، ويكلّمه (بغضب):

- اسمع.. أريدك أن تحضر لي (هشام.ح) حيًّا، أو ميّتًا.. هل فهمت؟

ثمّ عاد ليغلق هاتفه، فسأله الرّجل الذي معه:

- خيرًا إن شاء الله.

- الوغد.. لا يعرف بأنّي أستطيع سحقه برجلي.

***

دقّت لبنى الباب على المدير، وقالت بعد أن دخلت:

- لقد أخبروني بأنّك تريدني.

فقال لها المدير، بعد أن أنهى المكالمة، وأعاد السّماعة لمكانها:

- أجل.. تفضّلي يا لبنى، اجلسي.

فتقدّمت بخطى متثاقلة، ثمّ جلست.. وما إن فعلت حتّى بادرها:

- لاحظتُ في الآونة الأخيرة، بأنّكِ تتغيّبين بكثرة، وتتحجّجين في كلّ مرّة بأعذار واهية.. أخبريني الحقيقة، فأنا في مقام والدك رحمه الله.

فابتسمت، وقالت:

- بماذا أخبرُك؟

- أخبريني عن سبب غياباتكِ الكثيرة، أتعانين من مشكلة؟ هل أزعجكِ أحدٌ ما هنا؟ باستطاعتي مساعدتك، أنتِ تعلمين معزّتكِ عندي، خاصّة وأنّكِ من الأطبّاء الأكفّاء.. ولكن غياباتكِ المتكرّرة توحي بأنّكِ تعانين، من خطبٍ ما.

- أشكرك - سيّدي - على مشاعرك، صدّقني، لا يوجد شيءٌ ممّا ذكرت، وإن حصل معي أمرٌ يستدعي المساعدة، فسآتي إليك مباشرة.

فتنهّد المدير، ثمّ قال:

- أعلم بأنّكِ تخفين عنّي أمرًا مهمًّا، ولكنّكِ لا تريدين البوح به.. عمومًا آمل ألّا يكون خطيرًا.. والآن.. يمكنكِ العودة لشغلك.

***

عادت فلّة بصحبة السّائق، الذي أدخلها للمنزل، وما إن رأتها أمّي حتّى أسرعت إليها، لتستفسر عن سبب تعبها، بهذا الشّكل، فصاحت فلّة في هذه الأثناء، وقالت:

- لقد أخذ الأولاد يا أمّي.. لقد قام بخطفهم.

وعادت للبكاء، والنّحيب مرّة ثانية، وهنا أسرعت الخادمة، لتساعد أمّي في نقلها لغرفتها، أين طلبت منها أمّي، بأن تستلقيَ على السّرير، وقالت (والدّهشة بادية على وجهها):

- ولكن كيف حصل هذا؟ ألم يكونا في المدرسة؟

قالت الخادمة في هذه الأثناء:

- هدّئي من روعكِ سيّدتي، فهو لن يؤذيهما، ففي النّهاية يظلّ والدهما، وسيعيدهما، لا تقلقي.

فقالت أمّي للخادمة:

- علينا أن نبلّغ الأمن.

فقاطعتها فلّة (قائلة):

- لقد أبلغتهم قبل ساعة، وأخبروني بأنّهم سوف يفعلون ما في وسعهم، للعثور عليهما.

ثمّ عادت للبكاء مرّة أخرى، وقالت:

- أريد أولادي.. أريدهم حالًا.

- اهدئي يا ابنتي، لا تفعلي بنفسكِ هكذا.. سيعودان، لا تقلقي.

قالت أمّي كلامها هذا، ثمّ نظرت للخادمة، وقالت لها:

- أحضري لي هاتفي بسرعة.

فركضت الخادمة مسرعة لغرفة أمّي، ثمّ عادت، وفي يدها هاتف هذه الأخيرة، لتقدّمه لها، وهنا قامت أمّي بالاتّصال بأبي، لتخبره بما حصل، فأخبرها بأنّه قد علم للتّو، وأنّه سيتصرّف، ويعيد الولدين، وطلب منها أن تطمئن فلّة، وتخبرها بأنّ كلّ شيء سيعود كما كان، وأغلق هاتفه ليواصل حديثه، لصديقه الضّابط (قائلًا):

- أشكركم سيادة النّقيب.

- لا تقلق سيّدي، سيكونان عندك، في غضون ساعات، ولكن أريد منك بعض المعلومات، المتعلّقة بهشام، كعنوان بيته، ورقم هاتفه..

وبعدما أنهى أبي حديثه، مع الضّابط، خرج من القسم، ثمّ اتّصل بأحد رجاله (قائلًا):

- هل من جديد؟
- لا تقلق سيّدي، اعتبره عندك بعد ساعة، كأقصى تقدير.
- جيّد.

ثمّ أغلق هاتفه، وطلب من السّائق بأن يعيده، إلى البيت.

***

ظلّ هشام يجوب الشّوارع، لكي يسكت الطّفلين، اللّذين رفضا إلّا أن يأخذهما لأمّهما، حتّى إنّه قد اشترى لهما، الكثير من الألعاب، ولكن بدون جدوى، وهو على هذا الحال، من القلق والخوف، والسّير من طريق لآخر، ليصل لوجهته التي يريد، وحين شارف على إنهاء أحد الطّرقات، ليعبر للطّريق الآخر، لاحظ سيّارة شرطة، تقف عند آخر الطريق، وتوقف كلّ السّيّارات التي تمرّ أمامها، لتخضعها للتّفتيش، فاضطرّ لتغيير طريقه، في آخر لحظة، فقد خاف أن يفضحه الطّفلان، وينكشف أمره، فتوجّه بهما لبيت، يقع في عمارة بوسط المدينة، وما إن وصل حتّى أمسكهما، من ذراعيهما، واقتادهما لتلك العمارة، ليجتاز بهما تلك السّلالم، التي توحي بالخوف.. في الحقيقة لم تكن السّلالم الوحيدة، التي كان منظرها مخيفًا، فالعمارة قديمة، وجدرانها متآكلة، وهو ما أثار حفيظة الطّفلين، اللّذين سكتا لبضع لحظات، قبل أن يعودا للبكاء، رافضيْن بذلك الصّعود عبر هذه السّلالم، وهم على هذا الحال،

إذْ التقوا بامرأة وزوجها، ينزلان من تلك السّلالم، فنظرت المرأة لهشام باستغراب، وكذلك زوجها، فهذه أوّل مرّة يريانه فيها، يدخل للعمارة، فقالت لزوجها:

- هل هذا الرّجل ساكنٌ جديد بالعمارة؟

- لا أظنّ ذلك.. أعتقد بأنّه قد جاء لزيارة أحدهم.

كان هشام يصرخ في الطّفلين، اللّذين كانا يقولان له:

- لا نريد الذّهاب معك، أعدنا إلى أمّي.

ممّا جعل غضبه يزداد، أين ضرب فراس على كتفه، وعاد ليمسك ذراعه بالقوّة، ويسحبه من جديد، وهنا عادت المرأة لتقول لزوجها:

- لما يعامل الطّفلين بهذه القسوة؟ آباء آخر زمن.

فنظر هشام للمرأة، التي كانت تتمتم، بكلام غير مفهوم، لكن وبالرّغم من أنّه كان غير مفهوم، إلّا أنّ تعابير وجهها أزالت الغموض عنه، فقد كانت تنظر لهشام باحتقار، وهنا أسرع، ليختفيَ بين تلك السّلالم، ومعه الطّفلان، بعدما شعر بالخوف يتملّكه منها.

***

خرجتُ من المشفى، بعدما أخذتُ الإذن، متّجهًا إلى البيت، بعد أن كلّمتني أمّي، وما إن دخلتُ حتّى وجدتُ أبي منهمكًا، في اتّصالاته، التي لا تنتهي، ولكن اتّصالاته - هذه المرّة - كانت تتعلّق بأولاد فلّة، فقد سمعتُه يقول:

- هل عثرتم عليه؟

وبعد أن أجابه الآخر بالنّفي، ثارت ثائرته، فصرخ فيه (قائلًا):

- عليكم أن تعثروا عليه في الحال، أنا لا أدفع لكم رواتب في كلّ شهر، بدون مقابل.

صعدتُ بعد ذلك لغرفة فلّة، فوجدتُها مستلقية، وأمّي تجلس بجانبها، وهي تحمل كأسًا، من عصير النّعناع، لتقدّمه لها (قائلة):

- خذي يا ابنتي، واشربي القليل فقط.

وذلك في محاولة منها لإقناعها، بشرب القليل منه، ولكن هيهات، ففلّة لم تكفّ عن النّحيب، والبكاء، والمطالبة بإحضار أبنائها.. فاقتربتُ منها واضعًا حقيبتي جانبًا، لأخرج منها حقنة، وبعدما انتهيتُ من تحضيرها، غرزتها في ذراعها، لأنّها لم تكن تفعل شيئًا، عدا الصّراخ، لدرجة خارت معها قواها، وانهارت، دخل علينا في هذه الأثناء خالد، الذي بدا عليه بأنّه قد علم لتوّه، فقد نظر لفلّة مطوّلًا، قبل أن يتلفّظ بكلمات، مليئة بالتّهديد (قائلًا):

- كان عليّ قتله، حين دخل لبيتنا، وأراد أخذ الأولاد عنوة، ما كان عليّ أن أتركه يخرج سالمًا، كما دخل.. الوغد..

فتدخّلتُ لأحُدّ من غضبه، وقلتُ (مقاطعًا إيّاه):

- هذا ليس حلًّا، فالشّرطة تبحث عنه، ولن تمرَّ ساعاتٌ إلّا والأطفال في حضن أمّهم، ثمّ إنّه أبوهم، ولن يضرّهم.. اجلس، واهدأ، فهي ليست في حالة جيّدة، علينا أن نهدأ جميعًا، لتطمئنّ هي الأخرى.

وقبل أن يواصل خالد حديثه، ضاربًا بذلك كلامي عرض الحائط، دخل علينا في هذه الأثناء أبي، الذي على ما يبدو بأنّه قد سمع كلامي، فقال لخالد (معقّبًا على كلامي):

- أخوك محقٌّ يا خالد، إنّها مسألة وقت فقط، ويكون الأطفال هنا، فقد كلّمتُ أحد معارفي، ووعدني بأن يبذل جهده، ليعيد الطّفلين سالمين، ومعهما هشام، وساعتها سأنتقم منه بطريقتي الخاصّة.

- ولكن يا أبي..

فقاطعه أبي:

- سبق وأن قلت بأنّ رجال الأمن سيفعلون، كلّ ما في وسعهم، هيّا.. اذهب لغرفتك، ودع أختك ترتاح.

***

في اليوم الموالي خرج هشام باكرًا، ليشتريَ بعض الأكل، مستغلًّا نوم الطّفلين، وبعد مدّة استيقظ هذان الأخيران، وبمجرّد أن وجدا بأنّهما لوحدهما في البيت، حتّى هرعا للباب، وبدآ بالصّراخ:

- افتحوا لنا الباب، أرجوكم.. لقد خطفنا أبي، واحتجزنا هنا.. افتحوا.

لكن ما من مجيب، حتّى نزلت السّيدة، التي التقت مع زوجها بهشام، ولكنّها كانت بمفردها هذه المرّة، وما إن وصلت عند الطّابق، الذي يقيم فيه هشام، حتّى سمعت الصّراخ، فدنت من باب البيت، الذي يأتي منه الصّراخ، لتسمع الطّفلين (وهما يستنجدان):

- ساعدونا.. لقد اختطفنا أبي، واحتجزنا هنا.. أرجوكم افتحوا الباب.

فلم تصدّق ما سمعت أذناها، فعادت لتنصت.. وبعد لحظاتٍ سمعت وقع أقدام شخص، فأطلّتْ لتجده هشام، فصعدت بسرعة لبيتها، وما إن رآها زوجها حتّى سألها:

- ألم تخرجي للتّو، لتشتري بعض الحاجيات؟ لما عدتِ بهذه السّرعة؟

فقصّت عليه ما سمعته، ثمّ سألته (قائلة):
- برأيك.. هل ما قاله الطّفلان صحيح؟
فضحك زوجها، وقال لها (وهو يقلّب صفحات الجريدة):
- دعكِ من هذا الموضوع، فالأطفال يحبّون التّأليف، لتأثّرهم بالأفلام الخياليّة، التي يشاهدونها على التّلفاز، طوال اليوم.

***

اتّصلت أمّ هاني بأبي، لتعرف سرّ غيابه عن البيت، فهذه أوّل مرّة يغيب فيها عنهم هكذا، فأخبرها بما حصل لفلّة، وبأنّه لن يستطيع المجيء، قبل أن يعود الأطفال لأمّهم، فقالت:
- أنا آسفة حقًّا لسماع هذا الكلام، لكن لديّ إحساسٌ بأنّهما سيعودان، لا تقلق يا زوجي العزيز.
- آمل ذلك.. ألهذا السّبب اتّصلتِ بي؟
- بصراحة ليس هذا هو السّبب الوحيد، الذي جعلني أتّصل بك، ولكنّه الأهمّ طبعًا، لأنّ بالي كان مشغولًا عليك، وأردتُ أن أطمئن.
- حسنٌ.. وماذا تريدين أيضًا؟
- لا.. لم يعد مهمًّا الآن، فقضيّة أولاد فلّة أهمّ.
أنهت أمّ هاني المكالمة، وقالت لابنها، الذي كان جالسًا بجانبها:
- أتعرف يا هاني؟ لقد وقع مشكل في بيت ضرّتي، فصهرها قد خطف الطّفلين، وهم الآن يبحثون عنه.
قالت كلامها، والأرض لا تسعها من الفرح، فقال هاني (مستغربًا):
- ولكن لِما أخذ الطّفلين، دون علم أمّهما؟

- وماذا يهمّني أنا؟ المهمّ أنّه قد انتقم لي منهم كلّهم.
- ما هذا الكلام يا أمّي؟
- اسكت.. فأنت لا تعرف شيئًا.

قالت أمّ هاني كلامها، وذهبت للمطبخ، وهي تغنّي لفرط سعادتها، أمّا هاني فقد بقي مصدومًا من تصرّفاتها.. وهو على هذا الحال، إذْ رنّ هاتفه فجأة، فأخرجه من جيبه، ليجد بأنّها سارة، فأغلقه، وقال:

- يا إلهي.. كم هي مزعجة هذه البنت، لا تريد أن تفهم، بأنّني لا أريد التّكلّم معها.. فهي بدون كرامة.

***

ظلّت سارة تروح وتجيء في غرفتها، وهي تستشيط غضبًا، حتّى صارت كالمجنونة، بحثت في هاتفها، عن رقم صديقتها، لتتّصل بها، وبعد مدّة من الانتظار، ردّت عليها هذه الأخيرة، فقالت لها سارة:

- أنا أحتاجكِ حالًا.

وأنهت المكالمة، بعد أن وعدتها صديقتها، بأن تكون عندها بعد مدّة، واتّصلت بأحد أصدقاء هاني، والذي كان يسهر مع هذا الأخير، لكنّه لم يجب، ممّا جعلها تبحث في هاتفها، عن رقم آخر، كان لأحد أفراد شلّة هاني، وما إن اتّصلت حتّى ردّ عليها:

- ألو.
- ألو.. كيف حالك يا عبد الوهّاب؟

فقال عبد الوهّاب (مستغربًا):

- بخير.. ولكن من معي؟

- أنا سارة صديقة هاني.
- آه.. أنا آسف جدًّا.. كيف حالك؟
- بخير، بصراحة.. كنت أريدك في خدمة.
- تفضّلي!
- أوه، بصراحة هي قصّة طويلة، ولا أستطيع أن أرويها لك، في الهاتف، ما رأيك لو نلتقي، وأكلّمك بالتّفصيل؟
وافق عبد الوهّاب على طلب سارة، بعد أن أخبرته متى، وأين سيلتقيان، في هذه الأثناء دقّ الباب، ففتحته أمّ سارة، لتجد صديقة ابنتها خلفه، فأدخلتها للصّالون، ونادت على ابنتها، التي خرجت من غرفتها مسرعة، وبعد أن سلّمت على صديقتها، طلبت من أمّها بأن تعدّ لهما القهوة، وأغلقت الباب، لكيلا تسمعها أمّها، ثمّ عادت لتُكلّم صديقتها (بصوتٍ خافت):
- أحتاجكِ في خدمة.
فقالت الأخرى (مستغربة):
- ما هي؟
وهنا أخذت سارة نفسًا عميقًا، ثمّ قالت:
- أريد أن أتخلّص من هذا الجنين.
فوضعت صديقتها يدها على فمها، من شدّة اندهاشها، ثمّ قالت:
- أحقًّا ما تقولين يا سارة؟
- أجل..
- وما المطلوب منّي؟
- أريدكِ أن تخبري أختك، لعلّها تساعدني.

- ولكنّ هذا الأمر خطيرٌ على الجميع، بمن فيهم أنت.
سكتت سارة قليلًا، قبل أن تواصل كلامها:
- على كلّ حال.. لن أجهضه قبل القيام بأمرين، وأنتِ ما عليكِ إلّا أن تسأليها، وإذا لم توافق فسأرى غيرها.. ولكن أرجوك حاولي معها.
وسكتت قليلًا، ثمّ قالت (حين أحسّت بقدوم أمّها):
- غيّري الموضوع الآن.
دخلت أمّها في هذه الأثناء، وفي يدها صينيّة، بها فنجانين من القهوة، قدّمت فنجانًا لصديقة سارة، ثمّ جلست، لتسألها عن أخبارها.
***
دخل أبي لغرفة فلّة، ليطمئنّ عليها، فوجد أمّي بجانبها، أين سألها عن حالتها، فأخبرته بأنّها نائمة بفعل المخدّر، الذي حقنتُها به.. ثمّ جلس على الكرسيّ، المقابل للسّرير، وأخذ ينظر لها بحزن، وحسرة شديدين، وهو يستمع في الآن نفسه، لما تبثّه أمّي من هموم، عن الحالة التي وصلت لها نريمان، والتي آلت إليها فلّة أيضًا، قبل أن تقول:
- لا أعرف ماذا فعلنا، لكي يحدث كلّ هذا لأولادنا؟
وهنا قام من مكانه، بعد أن وقعت عليه كلماتها كالرّعد، فسألته:
- إلى أين يا سالم؟
- لديّ أمرٌ مهمّ، عليّ أن أسوّيه.
وخرج من الغرفة، وبعد أن نزل للطّابق الأرضي، خرج من البيت، ليتّجه للسّيّارة، وانطلق على جناح السّرعة، لبيت أخته (أمّ هشام)، وما إن وصل

حتّى أخرج مسدّسه، ثمّ دقّ الباب، وبمجرّد أن فتحت له الخادمة حتّى دخل مسرعًا، وهذه الأخيرة تسير خلفه (وهي تقول):

- إلى أين يا سيّدي؟

فقال لها أبي، بعد أن أشهر مسدّسه:

- أين هو ذلك الحقير؟

فركضت الخادمة لعمّتي، التي نزلت في هذه الأثناء من فوق، ونزلت معها ابنتها رنا، وقد استغربت من مجيء أبي في هذا الوقت، فقد غربت الشّمس، وحلّ الظّلام، بالإضافة لهذا فقد انقطعت العلاقة، بين أبي وعمّتي من سنين، بسبب الميراث، وهو ما زاد من حيرتها، نظر أبي لهذه الأخيرة، ثمّ صاح فيها (قائلًا):

- أين هو ذلك الوغد؟

- عمّن تتكلّم؟

- ابنكِ ذاك الحقير.

- كيف تدخل لمنزلي بهذه الطّريقة؟ هيّا، اخرج من منزلي فورًا، قبل أن أتّصل بالشّرطة.

- ليس قبل أن أعثر على هشام الوغد.

وهنا قالت ابنتها، التي كانت تختبئ خلفها، وكلّ فرائسها ترتعد، من شدّة الخوف:

- هشام ليس هنا.

- إذًا أخبريه بأنّه لن يستطيع الهرب منّي، لمدّة طويلة.

فقالت عمّتي (بغضبٍ هذه المرّة):

- اسمع، أنا لا أعرف ماذا فعل لك ابني، حتّى جئتَ لتهدّدني في بيتي، ولكنّي أعرف جيّدًا ما فعلته، لي ولأبنائي، لقد سلبتنا حقّنا، في ميراث أبينا، فلا تنتظر من أولادنا، بأن يتجاوزوا عن الذّنب، الذي ارتكبته في حقّنا، نحن إخوتك، إخوتُك الذين سكتوا لأنّك أخوهم، ولكنّك لستَ أخًا لأولادهم، أتفهم؟ وهذا يعني بأنّهم سينتقمون منك، عاجلًا أو آجلًا، والآن، ارحل من بيتي حالًا، ولا تُرني وجهك مجدّدًا.

- سأرحل.. ولكنّي أؤكّد لك بأنّ الخطأ الذي اقترفه ابنك، لا يُغتفر، وسأنتقم منه أنا أيضًا، عاجلًا لا آجلًا.

***

حلّ اللّيل أخيرًا، أين نام الطّفلان، بعد بكاءٍ دام لمدّة طويلة، فاستسلما للنّعاس، بعد محاولاتٍ مريرة لاستعطاف أبيهما، ليعيدهما لأمّهما، لكن دون جدوى، كان هشام في هذه الأثناء يشاهد التّلفاز، أين أخذ يقلّب القنوات، إلى أن شعر بالملل، فأطفأه، ثمّ أمسك هاتفه المحمول، ونزع شريحته، ليضع مكانها أخرى، تحتوي على معلومات شخصيّة، لأحد عمّاله، وفتح الهاتف، ليرى آخر الأخبار، لكنّه لم يجد شيئًا مهمًّا، ففرِح لعدم طرح موضوعه، لحدّ الآن على وسائل التّواصل، ما سيزيد من فرصة هربه، خارج البلد بأمان.

وفي المقابل كانت المرأة التي تسكن بالعمارة، التي يختبئ فيها هشام، والتي رمقته بازدراء، واحتقار، كانت تطلّ من النّافذة، وظلّت على هذا الحال لمدّة، وعادت لتأخذ الجريدة، التي وضعها زوجها على الطّاولة، ثمّ أخذت تتصفّحها كالعادة، إلى أن وصلت لصفحة، تُعنى بالبحث عن المفقودين، فاتّسعت عيناها من الذّهول، وفتحت فمها، من دهشتها، ثمّ قرأت ما هو

مكتوبٌ فيها بعجالة، وبعدها قامت مسرعة لغرفتها، وأعطت الجريدة لزوجها، ثمّ قالت:

- ألم تقرأ هذا الخبر يا عبد الرّحمان؟

فأمسك الجريدة، ثمّ قال:

- لا، لم أقرأ، فأنا لم أعد أهتمّ لأمر المفقودين، ولا العقار، أو الوفيات، وغيرها من هذه الأمور، منذ مدّة طويلة.

فقالت له (وهي تشير بيدها، إلى صورة الطّفلين):

- انظر للطّفلين، أليسا هما نفسيهما، اللّذين رأيناهما بالأمس، مع ذلك الرّجل؟ واللّذين سمعتُهما هذا الصّباح يبكيان؟

فأخذ نظّارته، ودقّق في الصّورة، وقال بعدها:

- أجل.. إنّهما هما في حدّ ذاتهما، ولكن ماذا يفعلان هنا؟

ثمّ قرأ المنشور، وبعد أن فرغ منه، نظر لزوجته متعجّباً، وقال:

- علينا أن نتّصل بالرّقم المكتوب، في أسفل هذا المقال، ونبلّغ المعنيّين بالأمر، بكلّ ما نعرفه؟

وبعدما اتّصل بالرّقم، بلّغ صاحبه بكلّ شيء، وأعطاه العنوان، وبعد مدّة امتلأ الشّارع بسيّارات الشّرطة، ثمّ نزل منها أفرادٌ من الأمن، واتّجهوا إلى العمارة، التي أخبرهم عنها الرّجل، وصعدوا إلى الطّابق، الذي يقيم فيه هشام، وما إن وصلوا حتّى دقّوا الباب، فأطلّ هشام من العين السّحرية، ليرى أفراد الأمن يقفون خلف الباب (وهم يقولون):

- افتح الباب، وإلّا فتحناه عنوة.

فما كان من هشام إلّا أن فتح الباب، ورفع يديه بناءً على طلبهم.

***

غادر أبي بيت عمّتي، بعدما أسمعته من الشّتائم، ما لم يستطع تجاوزه، لدرجة أنّه ظلّ يفكّر في كلماتها، طول الطّريق، تلك الكلمات التي إن دلّت على شيء، إنّما تدلّ على مدى القهر، الذي أحسّت به، نتيجة إحساسها بالظّلم.. في الحقيقة لم تكن هي وحدها، من أحسّت بالظّلم، بل كلّ أعمامي، وأولادهم.. رنّ هاتفه في هذه الأثناء، فردّ بعد أن ألقى نظرة عليه، وقال:

- هاه.. هل أمسكتم به؟

- لا، ليس بعد.. فقد بحثنا في كلّ مكان، ولم نعثر عليه..

فصرخ فيه (قائلًا):

- هل أشغّل معي رجالًا أم بغالًا؟ اللّعنة عليكم جميعًا.

وأنهى المكالمة، ثمّ رمى هاتفه، على المقعد المحاذي لمقعده، ليركن سيّارته جانبًا، وأشعل سيجارة، وبعد مدّة رنّ هاتفه مجدّدًا، فتأفّف ظنًّا منه بأنّه أحد رجاله، فواصل التّدخين، متجاهلًا الرّد على المتّصل، ولكنّ هاتفه رنّ مجدّدًا، فألقى نظرة عليه، ليجد بأنّ المتّصل هو واحدٌ من رجال الأمن، الذين يعرفهم، فردّ عليه بسرعة، وقال:

- هل من جديد سيّدي؟

- لقد ألقينا القبض على هشام، تستطيع المرور علينا، لتأخذ الطّفلين إن شئت، أو نرسلهما مع أحد أفراد الأمن، لمنزلكم سيّدي..

- لا، سآتي أنا لأستلمهم، أشكركم من كلّ قلبي، على صنيعكم هذا.

- لا تقل هذا سيّدي.. نحن في خدمة الشّعب، دائمًا وأبدًا.

أسرع أبي لقسم الشّرطة، ليأخذ حفيديه، وما إن دخل حتّى رأى هشام، يقف مكبّل اليدين، فأمسكه من قميصه، ثمّ صرخ فيه:

- هل كنت تظنّ بأنّك ستفلتُ منّي، أيّها الوغد؟

وهنا أسرع رجال الأمن، الذين كانوا واقفين عند الباب، وقاموا بإبعاد أبي عن هشام، ثمّ أخذوا هذا الأخير، بناءً على طلب الضّابط، الذي طلب من أبي بأن يجلس، ليرتاح، ويترك هذا الموضوع لرجال الأمن، ثمّ طلب من أحد الحرّاس بأن يحضر الطّفلين، وبعد دقائق جاء الطّفلان، مع الحارس، وما إن رأيا أبي حتّى ركضا نحوه فرحين، وقالا:

- لا تتركنا يا جدّي.. خذنا معك إلى أمّي.

***

اجتمع بعض العمّال والأطبّاء، حول تلك الحلويّات، التي وضعتها نور على مكتبها، بالإضافة للعصير والشّاي، ليأخذوا نصيبهم منها، أمّا نور فقد اكتفت بالنّظر إليهم، تاركة لهم المجال، ليختاروا ما يحلو لهم، في حين أخذ حازم حصّة الأسد، في الموضوع، فقد كان يوزّع الحلوى تارة، على العمّال، وتارة يأكل معهم، أو يحدّثهم عن المناسبة، التي من أجلها أحضر هذه الحلويّات، وما إن علِم الموظّفون بالموضوع حتّى باركوا له، إلى أن دخل المدير، فرآهم يأكلون، وهنا صاح:

- أتأكلون بدوني؟

ثمّ نظر للموجودين، وقال (متسائلًا):

- من الذي أحضر هذه الحلويّات؟

فقال الدّكتور حازم:

- أنا أحضرتها، تفضّل.. لتأكل سيّدي.

- لا تتعب نفسك يا بنيّ.. فمعدتي تعرف جيّدًا طريقها للطّعام.

ثمّ ضحك، فضحك معه حازم والحاضرون كلّهم، وعاد ليسأل، ولكن بعد أن ملأ فمه:

- ولكن ما هي المناسبة؟

فأشار حازم للخاتم، الذي في يده، ففهم المدير الموضوع، وقال بعد أن اقترب من حازم، وسلّم عليه:

- مباركٌ عليك.

فقال حازم:

- ألن تبارك لنور أيضًا؟

- ولكن ما علاقة نور؟

فقال أحد الأطبّاء الموجودين:

- الدّكتور حازم خطب الدّكتورة نور.

وهنا ابتسم المدير، وقال لنور:

- مباركٌ عليك يا نور.

ثمّ عاد ليكلّم حازم:

- والله إنّك محظوظ جدًّا، بالدّكتورة نور.

دخلت في هذه الأثناء الدّكتورة لبنى، ثمّ قالت:

- مباركٌ عليكما.. بالرّفاه والبنين يا دكتورة نور.

فقالت نور (ببرود):

- شكرًا.

وهنا تقدّم حازم، ووضع بعض الحلويّات في صحن، وقدّمه لها (قائلًا):
- بما أنّكِ مؤدّبة قرّرتُ أن أساعدك، وأعطيكِ حصّتكِ من الحلوى، قبل أن ينقضّوا عليها، ولا يتركوا لكِ شيئًا.
فابتسمت لبنى، ثمّ قالت:
- شكرًا.
وأخذت الصّحن، وعادت لمكتبها، وهنا نظر حازم يمينًا ويسارًا، بعدما تذكّر شيئًا، ثمّ قال لنور:
- صحيح، أين هو الدّكتور حامد؟ لماذا لم يخبره أحدٌ بعد؟
فقال المدير:
- إنّه في مكتبه.
فقال حازم:
- يجب أن آخذ له حصّته، فمن غير المعقول أن يأكل الجميع، وهو ابن عمّ العروس، ولا نقدّم له شيئًا، ماذا سيقول علينا أهل العروس؟
ثمّ نظر لنور، وضحك.. فضحك المدير، وعقّب على كلامه:
- منذ اللّحظة، عليك أن تحسب حساب كلّ شيء، فأهل العروس لا يرحمون العريس، مهما فعل.
فضحك حازم، ثمّ جمع بعض الحلوى، ووضعها في صحن، وأضاف لها الشّاي، ليتّجه لمكتبي، أين كنت منهمكًا، في قراءة بعض الملفّات، التي يحتاج أصحابها لتدخّل جراحي، وما إن دخل حتّى صاح:
- أنت هنا، وأنا أبحث عنك؟
فرفعتُ بصري، لأرى من المتكلّم، ثمّ ابتسمت، وقلتُ له:

- كيف حالك يا دكتور؟
- بخير..
ثمّ وضع صحن الحلوى، فوق المكتب، وقال:
- لقد أحضرتُ لك بعض الحلوى.
- شكرًا لك.
- لقد تمّت خطبتي على نور، بفضل الله، وحمده.
فقلت له (وأنا أحاول أن أبدوَ طبيعيًّا):
- مباركٌ عليكما.
وعدتُ لأركّز في الملفّات، التي بين يديّ، أمّا هو فقد عاد لمكتب نور، أين وجد فوجًا آخرًا من الأطبّاء، قد تهافتوا على المكتب، ليأخذوا نصيبهم، فوجدها فرصة لكي يضيّع الوقت، في الكلام، ولكنّ المدير صاح فيهم، بعد أن نفذ صبره، لِما رأى من توافدٍ للموظّفين كالحجيج، فأحسّ بأنّه قد فقد السيطرة، وصاح:
- هيّا، عودوا لعملكم لو سمحتم، فليس من المعقول تضييع الوقت، في الكلام الجانبيّ، هيّا..
تفرّقتْ تلك الجموع، بعد صراخ المدير، وكأنّهم لم يكونوا موجودين، ولم يبقَ إلّا حازم ونور، فأحسّ حازم بالخجل، ممّا بدر من المدير، وهنا اقترب هذا الأخير منه، وهمس في أذنه (قائلًا):
- لا تنس بأن تضع بعض الحلويّات، في صحن، لآخذه معي، وأتسلّى بأكلهم في مكتبي.. فهذا الصّحن لا يكفيني.
وهنا ابتسم حازم، وقال:

- على الرّحب والسّعة.

ثمّ قال لنور مندهشًا، بعد أن غادر المدير:

- يا له من رجل جشع، أكل نصف الحلويّات، وطرد الموظّفين، وطلب منّي فوق هذا كلّه، بأن أملأ له صحنًا آخر.

فابتسمت لكلامه، وهي تبحث في درج مكتبها، على بعض الأوراق، وقالت في نفس الوقت:

- لا تكترث لما يقوم به من تصرّفات، فهو يحبّ المزاح لا أكثر.

***

بعد أن جلس عبد الوهّاب، وجلست بجانبه سارة، طلب من النّادل بأن يحضر لهما كُوبين من العصير، ثمّ التفت لسارة، وقال لها:

- والآن، أخبريني.. لِما طلبتِ رؤيتي؟

فسكتت سارة قليلًا، وبعد لحظات من التّردّد قالت:

- بصراحة طلبتُ رؤيتك، لأنّك أكثر واحدٍ يحبّه هاني، ويسمع كلامه، أريد منك أن تكلّمه في موضوع خاص.. فربّما يستمع لك.

- حسنٌ، وما الموضوع الذي تريدين منّي أن أكلّمه فيه؟

فنظرت سارة له بضع ثوانٍ، ثمّ قالت:

- سأخبرك بالتّفصيل.

***

- ماذا تشربين؟

قال هاني لوردة، التي طلبت أن تشرب نسكافيه، فنظر للنّادل، وطلب منه بأن يحضر لهما اثنين نسكافيه.. سألته وردة بعد ذلك:

- لم تخبرني.. كيف حال الطّفلين؟

فابتسم هاني، ثمّ قال:

- إنّهما بخير الآن.

- ولكن لماذا قام زوج أختك بهذا الفعل الشّنيع؟

فتنهّد هاني، وقال بعد ذلك:

- بسبب الميراث.. فهشام وإخوته، وباقي أعمامي، لم يرضوا بنصيبهم، من الميراث، واتّهموا أبي بالتّحايل عليهم.

- أوه.. يا إلهي.. ولكن..

وقبل أن تكمل كلامها، قاطعها هاني (قائلًا):

- دعينا من هذا الحديث الآن.. فأنا أريد أن أحدّثكِ في موضوع.

- أنا أسمعك.

- أريدكِ أن تكلّمي أباك، لنزوركم أنا ووالدايْ.

- سأكلّمه حين أعود للمنزل.

دخلت جنّات مع عادل للكافتيريا، التي كان فيها هاني، وما إن فعلا حتّى رآهما هذا الأخير، الذي انشغل برؤيتهما، تاركًا وردة تكلّم نفسها، وحين أحسّت بانشغاله، نظرت في الاتّجاه، الذي ينظر له، لتجد جنّات تجلس مع شابّ، وتحدّثه، فقالت:

- أليست تلك أختك جنّات؟ أم أخرى تشبهها؟

- بلى.. إنّها هي.

- ومن ذلك الشّاب، الذي تجلس معه؟

فقال هاني (ببرود مفتعل):

- أعتقد بأنّه زميلها في الجامعة، حين أعود للبيت سأسألها عنه.

وسكت، متعمّدًا عدم الخوض في الموضوع.. وبعدها أخذ يفكّر، بينه وبين نفسه، وهو ينظر إلى عادل، أين قال لنفسه:

- ما الذي جمع جنّات بهذا الصّعلوك؟

نظرت وردة لساعتها في هذه الأثناء، ثمّ قالت:

- عليّ العودة للمنزل، لديّ بعض الأعمال، التي يجب أن أنهيها.

- بشأن المعهد؟

فأومأت وردة برأسها، وقالت:

- أجل..

- دعينا نذهب.. إذًا.

خرجت وردة، ولحق بها هاني، بعد أن دفع ثمن المشروبات، أين رأته جنّات، وهو يخرج من الكافتيريا، فشعرت بالخوف يتملّكها.. انتبه عادل لتغيّر ملامحها فجأة، فقال (متسائلًا):

- ما بك يا جنّات؟

فأشارت بيدها إلى هاني، وقالت:

- أخي هاني.

فنظر عادل إلى الشّاب، الذي أشارت له جنّات، وقال:

- هذا هو أخوكِ هاني؟

- أجل.. هل تعرفه؟

فأنكر عادل، وقال:

- لا.. لا أعرفه.

- هل رآني برأيك؟
- لا.. لا أعتقد ذلك، فمنظره يوحي بأنّه لم يرك، لا تخافي.
- آمل ذلك.

أمسك عادل الكوب، وشرب منه القليل، ثمّ قال في نفسه:

- مذ رأيته في الصّورة، حين دخلتُ لبيت جنّات، وأنا أتساءل أين رأيته، أجل.. لقد تذكّرتُ الآن، أين رأيته من قبل.. يا إلهي ما هذه الورطة، التي أوقعتُ نفسي فيها؟ فهذا الشّاب يكون صديقًا لأكبر منحرف، في هذه المدينة، لقد سبق وأن رأيته بمناسباتٍ عديدة، كما حذّرني رفاقي منه، لأنّه يحبّ المشاكل.. ولكن ما العمل الآن؟ فهاني لن يرحمني، إن علم بما خطّطتُ لأخته.

- ما بك يا عادل؟

قالت جنّات متسائلة، ليردّ عليها هذا الأخير:

- أوه.. لا.. لا شيء.

***

قال عبد الوهّاب، بعد أن عرف قصّة سارة:

- بصراحة، سأكلّمه بهذا الخصوص، ولكن لا تنتظري من هذه المحاولة أيّ نتيجة، فهاني ليس من النّوع الذي يكترث لكلام أحد، فهو صديقي، وأنا أعرفه منذ الصّغر.

فتنهّدت سارة، ثمّ قالت:

- عليّ أن أحاول، فليس لديّ حلٌّ آخر.

فنظر عبد الوهّاب لها بشفقة، ثمّ قال:

- عندي فكرة.

فقالت سارة (بيأس):

- وما هي؟

- أرى بأن تكلّمي والدته، فهي أكثر واحدة يستمع لها هاني.

- وهل ستصدّقني برأيك؟

- حاولي.

- عمومًا.. كلّمه أنت أوّلًا، وإذا لم تنجح فسأذهب لأمّه، وأكلّمها.

***

كان أبي جالسًا في الحديقة، فاتّصل به أحد معارفه، ليخبره بالجديد، عن قضيّة هشام، فقال له أبي:

- اجعلوه يشعر بالسّعادة، في السّجن.

فقال الآخر (وهو يضحك):

- لا تقلق، سأجعله يتمنّى الإقامة عندنا للأبد.

- بصراحة.. لا أعرف كيف أشكرك، على ما تقدّمه لي من خدمات.

- المهمّ.. أستأذنك الآن سيّدي.

- مع السّلامة.

وبعد أن أنهى أبي المكالمة، عاد ليكمل قراءة الجريدة (وهو يقول):

- تريد أن تتحدّاني، أليس كذلك؟ سأعلّمك معنى اللّعب مع الكبار.

***

دخلت جنّات للمنزل، أين وجدت الخادمة تضع الطّبق، الذي في يدها على المائدة، فاقتربت منها، وهمست في أذنها (قائلة):

- هل عاد هاني للمنزل؟
فأجابت الخادمة بنعم، وانصرفت لتجلب باقي الأكل، فتنهّدت جنّات، وقالت في نفسها:
- آمل ألّا يكون قد رآني، يا إلهي كُن معي.
وصعدت لغرفتها، وما إن فتحت الباب حتّى وجدته، ينتظرها بالدّاخل، فعادت للخلف من الصّدمة، ولكنّها استجمعت قواها أخيرًا، وحاولت أن تبدوَ طبيعيّة، أين دخلت.. ثمّ قالت:
- هاني، أنت هنا؟
فأومأ برأسه، ثمّ قال (بهدوء):
- لقد رأيتكِ من النّافذة، وأنتِ تدخلين للمنزل، اجلسي، لأتكلّم معك.
فاقتربت بحذر، وجلست بقُربه، فنظر لها نظرة بألف معنى، وقال:
- ماذا كنت تفعلين، مع ذاك الصّعلوك؟
فارتعدت فرائسها من شدّة الخوف، ثمّ قالت:
- من تقصد؟
- أنتِ تعرفين جيّدًا عمّا أتحدّث، أجيبي.. قبل أن أرفع صوتي، فأنتِ تعرفين أبي.. لو أخبرته بأنّي رأيتك، مع ذاك الصّعلوك، فسيقتلك.
- إنّه زميلي في الجامعة.
- وهل هذا يجعلكِ تجلسين معه، في الكافيتريا؟
- بصراحة كنّا نلتقي، من حين لآخر، ولكن ليس بمفردنا، بل كنّا شلّة، وكنّا نلتقي من أجل البحوث، والدّروس..
وهنا قاطعها هاني (متسائلًا):

- هذا كلّ ما في الأمر؟
- أحلف لك بأنّنا كنّا نلتقي، من أجل هذا فقط.
فاقترب منها، ثمّ همس في أذنها (قائلًا):
- إن رأيتكِ مرّة أخرى معه فسأذبحك، فأنتِ لا تعرفين هذا الصّعلوك، كما أعرفه أنا، هل فهمت؟
فأومأت جنّات برأسها، ثمّ بلعت ريقها، وقالت:
- حسنٌ.. هذه آخر مرّة تراني فيها معه.. أعدك بذلك.
غادر هاني بعد هذا الحوار، بعد أن سمع أمّه، التي نادت عليه، هو وأخته، من الطّابق الأرضي، لينزلا لتناول الغداء، مع أبي، واتّجهت لهذا الأخير، الذي كان منهمكًا في قراءة الجريدة، وقالت:
- الغداء جاهز يا سالم.
- سآتي بعد قليل.

***

- أين خالد؟ لِما لم ينزل، ليتغدّى معنا؟
قالت أمّي متسائلة، ثمّ طلبت من الخادمة بأن تصعد، لتناديَ له، كانت فلّة جالسة في هذه الأثناء، وبجانبها فارس وفراس، اللّذان قصّا لأمّي ولها ما حدث، مذ أخذهما هشام، إلى أن دخل رجال الأمن، وأخذوهما من البيت.. فقبّلتهما فلّة، التي لم تصدّق بأنّهما قد عادا، والتفتت لأمّي، التي كانت تسكب المرق، في الصّحون، وقالت:
- حين يأتي أبي سوف أكلّمه، في موضوع طلاقي من هشام، فبعد الفعل الذي قام به، لم يعد لي رغبة، في الرّجوع إليه.

فقاطعتها أمّي (قائلة):
- دعينا نتناول الغداء أوّلًا، وبعدها لكلّ حادث حديث، ففرحتي بعودة الطّفلين سالمين، قد أنستني أيّ شيء آخر.
ثمّ نظرت لنريمان، وقالت بعد أن سكبت لها، القليل من المرق:
- كلي يا ابنتي.
أخذت نريمان الشّوكة، التي بجانبها، وشرعت في تناول السّلطة، وهي تبتسم لفارس، الذي كان يلاعبها، من حين لآخر، فيسرق منها الملعقة خفية، ثمّ يعود ليضعها في مكانها مجدّدًا، بعدما تطلب منه فلّة إعادتها، نزل في هذه الأثناء خالد، وحين رأته أمّي قالت:
- لا ينقصنا إلّا حامد؟ كم هو مسكين.
فقالت فلّة:
- هذه هي قوانين مهنته، أن يعمل في المستشفى، يومًا بأكمله.

***

حكى أبي لزوجته، وأولاده عمّا حصل للطّفلين، إلى أن وصل للحظة القبض على هشام، فقالت أمّ هاني (بصوتٍ خافت):
- للأسف.
فانتبه لها أبي، الذي قال (متسائلًا):
- ماذا قلت يا سعاد؟
فارتبكت قليلًا، ثمّ ابتسمت، وقالت:
- كنت أقول الحمد لله، على عودة الطّفلين سالمين لأمّهما.
ثمّ عادت لتكلّم نفسها:

- كم تمنّيتُ أن يأخذهما لأبعد مكان، لكيلا تتمكّن الشّرطة من العثور عليهما، ويحرق قلبكِ عليهما يا خديجة، كم أنتِ محظوظة.

ثمّ نظرت لجنّات، وهاني، وقالت:

- هيّا.. ابدآ، أم تريدان أن أطعمكما بنفسي؟

فأخذت جنّات الملعقة، وشرعت تأكل، وهي تختلس النّظر، من حين لآخر لأخيها، أمّا هو فقد ظلّ يرمقها بنظرات، تنمّ عن الشّر، وهو على هذا الحال، حتّى بادره أبي (قائلًا):

- وأنت يا هاني، هل حدّدت موعدًا، مع أهل البنت؟

- سأكلّمها في المساء، لأرى إن تحدّثت مع أبيها، لنذهب لزيارتهم.

***

جلست أمّ هشام تنتظر ابنها، بالقاعة الخاصّة بزيارة السّجناء، أين كان هناك الكثير من النّاس، الذين جاؤوا لزيارة أقاربهم، مضت دقائق، تلاها دخول السّجناء، ومنهم هشام، الذي تقدّم نحو أمّه بخطى متثاقلة..

- أصحيحٌ ما سمعته يا هشام؟ أصحيحٌ أنّك خطفت فراس وفارس؟

قالت أمّ هشام، فتنهّد هذا الأخير، ثمّ قال:

- كنت أريد أن أنتقم من خالي سالم، بأيّ طريقة.

فقاطعته أمّه (غاضبة):

- وهل انتقمت منه؟ أنت الآن بالسّجن، بينما هو في قصره وسط الخدم، أخبرني ماذا استفدت من فعلتك، إلّا أنّك قد أصبحتَ تحت رحمته؟

- لا تخافي.. سأكلّف محاميًا شاطرًا، ليخرجني من السّجن.

- أتعتقد بأنّه سيتركك تخرج، بهذه السّهولة؟

- أرجوك أن تكفّي عن هذا الحديث الآن.
- يجب أن تحلّ هذه المشكلة، في أسرع وقت، وبعدها نسافر، ونعيش بعيدًا عن هذا الإنسان.

وظلّت تنصحه، بأن يجتنب غضب أبي، بحجّة أنّها أخته، وتعرفه أكثر من أيّ شخص آخر، ولكنّه لم يكن يسمعها، بقدر ما كان يفكّر في الخطّة القادمة، والتي بواسطتها سينتقم من أبي، بل وكلّ عائلته.. فقال في نفسه:

- حسنٌ يا خال، خسارة المعركة لا تعني أبدًا خسارة الحرب، سنرى من منّا سيفوز.. أعدك بأنّني سأجعلك تبكي على أولادك، تمامًا كما حرمتنا من حقّنا، وحقّ أمّي المسكينة.

ونظر لأمّه نظرة اليائس، الذي لا حيلة له يرجوها، أمّه التي ظلّت تتكلّم معه، ظنًّا منها بأنّه ينصت لما تقول، ولكن هيهات.. فهي لا تعرف بأنّه لا يفكّر في شيء، سوى الانتقام.. صاحت فيه:

- هل فهمت ما قلتُ لك؟

وهنا انتبه هشام، وقال:

- هاه.. ماذا قلت؟

فانزعجت، وقالت:

- أنت لست معي أبدًا، منذ ساعة أحدّثك، وأنت منشغلٌ بأفكارك؟
- لقد سمعتك يا أمّي، ولكنّي لن أسافر، قبل أن آخذ حقّي.

فقامت أمّه حين سمعت كلامه هذا، ثمّ قالت:

- لا فائدة تُرجى منك أبدًا.

وغادرت، تاركة ابنها غارقًا في أفكاره، غير مكترثٍ لرحيلها، وكأنّها لم تكن موجودة أصلًا.

***

نظر هاني لساعته، التي كانت تشير للتّاسعة مساءً، ثمّ أطلّ من نافذة غرفته، وبقيَ على هذا الحال لدقائق، أين ظلّ يحدّق في السّماء، وقبل أن يتّجه للاستحمام، رنّ هاتفه فجأة، فقال في نفسه:

- يا إلهي، ما هذه المصيبة التي حلّت عليّ؟

ثمّ اتّجه نحو هاتفه، وردّ فورًا، دون أن يتأكّد من هويّة المتّصل:

- ألم تفهمي - أيّتها الحمقاء - بأنّني لم أعد أريد التّحدّث معك؟

- ما بك يا هاني؟ هذه أنا وردة.

فشعر هاني بالإحراج، بعد أن علم بأنّها وردة، وقال:

- أنا آسفٌ جدًّا.

- لا عليك.. أما زالت تلك الفتاة تضايقك؟

- أحيانًا.

- إذًا عليك أن تغيّر رقم هاتفك، وتشتري شريحة جديدة.

- سأفعل ذلك.. أخبريني، هل تحدّثتِ مع والدك؟

- أجل.. وطلب منّي بأن أتّفق معك، على موعد يناسب الجميع.

فقال هاني (بعد القليل من التّفكير):

- أممم.. حسنٌ.. سنزوركم مساء الجمعة، ما رأيك؟

- موافقة.

***

- صباح الخير.

قالت سارة، فردّت عليها أمّها:

- صباح الخير يا ابنتي، كيف حالكِ الآن؟

- بخير.

قالت سارة ببرود، ثمّ اتّجهت نحو الباب، لتضيف (قائلة):

- أنا ذاهبة للجامعة.

فقالت أمّها (مستغربة):

- ألن تتناولي فطورك؟

- لا.. لستُ جائعة.

وخرجتْ، لتُغلق الباب.. ممّا أثار استغراب أخيها، الذي كان جالسًا، إلى جانب أمّه، فقال:

- ما بها سارة؟ منذ مدّة وأنا ألاحظ بأنّها ليست على ما يرام.

- بسبب الدّراسة.. فهذه آخر سنة لها بالجامعة، ممّا جعلها تمرّ بضغوط كثيرة، بدءًا بمذكّرة التّخرج، للبحوث، والامتحانات.

وهنا وضع جعفر كوب القهوة، فوق المائدة، ونهض متّجهًا نحو الباب، وقال لأمّه:

- وأنا أيضًا عليّ أن أذهب، هل تريدين شيئًا يا أمّي؟

فقالت أمّه (مستغربة):

- ولكنّك لم تكمل فطورك.

- لم يعد لي رغبة، أراكِ في المساء.

- مع السّلامة.

قالت أمّه، ثمّ راحت تحدّث نفسها:

- ما بال هؤلاء الأولاد؟

ثمّ نادت على ابنتها (قائلة):

- ندى.. يا ندى.. هيّا.. انهضي، لتساعديني.

***

بينما كانت أمّي منهمكة، في ترتيب البيت، مع الخادمة، إذْ ناداها الحارس، لكي يخبرها بأنّ رجلًا يقف وراء الباب، يريد تقديم ورقة لها، فأطلّت على هذا الرّجل، الذي تقدّم منها، ليعطيها الورقة، وطلب منها بأن تمضيَ على سجل، كان يحمله في يده، قبل أن تعود للدّاخل، لتفتح الورقة، وتقرأها، كانت فلّة في هذه الأثناء تُطعم طفليها، فقالت:

- ماذا يوجد في هذه الورقة؟

فجلست أمّي على الكرسيّ المقابل لفلّة، وقالت (بدهشة):

- جنى تريد الطّلاق من حامد!

- لتذهب إلى الجحيم، أصلًا أنا لا أعرف كيف رضيَ حامد بها؟

فسكتت أمّي، ولم تعقّب على كلامها، وهنا عادت فلّة لتسألها:

- لا تقولي لي بأنّكِ حزينة، من أجلها؟

- لا أعرف، ولكن أحيانًا أحسّ بأنّنا قد ظلمناها، صحيح أنّها ليست من مستوى حامد، وأنّ أباها وإخوتها تردّدوا على السّجن مرارًا، لكنّها إنسانة طيّبة، ولم تؤذنا يومًا.. أخشى أنّنا قد تسرّعنا بالحكم عليها، فهي لا ذنب لها، فيما اقترفه إخوتها.

فسكتت فلّة، حين عجزت عن التّعقيب، على كلامها، الذي على ما يبدو، بأنّ فيه جزءًا من الصّواب، فلا أحد فينا يختار عائلته، أو حالته الاجتماعية، أو حتّى شكله، أو لونه، أو بلده.. كلّها أمور قسّمها الله بين عباده، ووزّعها فيما بينهم، كلٌّ واحدٍ له قدر معيّن، يزيد، أو ينقص عن الآخر، وكلّ هذا لحكمة، يعلمها الله وحده.

***

كان حازم جالسًا بغرفته، يتصفّح بعض الإعلانات، التي شدّت انتباهه، لبعض الشّقق الجديدة، أين دقّت عليه أمّه الباب، ودخلت بعد أن طلب منها ذلك، فقال لها:

- خيرًا إن شاء الله؟ هل حدث لأبي شيء؟
- أبوك بخير، ولكن..
- ولكن ماذا؟
- ندى هنا.
- ندى؟ ما الذي جاء بها؟
- جاءت لتتكلّم معك، في موضوع خاص.

فتنهّد حازم، وبعد صمتٍ دام لبعض الوقت، قام ليرى ما الذي جاء بها، وإن كان يعرف مسبقًا ماذا تريد، وبعدما دخل للصّالون، جلس، ثمّ قال:

- كيف حالك يا ندى؟

فشعرت ندى بالخجل، وطأطأت رأسها، ثمّ قالت:

- أنا بخير، وأنت كيف حالك؟

فقال حازم (ببرود):

- بخير..

ثمّ سكت، وكأنّه قد تعمّد أن يتجاهلها، دخلت أمّه في هذه الأثناء، وفي يدها صينيّة من الشّاي، لتجلس بالقرب من ندى، وصبّت الشّاي، وقبل أن تقدّم لها الكأس، قال حازم:

- أخبرتني أمّي بأنّكِ تريدينني، في موضوع، فهلّا عجّلتِ بالكلام؟

وهنا احمرّ وجهها، من شدّة الخجل، فتدخّلت أمّه حين أحسّت بأنّه قد أحرجها، بسؤاله هذا، وقالت:

- خذي، واشربي هذا الشّاي.

ثمّ قامت، لتستأذن في الذّهاب، وهنا تشجّعت ندى، وقالت:

- أعرف بأنّني قد أخطأتُ في حقّك، ولكنّي نادمة على ما فعلته.

فظلّ حازم صامتًا، ولم يتفوّه بكلمة.. كان ينظر لها، وهو مندهشٌ من مدى وقاحتها، وحين رأته على هذا الحال، قالت:

- ألن تقول شيئًا؟

- ليس لديّ ما أقوله.

- سمعتُ بأنّك قد خطبت.

- وهذا ما جعلكِ تطلبين الصّفح، بعد سنة كاملة، أليس كذلك؟

- لا.. ليس..

وهنا قاطعها حازم، وقال لها (بغضب):

- أعرفكِ جيّدًا، أنتِ لستِ من النّوع الذي يندم، على شيء، لقد جئتِ تصلحين ما أفسده غرورك، فقط حين علمتِ بالخِطبة، ولكن اعلمي جيّدًا، بأنّي حتّى لو لم أخطِب، فلن أعود إليك.

فقامت ندى غاضبة، بعد هذا الكلام، أين رأتها أمّه، فجاءت مسرعة نحوها، وقالت:

- انتظري يا ندى، إلى أين؟

ولكنّها لم تصغ إليها، وواصلت طريقها، وما إن خرجت حتّى أغلقت الباب بقوّة، فعادت أمّ حازم للصّالون، وقالت لابنها:

- لِما تصرّفت معها بهذا الشّكل؟

- وكيف تريدينني أن أتصرّف معها؟ هذه الانتهازيّة التي تركتني، من أجل رجل غنيّ، وحين تزوّج بغيرها، جاءت لتمثّل عليّ دور البريئة.

***

- ألن تأتي - اليوم - إلى الجامعة؟

- لا، لن آتي، فليس لدينا سوى محاضرة واحدة، ولن أحضرها.

- ولكن ما بك يا جنّات؟ أحسّ بأنّكِ لستِ على ما يرام.. صحيح، لم تتّصلي بي بالأمس، لتطمئنيني عنك.

- بصراحة.. لم أتّصل بك إلّا حين تأكّدت، بأنّ هاني قد ذهب للشّغل، فقد حصل ما توقّعته.

- أتقصدين بأنّه قد رآنا؟

- أجل..

- وماذا فعل؟

- طلب منّي بألّا ألتقيَ بك مجدّدًا، ثمّ تعال إلى هنا، لِما كذبت عليّ، وقلتَ لي بأنّك لا تعرفه؟

وهنا أحسّ عادل بالذّهول، ولم يدرِ بما يجيب، فواصلت حديثها:

- لقد أخبرني بأنّه يعرفك، والأكثر من ذلك، أنّه نصحني بالابتعاد عنك، وإلّا فسوف يخبر أبي.

- ماذا قلت؟

- كما سمعت.

سكت عادل قليلًا، ليفكّر في مخرج، من هذه الورطة، فهو لا يريد أن تكشف جنّات أمره، قبل توريطها بالزّواج منه، ليكافئه صاحب الفكرة، فقال (بعد أن اهتدى لمخرج، من هذا المأزق):

- هذا كلّه منك يا جنّات؟ لو قبلتِ بأن نتزوّج في السّر، لما رآنا أخوك، وكشف أمرنا، من المؤكّد بأنّه قد قال لكِ ذلك، ليقنعكِ بالابتعاد عنّي، لأنّه أحسّ بالإهانة، حين علِم بأنّكِ أخفيتِ علاقتنا، عن أهلك.

- ولكن.. لا أعتقد بأنّ هاني..

وقبل أن تكمل كلامها أنهى المكالمة، لكي يظهر لها بأنّه قد غضب، من كلام أخيها، عنه بهذه الطّريقة.. وحين عرفت جنّات، بأنّه قد قطع الاتّصال، قالت في نفسها:

- ما به هذا المجنون؟ يغضب متى يريد، ويرضى متى يريد.

***

قمتُ اليوم متأخّرًا، كالعادة طبعًا، حين لا يكون لديّ مناوبة بالمشفى، نظرتُ لهاتفي، لأجدها العاشرة صباحًا، فاتّجهتُ للحمّام، لكي أغسل وجهي، ونزلتُ للطّابق الأرضي، فوجدتُ أمّي جالسة، في ردهة البيت، أين جلستُ بجانبها، وقلت:

- صباح الخير يا أمّي.

- صباح الخير..

وسكتت قليلًا، ثمّ أضافت:

- هل تفطر؟ أم تشرب فنجان قهوة فقط كالعادة؟

- كالعادة..

فقامت لتحضر لي فنجان القهوة، وعادت بعد ذلك، لتضع الصّينيّة على المائدة، ثمّ جلست في مكانها، وأخذت تراقبني بصمت، وأنا أشرب القهوة.. وبعد أن انتبهتُ لنظراتها، قلتُ لها:

- تريدين أن تقولي شيئًا، أليس كذلك؟

فحملت ورقة، كانت موضوعة فوق المائدة، وقالت:

- خذ هذه الورقة.

- ما هذه؟

- افتحها.. لتعرف.

شرعتُ في قراءتها، وبعدما انتهيتُ منها، وضعتها فوق المائدة، وعدت لأرتشف فنجان القهوة، وهنا قالت أمّي (مستغربة):

- ما هذا البرود، الذي أنت فيه؟

- لقد توقّعتُ هذا.

- وماذا ستفعل؟

- سأنفّذ لها رغبتها، سأتّصل بالمحامي، ليُسوّي لها وضعيّتها، بأسرع ما يمكن، وأرسل لها كافّة مستحقّاتها الماليّة.

فقالت:

- إذًا.. صُبّ لي القليل من القهوة، في هذا الفنجان.

***

جلست أمّ هشام بالقرب من ابنها، وراحت تسأله عن حالته بالسّجن، وعن نوعيّة الطّعام التي تُقدّم له، وكيف ينام، وغيرها من الأمور، إلى أن شعر هشام بالانزعاج، من أسئلتها، فطلب منها أن تكفّ عن هذا.. وفي المقابل كان هناك سجينٌ آخر، يجلس بزاوية، من زوايا القاعة، وبجانبه أخوه، الذي جاء ليزوره.. وبعدما تكلّما في أمور عدّة، نظر أخوه لساعته، وحين علم بأنّ موعد الزّيارة قد أوشك، على الانتهاء، اقترب منه، وهمس في أذنه (قائلًا):

- السّيّد سالم يرسل لك السّلام، ويريد منك أن تعتنيَ بذاك السّجين.

وأشار بعينيه ناحية هشام، فنظر السّجين إلى حيث نظر أخوه، وابتسم بخبث، وقال بعد ذلك:

- السّيّد سالم يأمر، ونحن ننفّذ.

وبعد لحظات جاء الحارس، ليعلم الزّوار بانتهاء الزّيارة، فقال:

- الزّيارة انتهت.

ليخرج الزّوار بعدها تباعًا..

***

كان حازم يسوق سيّارته، وحين أوشك على الوصول، لمنزل نور، نظر لساعته، ليتأكّد من أنّه لم يتأخّر، عن الموعد، فوجد بأنّها التّاسعة والرّبع مساءً، فقال:

- كان عليّ الخروج من المنزل، قبل الوقت، فقد تأخّرتُ عن الموعد، بسبب الزّحام.

وحاول الإسراع، لكيلا يتأخّر أكثر، وما هي إلّا دقائق حتّى وقف، عند باب المنزل، وبعد أن فتح له أبو نور الباب، دعاه للدّخول، فدخل وهو يتأسّف عن التّأخير، فقال له أبو نور:

- لا عليك يا بُنيّ.. تفضّل إلى الصّالون.

وذهب لابنته، وطلب منها أن تعدّ الشّاي، وتأتي لتشاركهما الحديث، وعاد ليجلس مع صهره، ويسأله عن حاله، وحال الوالد، والأهل، فأخبره بأنّ والده مريض قليلًا، ولذلك لم يحضر معه، فقال أبو نور:

- طهورًا إن شاء الله.

دخلت في هذه الأثناء نور، ووضعت الصّينيّة على المائدة، ثمّ جلست بجانب أبيها، وقالت لحازم:

- كيف حالك يا حازم؟

فابتسم، وقال:

- بخير.

فتقدّم أبو نور نحو المائدة، ليصبّ الشّاي، ثمّ قال (مازحًا):

- كانت نور هي التي تقدّم الشّاي للضّيوف.. ولكن هذه المرّة لم تفعل، ربّما لأنّها أرادت أن نخدمها نحن، فهي العروس كما تعلم.

فضحك حازم، وقال:

- من حقّها.

ثمّ ارتشف القليل من الشّاي، وعاد للحديث مرّة أخرى:

- في الحقيقة.. جئتك اليوم - يا عمّي- لأعرف طلباتكم.

فقال أبو نور (متسائلًا):

- عن أيّ طلبات تحدّث؟
- عن العرس.. وتفاصيله، كقاعة الفرح، وغيرها، أريد أن آخذ رأيكم.
فضحك أبو نور، ثمّ قال:
- والله.. يا بُنيّ أنا لا أفهم في هذه الأمور، فأنا لم أزوّج بنتًا من قبل، نور هي أكبر بناتي.
ثمّ نظر لنور، وقال:
- أترك لكِ المجال، لتتفاهمي مع خطيبكِ بنفسك.
واستأذن في الذّهاب، لتأدية صلاة العشاء، وبعدها يعود إليهما، حتّى لا يشعر حازم بالحرج.

***

- لقد تأخّر الشّباب، أليس كذلك؟ سأتّصل بهم مجدّدًا، لأستعجلهم، فالسّهرة ستبدأ بعد قليل، ومن غير المعقول أن يتأخّروا أكثر.
قال هاني لصديقه عبد الوهّاب، فقاطعه هذا الأخير (قائلًا):
- كنت أريد أن أكلّمك في موضوع، قبل أن يأتيَ الشّباب.
- إذًا دعني أركن السّيّارة هنا، ونتكلّم بعدها.. ريثما يأتون.
ركن هاني سيّارته في طريق جانبيّ، ثمّ قال لعبد الوهّاب:
- هاتِ ما عندك.
تردّد عبد الوهّاب قليلًا، فنظر له هاني، وقال (مستغربًا):
- وهل ركنتُ سيّارتي لأستمتع برؤية وجهك؟ ألن تقول ما عندك؟
- لقد كلّمتني سارة عمّا حصل بينكما.

فاتّسعت عينا هاني، بمجرّد سماعه لاسم سارة، ولكنّه ظلّ صامتًا، ولم يقل كلمة، وهنا انتهز عبد الوهّاب الفرصة، لمواصلة حديثه:

- كما أخبرتني بأنّها حامل.

فقال هاني (متسائلًا):

- وماذا بعد؟

- كيف وماذا بعد؟

- فلتذهب لأبي الطّفل الحقيقيّ، ما شأني أنا؟

وهنا غضب عبد الوهّاب، وقال:

- كيف تقول هذا الكلام، وكلّنا يعرف بأنّك أنت الذي أفسد أخلاقها؟ فهي لم تتعرّف على رجلٍ قبلك.

فضحك هاني، ثمّ قال:

- اسمعوا من يتكلّم عن الأخلاق، وطالما أخلاقي سيّئة، لما تصاحبني؟

- لم أقل بأنّني على درجة عالية، من الأخلاق، ولكنّي لستُ نذلًا، على الأقلّ، لأكذب على فتاة فقيرة كسارة، وأمثّل دور العاشق، ثمّ أنسحب، لأتركها تتحمّل ثمن خطئي.

وهنا شعر هاني بالغضب الشّديد، فصرخ في وجهه، وأمره بأن ينزل من السّيّارة (قائلًا):

- انزل من السّيّارة حالًا، وإلّا قتلتك.. أيّها الوغد.

فنزل عبد الوهّاب، وقبل أن يذهب، أطلّ عليه من النّافذة، وقال:

- انعتني بما شئت، ولكن أتمنّى أن يصحوَ ضميرك، قبل فوات الأوان، فحالة البنت سيّئة، وأنت بهذا الشّكل تتخلّى عنها، في أزمتها، التي من المفروض بأنّك مساهمٌ فيها.

فأغلق هاني النّافذة، وأشار له بيده، بأن يرحل، ثمّ قال:

- هذا التّافه يريد أن يعلّمني الأخلاق، ونسيَ بأنّه مجرّد سكّير غبيّ.

وأخرج سيجارة من جيبه، ثمّ أشعلها، وعاد ليتّصل بأحد أصدقائه، وما إن ردّ هذا الأخير حتّى صرخ فيه هاني:

- أين أنتم الآن؟ لما كلّ هذا التّأخير؟ أم أذهب بمفردي للسّهرة؟

- نحن في الطّريق..

فأقفل هاني الخطّ في وجهه، وقال:

- هذا جزاء من يصاحب الأغبياء.

***

اتّصل محامي هشام بأمّ هذا الأخير، وبعد أن تكلّما فيما يخصّ قضيّة ابنها، قال المحامي:

- سيّدتي.. أنتِ تعرفين مدى معزّتكم عندي، ولهذا أنصحكِ بالذّهاب للسّيّد سالم، لتطلبي منه بأن يعفوَ عن ابنك، لأنّه رجلٌ ذو نفوذ، وحتّى لو فعلنا المستحيل، فلن يخرج هشام من السّجن، لأنّ أخاكِ حاقدٌ عليه، وسيفعل المستحيل، ليبقيه في السّجن للأبد، لو أراد ذلك، لذلك أرى أن تختصري الوقت، وتكلّميه، فأنتِ أخته، ولن يردّ لكِ رجاءً.

فتنهّدت أمّ هشام، ثمّ قالت:

- ولكن.. ألن نستطيع إخراجه، إلّا بهذه الطّريقة؟

- أجل.. لا مفرّ من ذلك.
ثمّ سكت قليلًا، قبل أن يضيف:
- أريد أن أختصر عليكم الوقت، والمال، لأنّني لا أريد أن أستغلّكم، ما دام الحلّ سهلًا، وفي أيديكم.
- أشكرك من كلّ قلبي، سأحاول، وإن كنت أكره حتّى النّظر في وجهه، ولكن ما باليد حيلة.

***

اتّصلت سارة بعبد الوهّاب، لتعرف ماذا فعل مع هاني، ولكنّه لم يرد، فانتظرت بضع دقائق، ثمّ عاودت الاتّصال به، وفي هذه الأثناء قرّر عبد الوهّاب أن يجيبها، ويخبرها بالحقيقة:
- ألو، سارة كيف حالك؟
فقالت سارة (متلهّفة):
- أنا بخير، أخبرني.. هل من جديد؟
فسكت عبد الوهّاب، ولم يعرف ماذا يقول، فقالت سارة:
- كنت أعلم بأنّه لن يكترث، فهو إنسانٌ أنانيّ.
- لقد تشاجرتُ معه، وطردني..
- أنا آسفة حقًّا، لم أكن أريد أن تتشاجر معه بسببي.
فقال عبد الوهّاب (بحزن):
- لا عليك.. ولكن ماذا ستفعلين؟
- لا أعرف بصراحة.
ففكّر عبد الوهّاب قليلًا، ثمّ قال:

- أرى بأن تذهبي لوالدته، وتكلّميها عمّا حصل بينكِ وبينه.
فقالت سارة (بيأس):
- سأرى..

***

- اجلسي يا فلّة، وأخبريني..
قال أبي لفلّة، التي جلست، ثمّ قالت:
- بصراحة، أريد أن أنفصل عن هشام، فأنا لم أعد أرغب في العيش معه، وخصوصًا بعد الذي قام به.
- غدًا سأكلّم المحامي، ليقوم باللّازم.

***

حُوِّلَ هشام للزّنزانة الجماعيّة، بعد انتهاء التّحقيق، أين أعطاه الحارس وسادة وغطاءً، وحين فرغ من جميع السّجناء، الذين معه، أمرهم الحارس الآخر بأن يسلكوا الطّريق المؤدّي للزّنزانة، إلى أن وصلوا أخيرًا، ففتح الحارس الباب، طالبًا منهم الدّخول، ليختاروا سريرًا، من تلك الأسرّة، وأغلق الباب عليهم، وتركهم، ليواجهوا مصيرهم مع أولئك السّجناء.
توجّه هشام لسرير من تلك الأسرّة، أين وضع الوسادة، والغطاء، وجلس ينتظر دوره، ليدخل للحمّام، وفي هذه اللّحظات التفت السّجين، الذي أوصاه أبي عن هشام، التفت لصديقه، الذي كان يجلس بجانبه، ثمّ همس في أذنه، وقال له:
- انظر إلى ذاك الشّاب، الذي يجلس هناك.

فنظر صديقه إلى حيث أشار له، فرأى هشام، الذي كان ما يزال جالسًا في مكانه، ثمّ قال:

- توكّلنا على الله إذًا.

قام هشام في هذه الأثناء، حين رأى بأنّ السّجناء قد بدأوا يخرجون، من الحمّام، فتوجّه بدوره مع بعض السّجناء، الذين كانوا ينتظرون معه.

***

ظلّت سارة تفكّر فيما عليها فعله، وخاصّة بعد أن فشل عبد الوهّاب، في إقناع هاني.. إلى أن اهتدت لفكرة، فحملت هاتفها، وبحثت عن رقم أحد أصدقاء هاني المقرّبين، والذي تعرّفت عليه، حين كانت ترافق هاني، إلى تلك السّهرات اللّيليّة، فقد كان من شلّته، اتّصلت به أخيرًا، وبعد انتظار دام لثوانٍ، ردّ الآخر:

- ألو.. سارة، كيف حالك؟

- بخير، وأنت؟

- أنا بخير.. ولكن أخبريني.. لماذا لم نعد نراك؟

- بصراحة.. لقد تشاجرت مع هاني.

- ولكن لماذا؟ فقد كنتما متفاهمين جدًّا.. أصلًا أنتِ الوحيدة التي ظلّ معها هاني، كلّ هذه المدّة، حتّى ظننتُ بأنّكما ستتزوّجان.

فانتبهت سارة لكلامه، ثمّ قالت (متسائلة):

- هذا يعني بأنّ له علاقات، مع أخريات، أليس كذلك؟

فشعر الشّاب بالحرج، ولم يدرِ ما يقول، فقالت سارة:

- اسمع يا كمال، أنا أريد منك خدمة.

- ما هي؟

- بصراحة، أشكّ بأنّ هاني قد تعرّف على أخرى، ولهذا لم يعد يرغب في الحديث إليّ.. هل لك أن تعرف لي من هي؟ وتخبرني.

- ولكن.. ولكن كيف يمكنني ذلك يا سارة؟

- من هاني طبعًا، تسأله عن آخر أخباره، وسيخبرك بكلّ شيء..

- أوه، لا، لا يمكنني ذلك، فأنتِ تعرفينه جيّدًا، سيقتلني إن علم بأنّي أتجسّس عليه.

أنهت سارة المكالمة، بعد أن تيقّنت بأنّه لن يساعدها، وقد شعرت بالإحباط، وضعت هاتفها جانبًا، وذهبت للمطبخ، لتشرب الماء، وهي على هذا الحال، حتّى خطرت على بالها فكرة، فعادت لهاتفها، لتبحث عن رقم شخص آخر، من شلّة هاني، كانت تبحث (وهي تقول):

- من المؤكّد أنّه الوحيد الذي سيساعدني، فهو طمّاعٌ، ويحبّ المال، سيخبرني بكلّ ما يعرفه، عن هاني، بعشرة دنانير فقط.

في هذه الأثناء وجدت رقمه، فاتّصلت به، وهي تُمنّي نفسها بالبُشرى، لكنّ الرّقم كان مغلقًا، فرمت الهاتف على السّرير، وجلست، لتفكّر في فكرة أخرى، فخطرت ببالها الفكرة، التي قالها لها عبد الوهّاب، وراحت تتذكّر ما قاله لها، ثمّ قالت لنفسها:

- يبدو بأنّه لم يبق أمامي إلّا هذا الحلّ، فليس لي حلٌّ آخر غيره.

***

سحبت رشا الكرسيّ، ووضعته بجانب كرسيّ نور، ثمّ قالت لها:

- والآن.. ألا تريدين أن تحدّثيني عن العرس؟

فضحكت نور، ثمّ قالت:

- سيوصلكِ فضولكِ إلى ما لا يُحمد عقباه، صدّقيني.

وسكتت قليلًا، ثمّ أضافت:

- والآن.. عودي لمكتبك، قبل أن يقتحم المدير القاعة، ليرانا قابعتين خلف مكتب واحد.. ماذا سيقول عنّا المرضى؟

- لا عليكِ من المدير، فأمره بسيط، يكفي أن أقدّم له سيجارة، حتّى يدعوَ لي بدخول الجنّة، أمّا المرضى فهم لا يريدون منّا، سوى أن نصِف لهم أدوية، توقف ما يعانونه من ألم، وينصرفون حتّى دون أن يروا وجهونا، وإلّا فكيف لطبيبة مثلي، أن تظلّ دون زواج، ويأتيها كلّ هذا الكمّ من المرضى، كلّ يوم.

فضحكت نور حتّى بانت نواجذها، ثمّ قالت:

- تعترفين - إذًا - بأنّكِ تقدّمين الرّشوة؟

فاقتربت رشا منها، ثمّ وضعت يدها على فمها، وقالت:

- أتريدين أن تفضحيني يا نور؟ رشوة مرّة واحدة؟ قلتُ لكِ هذه مجرّد سيجارة، ماذا لو سمعكِ أحد الزّبائن الشّباب، الذين تعوّدنا على رؤيتهم باستمرار هنا؟

- المرضى أرجعتهم زبائن؟ إنّكِ حقًّا مجنونة، ثمّ إنّ الزّواج هو أمر مقدّرٌ من عند الله، حين يأتي موعده، فسترتبطين بفارس أحلامك.

ففرحت رشا، ثمّ رفعت يديها للأعلى، وقالت:

- أتمنّى أن يكون هذا قريبًا، ولكن لم تخبريني، متى العرس؟ فربّما رآني أحد أقربائك، وأُعجب بي، لينتشلني من المشفى برمّته.

ضحكت نور، وقالت:
- كوني مطمئنّة، أنتِ أوّل شخصٍ سأكلّمه، حين نحدّد الموعد.
- هذا يعني بأنّه عليّ أن أشتريَ فستانًا من الآن، وأستعدّ للزّفاف.
- أجل..
فسكتت رشا قليلًا، قبل أن تضيف:
- كنت أريد أن أعرف، هل سيأتي ابن عمّك حامد لزفافك؟
فتنهّدت نور، وقالت:
- لا أظنّ.. فنحن -كما تعلمين- لم نعد نتواصل مع عمّي، منذ زمن.
- للأسف.. كنت أتمنّى أن يحضر للعرس، فهو وسيمٌ جدًّا.
فضحكت نور، ثمّ قالت:
- أنا أعرف بأنّ كلّ ما يهمّك في الموضوع هو حامد، أليس كذلك؟ لقد سبق وأن قلتُ لكِ بأنّه متزوّج، وعنده ولد، افهمي، والآن هيّا احملي هذا الكرسيّ، وعودي لمكتبك، قبل أن يراكِ المدير.
- يا لكِ من متشائمة، حسنٌ سأذهب، وأتركك تكملين شغلك، فأنتِ لا تحبّين شيئًا في هذه الدّنيا، سوى الشغل.
حملت رشا الكرسيّ، وهي تشعر بالحزن، أمّا نور فقد ظلّت تضحك، ثمّ قالت:
- يا لها من مجنونة، لن تتغيّر أبدًا.

***

استلقى هشام على سريره، وراح يفكّر في حياته، خارج أسوار السّجن، وبعد تفكير دام لحوالي ربع ساعة، قال في نفسه:

- حسبيَ الله في من ظلمني.. لك من الله ما تستحق يا خالي.
اقترب منه شاب، من السّجناء الذين دخلوا معه، وقال:
- كأنّي رأيتك من قبل، ولكن لا أعرف أين حصل ذلك.
وجلس بجانبه، ثمّ سأله عن سبب دخوله للسّجن، فقال هشام:
- قصّتي طويلة.. ولستُ مستعدًّا للتّكلّم عنها، أخبرني أنت، ما سبب دخولك للسّجن؟
فبدأ الشّاب بالكلام، وهشام يصغي لقصّته.. إلى أن فرغ منها، وقال:
- هذا هو سبب دخولي لهذا المكان.
فتأسّف هشام، ثمّ قال:
- ستُفرج قريبًا إن شاء الله، فقضيّتك ليست كبيرة.
- أتمنّى ذلك..
استأذن هشام منه، للذّهاب إلى الحمّام، وحين قام نظر السّجين - الذي أوصاه أخوه عن هشام - نظر لصديقه، وغمزه، كي يستعدّا لتنفيذ الخطّة، فقاما ليتّجها للحمّام، وحين همّ هشام باجتياز الباب، أسرع الأوّل، ودخل في نفس الوقت، متعمّدًا دفع هشام بكتفه، فالتفت هذا الأخير مستغربًا، وهنا قال الآخر (بغضب):
- هل أنت أعمى؟ أم ماذا؟
فقال هشام:
- أنا أم أنت؟
فصرخ الآخر في وجهه، وقال:
- ماذا تقول، أيّها الحيوان؟

وانقضّ عليه كالوحش، يوجّه له الضّربات، في كلّ مكانٍ من جسمه، وقد انضمّ إليه صديقه، في ذلك، وهنا اجتمع المساجين، والتفّوا كلّهم حول هشام، والسّجينين الآخرين، وقد حاول بعضهم تخليصه، من بين مخالب هذين الوحشين، بينما ركض آخرون للباب، ينادون للحرّاس، ليسرعوا لإنقاذه، وحين أحسّ السّجين الأوّل، بأنّه قد بدأ يفقد السّيطرة، وأنّ الحرّاس همّوا بفتح الباب، ليقتحموا ذاك التّجمّع، أخرج شفرة حلاقة من جيبه، ليمرّرها على كتف هشام، أين أحدث فيها جرحًا، فصرخ هذا الأخير، للمرّة الأخيرة، وهنا همس السّجين في أذنه:

- هذا كي تتعلّم، كيف تتعامل مع أسيادك.

(طبعًا هشام لم يفهم قصد السّجين، فاعتقد بأنّه يقصد نفسه وصديقه، بكلمة أسياد، ولكنّه قصد أبي) سحب السّجين الشّفرة، ليخفيها بجيبه، وعاد للخلف، هو وصديقه، وفي هذه الأثناء دخل الحرّاس، وفرّقوا أولئك الرّجال، الذين أمسكوا بهشام، قبل أن يسقط على الأرض، والذي فقد وعيه آخر الأمر، من شدّة الضّرب، وهنا صرخ أحد الحرّاس:

- ابتعدوا.. عودوا للوراء.. هيّا.

وحمل هشام، هو وباقي الحرّاس، وأخرجوه من الزّنزانة، وفي الطّريق التقوا بضابط، والذي جاء مسرعًا، حين علم بالموضوع، فنظر لهشام، ثمّ صرخ فيهم:

- هيّا.. خذوه للمشفى حالًا، ماذا تنتظرون؟

ودخل للزّنزانة، وقد بدا عليه الغضب، ثمّ صرخ (قائلًا):

- أخبروني الآن.. من الذي فعل بالرّجل هكذا؟

فنظر السّجناء لبعضهم، ولزموا الصّمت، لخوفهم من ذاك السّجين، فهو يتحكّم فيهم كلّهم، نظراً للقوّة والضّخامة التي يتمتّع بها، بالإضافة لأنّه قد تعوّد من حينٍ لآخر، الاعتداء عليهم بالضّرب، لأيّ سبب، والسّجناء لا يريدون أن ينالهم نصيب، ممّا نال هشام.. وحين رأى الضّابط منهم ما رأى، قال:

- حسنٌ.. ليعلم جميعكم، بأنّني سأعرف مرتكب هذا الجُرم، وحين يقع في يدي، فسأعلّمه كيف يظلم من هم أضعف منه، أعِدُكم بذلك.

وانصرف، بعد أن أمر الحارس بغلق الزّنزانة، ومضى في طريقه.

***

نظرتُ لساعتي، فوجدتُها الثّامنة مساءً، قمتُ مُتّجهًا لغرفة نريمان، أين وجدتها قد أنهت طعامها للتّو، فقلتُ لها:

- والآن.. ستتناول هذه الجميلة دواءها.

- لقد سئمتُ من تناول هذه الأدوية.

- ولكنّها مفيدة، والدّليل أنّكِ قد بدأتِ تتعافين، أليس كذلك؟

وطلبتُ من أمّي بأن تعطيني الأدوية، لأساعد نريمان على تناولها، فقد صارت أمّي كثيرة النّسيان، وأنا الوحيد الذي يحفظ مواعيد تناولها.

***

جلست سارة مع أمّها، وإخوتها حول المائدة، لتناول العشاء، أين ساد الصّمت للحظات، قبل أن تشرع الأمُّ في إسداء النّصائح لابنها:

- ألن تغيّر من طباعك أبدًا؟ إلى متى ستبقى على هذا الحال؟

فقال الشّابُّ (متذمّرًا):

- ولكن ما بك يا أمّي؟ في كلّ مرّة أجلس، لأتناول معكم وجبة الغداء، أو العشاء، إلّا وتُسمعينني من الكلام الجارح، ما لا يستطيع تحمّله أحد، إن شئتِ أغادر، وأترك لكِ البيت، لترتاحي أنتِ وبناتك.

- ارحل إذًا، ماذا تنتظر؟

- أعرف بأنّني أصبحتُ عالةً عليك، ولكن ماذا أفعل؟ فمنذ خروجي من السّجن، لم يرض أحدٌ بتشغيلي، فمن أين أحصل على شغلٍ إذًا؟

- ولِما لم يرضوا بتشغيلك، هاه؟ أليس بسبب سمعتك السّيّئة؟ والآن، أخبرني.. هل صحيحٌ ما سمعت؟

- وماذا سمعت؟

- لقد جاءت أمّ رشيد قبل قليل، وأخبرتني بأنّك قد سرقت خاتمها، حين زُرت ابنها آخر مرّة.

فغضب أخو سارة، وقال:

- أتصدّقين تلك العجوز المجنونة؟ لقد أوشكتْ أن تخرّف.

- ولكنّها أخبرتني بأنّه لم يزرهم أحدٌ غيرك، في تلك الأيّام!

وهنا احتدم النّقاش بينهما، أين أخذ الشّابُّ يهدّد بالرّحيل، دون رجعة، وفي هذه الأثناء شعرت سارة بالغثيان، فوضعت يدها على فمها، لتُسرع للحمّام، فانتهز الشّابُّ الفرصة، ليغيّر الكلام، وقال لأمّه:

- هذه المرّة الثّالثة التي أرى فيها سارة، في هذه الحالة، ألن تذهبي لتريْ ما بها؟ أم تريدين منّي أن أذهب، بدلًا منك.

فتنهّدت أمّه، وقالت:

- لا أحد يستطيع أن يغلبك أبدًا.

***

كانت عمّتي جالسة، في غرفتها، حين اتّصل بها المحامي، فنظرت لهاتفها، وحين عرفت بأنّه هو المتّصل، شعرت بالذّعر، فلا يمكن أن يتّصل بها، في هذا الوقت، إلّا إذا كان الأمر مهمًّا.. ردّت بسرعة:

- ألو.. كيف حالك يا بُنيّ؟

- بخير.. أنا آسفٌ لأنّني اتّصلتُ بك، في هذا الوقت، ولكن أردتُ أن أسألك، فيما إذا كنتِ قد كلّمتِ السّيّد سالم، أم لا.

- أمن أجل هذا اتّصلتَ بي الآن؟ أحسّ بأنّ هناك أمرًا، تريد قوله.

- لقد تشاجر ابنكِ مع سجين، و..

وقبل أن يكمل المحامي كلامه، قاطعته عمّتي:

- هل ابني بخير؟

- إنّه بخير، لا تقلقي.. بصراحة، أردتُ أن أضعكِ في الصّورة، فأنتِ تعلمين بأنّ السّجن مليءٌ بالمجرمين، وليس كلّ السّجناء كهشام، لذلك أتمنّى أن تتركي الكرامة جانبًا، وتكلّمي أخاك، عسى أن يعفوَ عنه.

- معك حق.. عليّ أن أذهب، وأكلّمه في أقرب وقت.

***

كان حازم جالسًا في غرفته، وهو يرتدي تلك النّظّارات، التي تعوّد عليها منذ زمن، كان يتصفّح بعض الملفّات في حاسوبه، أين دخلت عليه أمّه، لتقطع عنه ذلك التّأمّل، وقالت:

- أبوك.. أبوك يا حازم.

فقام حازم من مكانه فزعًا، وقال:

- ما به أبي؟
- لا أعرف.. إنّه لا يتحرّك أبدًا.

فأسرع حازم للغرفة.. واتّجه لوالده، ليجده جثّة هامدة، فوضع يده على رقبته، ليتفاجأ بتوقّف النّبض، وبرودة جسم والده، فصرخ:

- أبي.. أبي.. أرجوك استيقظ.. أبي..

***

ذهبت نور وزميلاتها لتعزية حازم، وما إن دخلن للصّالون حتّى اتّجهت نور لأمّ حازم، لكي تعزّيها في مصابها، ثمّ سلّمت على أخته، وجلست بجانب زميلاتها بعد ذلك.. كانت خطيبة حازم السّابقة جالسة، بجانب أخته، وما إن رأت نور حتّى همست، في أذن أخته:

- أهذه هي خطيبة حازم؟

فأومأت الأخرى بنعم، وهنا اشتعل الغضب في قلب ندى، التي أحسّت بالغيرة من نور، فهي لم تكن تتوقّعها بهذا الجمال، أين أخذت ترمقها بنظرات حقد، وغلّ.. كانت نور تُكلّم إحدى زميلاتها، في هذه الأثناء، حين همست في أذنها زميلتُها رشا:

- أتعرفين تلك الفتاة، التي تجلس بجانب أخت حازم؟

فنظرت نور إلى ندى، ثمّ قالت:

- أتقصدين تلك الفتاة؟ لا.. بصراحة لا أعرفها.
- نظراتها لكِ لم تعجبني، فمنذ أن دخلنا وهي ترمقكِ بكره، وغلّ.

ركّزت نور النّظر في ندى، فوجدت بأنّ كلام رشا صحيح، فهي لم تزح عينيها من عليها، فاستغربت نور من كره هذه البنت لها، بالرّغم من عدم

وجود معرفة بينهما، ولكنّها حاولت أن تتجاهل نظراتها، وذلك بأن أقنعت نفسها، بأنّها إنّما تكون قد شبّهتها بأخرى، فقالت لنفسها:

- أظنّ بأنّها قد شبّهتني بفتاة تعرفها.

وقامت بعدها، لتتّجه لأخت حازم، طالبة منها أخذها للحمّام، فقامت معها هذه الأخيرة.. وحين انتهت من غسل يديها، خرجت من الحمّام، وفي طريقها رأت البنات، يحملن صينيّات القهوة، ليقدّمنها للمعزّين، فاستأذنت من أخت حازم الدّخول للمطبخ، لتساعدهنّ في تقديم القهوة للضّيوف.. وما هي إلّا لحظات حتّى لحقت بها ندى، ودخلت للمطبخ هي الأخرى، ودنت من أخت حازم، ثمّ قالت:

- إذًا هذه هي خطيبة حازم؟

فالتفتت أخت حازم لندى، ثمّ أجابت بشكل (مقتضب):

- أجل..

وعادت لتساعد نور، في وضع الفناجين في الصّينيّة، وهنا اقتربت ندى من نور، وقالت لها:

- لا تطمعي كثيرًا، فحازم لم يخطبك إلّا حين انفصلنا.. وخطبتكما لن تدوم طويلًا.

وهنا نظرت نور لندى بغضب، ثمّ قالت لأخت حازم:

- ما الذي تقوله هذه الفتاة؟

فشعرت أخت حازم بالخجل، ولم تدرِ بما تجيبها، فتدخّلت خالتها، التي كانت تساعد أولئك النّسوة، وقالت لندى:

- عيبٌ عليك يا بنت، هذا ليس وقتًا للكلام، ألا تحترمين أحدًا؟

- كنت أريد مصلحتها فقط، فحازم لا يحبّها، وحتّى وإن تزوّجها، فلن يبقى معها طويلًا.

وضعت نور الصّينيّة فوق المائدة، وخرجت لتتّجه للصّالون، أين حملت حقيبتها، وخرجت دون أن تكلّم زميلاتها، اللّاتي لحقن بها، الواحدة تلو الأخرى، ثمّ صاحت فيها رشا:

- على رسلك يا نور، لماذا تسرعين هكذا؟

ثمّ التفتت إلى زميلاتها، وقالت:

- ما بها؟

فقالت إحداهنّ:

- لا أعلم؟

***

- أتريد أن تقنعني بأنّك لا تعرف، من الذي ضربك؟

- قلتُ لك بأنّني لم أره، لأنّه كان خلفي، ولم يفسح لي المجال، للنّظر في وجهه، إلى أن أُغمي عليّ، والباقي أنتم على علمٍ به.

نظر الضّابط لهشام مليًّا، وهو يضع يده على فمه، ثمّ قال:

- أعلم بأنّك تتستّر عليهم، كما أعلم بأنّه ليس شخصًا واحدًا، ولكن ما أريد أن أقوله لك، أنّك بهذا تجعلهم يتمادون في ظلمهم، أمّا إذا أعطيتنا أسماءهم، فإنّك بهذا تمنع شرّهم، عن ضحايا جدد.

ظلّ هشام صامتًا، ولم يقل أيّ كلمة، وهنا نادى الضّابط للحارس، ليعيد هشام، إلى الزّنزانة مرّة أخرى، ثمّ قال له:

- آمل ألّا تندم على تصرّفك هذا.

خرج هشام مع الحارس، أين توجّها للزّنزانة، ثمّ فتح له الحارس الباب، فدخل، وهنا رمقه السّجين الذي ضربه بسخريّة وحقد، والتفت لصديقه، الذي كان بدوره ينظر لهشام، ثمّ قال (وهو يضحك):

- يبدو أنّنا قد تماثلنا للشّفاء بسرعة.

فضحك الآخر، وقال:

- في المرّة القادمة سنعمل على تأخير الشّفاء، ما رأيك؟

- بل قُل ستكون آخر مرّة، لأنّه لن يقوم بعدها.

وضحكا بصوتٍ عالٍ، فدنا أحد السّجناء من هشام، وقال:

- حمدًا لله على سلامتك.

- شكرًا..

ثمّ جلس بجانبه، وهمس في أذنه:

- لا تكترث لهذين المجنونين.. أتمنّى من الله بأن يأخذهما، أخذ عزيزٍ مقتدر.

فنظر هشام لهما بحقد، ثمّ التفت للسّجين، وقال:

- أشكرك على مشاعرك النّبيلة.

***

نزلت عمّتي من السّيّارة، واقتربت من باب المنزل، لكنّها لم تجرُؤ على الدّخول، بقيت على هذا الحال بضع دقائق، وبعدها همّت بالعودة، من حيث أتت، فقد أحسّت بأنّ ما ستفعله لن يأتيَ بنتيجة.. وفي هذه الأثناء ناداها الحارس، فالتفتت نحوه، أين اقترب منها، وسألها:

- هل من خدمة سيّدتي؟

- أ.. أأ.. بصراحة، أريد أن أقابل السّيّد سالم.

- بصراحة.. السّيّد سالم ليس هنا، فقد سافر بالأمس، ولكن إن أردتِ أن تقابلي زوجته - السّيّدة خديجة- فسأخبرها.

في البداية تردّدت، ولكنّ خوفها على ابنها، جعلها توافق، فقالت:

- حسنٌ.

- أنا آسف، ولكن من أنت؟ لأخبرها، إن هي سألتني عن هويّتك.

- أنا أخت السّيّد سالم، أخبرها، وستعرفني..

فنظر الحارس إليها بتعجّب، وحيرة، ثمّ قال في نفسه:

- أخت السّيّد سالم؟ ولكنّي لم أرها تأتي إلى هنا، من قبل.

وفي هذه الأثناء خرجت فلّة، وما إن رآها الحارس حتّى أسرع نحوها، وقال لها:

- سيّدتي، هناك امرأة تريد رؤيتكم، وتقول بأنّها عمّتك.

- عمّتي؟

واتّجهت للباب الخارجي، أين كانت عمّتي تنتظر في الخارج، وما إن رأتها حتّى قالت (مستغربة):

- ماذا تريدين؟

- جئتُ لأرى أباك، ولكنّ الحارس أخبرني بأنّه قد سافر.

ثمّ اقتربت من فلّة، وقالت لها:

- أرجوك - يا فلّة - بأن تقنعي أباك، لكي يعفوَ عن هشام.

- بعد كلّ ما فعله معنا؟ لا شكّ بأنّكِ تحلمين!

- أرجوكِ أن تسمعيني، أعدكِ بأنّ هشام لن يتعرّض لك، ولا لأولادك.. أرجوكِ أن تقنعي أباك، بأن يعفوَ عنه، فقد تعرّض البارحة لاعتداء، من طرف بعض السّجناء، وكاد أن يموت..

وقبل أن تكمل كلامها، قاطعتها فلّة (قائلة):

- ليتهم قتلوه، وأراحونا منه.

وواصلت طريقها، غير مكترثة لعمّتي، التي بقيت مصدومة للحظات، من موقفها الصّارم.. قبل أن تنسحب، وتعود من حيث جاءت.

***

وقفت سارة عند باب البيت الخارجي، بعدما دقّته، فجاء إليها الحارس، ليسألها:

- هل من خدمة؟

- أريد أن أقابل السّيّدة أمّ هاني، أخبرها بأنّي صديقة جنّات.

فذهب الحارس ليخبر أمّ هاني، بأنّ صديقة جنّات تقف خلف الباب، فطلبت منه بأن يدخلها، ثمّ قالت في نفسها:

- صديقة جنّات؟ من تكون؟ وماذا تريد منّي يا ترى؟

دخلت سارة للبيت، وما إن فعلت حتّى شعرت بالخوف، يتسلّل لقلبها، وأيقنت بأنّها ستفشل في مهمّتها هذه لا محالة، وخاصّة بعدما رأت العزّ الذي يعيش فيه هاني، فلطالما شاهدت قصورًا، في الأفلام، ولكن هذه المرّة الأولى، التي تشاهد فيها قصرًا، في الواقع، أخذت تنظر، وتلتفت يمينًا، ويسارًا، للحظة شعرت بأنّها تحلم، تقدّمت خطوات، دون شعور منها، إلى

الدّرج المؤدّي للطّابق العلوي، وهي منبهرة، من تلك الهندسة العجيبة للبيت.. ثمّ قالت:

- أمن المعقول أنّكِ جئت لتُكلّمي صاحبة هذا القصر؟ من تكونين حتّى ترضى بأن تكلّمك، أو تستمع لكِ أصلًا؟ يبدو بأنّكِ قد أخطأت يا سارة، في المجيء إلى هنا، وأخطأتِ حين تعرّفتِ على هاني، فلا هو مناسبٌ لك، ولا أنتِ مناسبة له.

وهمّت بالمغادرة، ولكنّ زوجة أبي كانت قد سبقتها، وذلك بأن قالت، بعد أن خرجت من إحدى الغرف:

- أخبرني الحارس بأنّكِ صديقة ابنتي؟ فمن تكونين؟ وماذا تريدين؟

ارتبكت سارة، وشعرت بالخوف، يسري في جسدها بأكمله، ولم تعرف كيف تتصرّف، فقالت أمّ هاني:

- هيّا تكلّمي.

فبلعت سارة ريقها، ثمّ قالت:

- بصراحة.. أنا لم آتِ من أجل جنّات.

فنظرت لها زوجة أبي باستغراب، ثمّ عادت لتسألها:

- فلِما جئتِ إلى هنا إذًا؟

- بصراحة.. جئتُ لأكلّمكِ في أمر، يخصّ ابنكِ هاني.

- تكلّمي.. أنا أسمعك.

- أ.. أأأأ.. بصراحة..

وسكتت، لأنّها لم تعد تعرف من أين تبدأ، وخاصّة أنّ شكل أمّ هاني، ونظراتها لها لم تُرحها.. وهنا غضبت أمّ هاني، وقالت:

- ستتكلّمين، أم أتّصل بالشّرطة؟ فأنتِ لستِ إلّا محتالة، على ما يبدو.
فوجدت سارة نفسها في مأزق، ممّا جعلها تخبرها، عن علاقتها بابنها، وما نتج عن العلاقة، وترجّتها بأن تساعدها، لأنّ ابنها لم يُرِد الاعتراف، بما اقترفه من ذنب، فقالت لها أمّ هاني:
- أنتِ مجرّد محتالة.. ثمّ من أنتِ لأزوّجكِ لابني؟
فقالت سارة، بعد أن نفذ صبرها:
- إن شئتِ اسألي أصدقاء هاني، وسيخبرونك بأنّنا كنّا على علاقة.
- اسمعي، لقد أصغيتُ لكِ بما فيه الكفاية، والآن ارحلي من هنا حالًا، أمّا بالنّسبة لهاني، فهو ليس من مستواك، كان عليكِ أن تختاري شخصًا من مستواك، وألّا تتطلّعي لمن هو أعلى منكِ شأنًا.
- ولكنّكِ كنتِ مجرّد فقيرة، حين تزوّجتِ بأبي هاني، أم أنّ النّعمة قد أنستكِ من تكونين؟ لقد قصدتك، لأنّي ظننتك أكثر واحدة يمكنها فهم شعور فتاة فقيرة مثلي، ضحك عليها، وأغواها شابٌّ غنيٌّ كابنك، يبدو بأنّي قد أخطأت في العنوان.
أثارت هذه الكلمات حفيظة أمّ هاني، فراحت تصرخ في سارة:
- هيّا ارحلي من منزلي، وإلّا فسأزجّ بكِ في السّجن، أيّتها الحقيرة..
خرجت سارة، وهي تشعر بالإحباط، أمّا أمّ هاني فقد ظلّت تلعن تربيتها الخاطئة لابنها، ثمّ أمرت الحارس بألّا يفتح الباب، إلّا لمعارفها، وبعدها عادت لتتوعّد ابنها هاني، فقالت:
- حسنٌ.. حين تعود.. فسيكون لي معك تصرّفٌ آخر، أنا يقال لي هذا الكلام؟ وممّن؟ من هذه المتشرّدة؟ لا!! وتقارن نفسها بي.. ولكن الخطأ

ليس خطأها، وإنّما خطأ ابني الغبيّ، الذي لم يجد في المدينة بأكملها، سوى هذه المتشرّدة.

***

بعدما انتهى حازم من استقبال المُعزّين، ذهب لغرفته، لينال قسطًا من الرّاحة، وفي هذه الأثناء دقّ أحدهم باب غرفته، فقام، ليفتح الباب، وإذْ بها أخته، جاءت لتتكلّم معه، قالت بعد أن دخلت:

- أعلم بأنّ الوقت ليس مناسبًا، لمثل هذا الحديث، ولكن جئتُ لأخبرك بأنّ ندى قد قالت لنور، عن قصّة خطبتكما، وأضافت كلامًا من عندها، ممّا جعل نور تغادر دون رجعة.

- ماذا تقولين؟ ولكن ماذا تريد منّي هذه المجنونة؟ ألم يكفها ما رأته منّي في المرّة الماضية؟

قال حازم كلامه، وأمسك هاتفه، ليتّصل بنور، فوجد بأنّ رقمها خارج مجال التّغطية، وهنا شعر بالضّيق أكثر من قبل، فقام، وذهب لأمّه، وبعد أن دقّ الباب دخل.. ثمّ قال لها (بغضب):

- هذه آخر مرّة أرى فيها تلك المجنونة هنا.

- من تقصد بكلامك؟

- ومن غيرها يا أمّي؟ ندى.. إنّها تريد أن تفسد عليّ حياتي.

- لماذا؟ ماذا فعلت أيضًا؟

وهنا تنهّد حازم، ثمّ خرج، وعاد لغرفته، وأغلق على نفسه الباب.

***

دخل هاني للمنزل، فوجد أمّه تنتظره، وما إن فعل حتّى صرخت فيه:

- أين كنت، كلّ هذا الوقت؟

فنظر هاني لساعة يده، ثمّ قال:

- هذه أوّل مرّة أدخل فيها المنزل باكرًا.. إنّها العاشرة فقط.

- ألا تخجل من نفسك أبدًا؟

فاقترب هاني من أمّه، وقبّل خدّها، ثمّ قال:

- أرجوك.. أنا متعبٌ بما فيه الكفاية، ولستُ مستعدًّا لسماع موشّحاتك، تستطيعين أن توبّخيني، ولكن غدًا، تصبحين على خير.

فأمسكته أمّه من ذراعه، ثمّ قالت:

- تعال إلى هنا، أيّها التّافه، وأخبرني، أتعرف بنتًا اسمها سارة؟

فتفاجأ هاني، وتلعثم لسانه، ثمّ قال:

- سارة؟ من؟ لا.. لا أعرف أيّ..

- اخرص.. أيّها الأبله، وتكذب عليَّ أيضًا؟ أخبرني، ما الذي بينكما؟

فنظر هاني لأمّه مستغربًا، ثمّ قال:

- ولكن منذ متى كنتِ تسألين عنّي، لطالما تعرّفتُ على نساء كثيرات، أساسًا أنا لا أعرف، عن أيّ سارة تتحدّثين، فقد عرفتُ فتيات كثيرات، بهذا الاسم.

- لا تعرف أيّ سارة منهنّ، أليس كذلك؟ وأخبرتها عنّي، وعن ماضيّ، حتّى تجرّأتْ، وجاءت لتهينني في بيتي.

- ولكن أنا لم أخبر أحدًا عنك، ما الذي تقولينه، بالله عليك؟

- أتعلم؟ الآن فقط.. عرفتُ بأنّ أباك كان على حقّ، حين أعطى الإدارة لخالد، فأنت لا تصلح لشيء.. والآن، اغرب عن وجهي.. هيّا..

ثمّ صعدت لغرفتها، وتركته يحدّثُ نفسه:

- عن أيّ ماضٍ تتحدّث؟ ثمّ ما الذي جاء بتلك الغبيّة، إلى هنا؟

***

جلست سارة في غرفتها، وهي تشعر بالغضب، لما فعلته أمّ هاني معها، فبالرّغم من كلّ ما حصل معها، في الماضي، ولكن هذه المرّة الأولى، التي أحسّت فيها، بأنّ كرامتها قد أُهدرت، على يد هاني، وأمّه، فقرّرت أن تنتقم منه، ولكن كيف السّبيل؟ أمسكت هاتفها، واتّصلت بصديق هاني للمرّة الثّانية، عسى أن يردّ عليها هذه المرّة، وهو ما حدث بالفعل، فقد ردّ عليها أخيرًا، وبعد أن سلّمت عليه، وسألته عن حاله، أخبرته بما حصل لها، فتأسّف لسماع هذا الكلام، وتعاطف معها، ثمّ طلب منها ألّا تيأس، فربّما غيّر هاني موقفه، ولكنّ سارة لم تكترث لاقتراحه، بل غيّرت الموضوع، وطلبت منه خدمة، فقال لها:

- إن كان طلبكِ في استطاعتي، فسأفعل ذلك حتمًا، وإن كنت أعرف هاني جيّدًا، فهو شخص عنيد، ولا يصغي لنصائحنا أبدًا.

- لا أريد منك أن تكلّمه، بل أريد أمرًا آخر، بصراحة.. أحسّ بأنّ السّبب في كلّ ما أنا فيه، هو دخول امرأة أخرى، في حياة هاني، هل لديك أيّ معلومات عنه؟

فكّر الشّابُّ قليلًا، ثمّ قال:

- تعرفين هاني أكثر منّي، فهو زير نساء، ولا يكاد يترك فتاة، إلّا ويتعرّف على عشرة بعدها، بصراحة أنا لا أعرف عنه، سوى أنّنا نذهب، لنسهر من

حين لآخر، ثمّ نسكر، ونغنّي.. وآخر اللّيل نعود لمنازلنا، ثمّ لا نكاد نرى بعضنا، إلّا حين نتّفق على السّهر، في مكان آخر.

فسكتت سارة قليلًا، ثمّ قالت:

- وماذا لو أعطيتك مبلغًا، كي تراقبه، وتأتيَ لي بآخر أخباره، وخاصّة عن الفتاة التي يخرج معها حاليًّا.. ما رأيك؟

وهنا اتّسعت عينا الشّاب، فسكت قليلًا، ليوهمها بأنّه غير مهتمٍّ بالمال، قبل أن يعود للحديث:

- سأساعدك.. ولكن ليس من أجل المال، بل لأنّكِ صديقتنا جميعًا.

شعرت سارة بالسّعادة، بعدما وعدها بالتّجسّس عليه، لنقل أخباره إليها، وبعدما أنهت المكالمة، راحت تفكّر بالفتاة، التي رأتها آخر مرّة، تتكلّم مع هاني أمام الشّركة، ثمّ قالت:

- من المؤكّد بأنّها هي نفسها، التي أبحث عنها، على كلّ حال سأعرف من هي، وأين تسكن قريبًا جدًّا، وحينها سأريك من أكون، ستعرف من هي سارة - التي ضحكتَ عليها - يا هاني.

***

بعد أن أنهى المساجين تناول العشاء، بدأوا بالخروج تباعًا، وهنا تقدّم هشام مع سجين، تعرّف عليه داخل السّجن، وخلفه السّجينان اللّذان ضرباه المرّة الماضية، واللّذان كانا يترصّدان لكلّ خطواته، فكانا كظلّه، كان هشام يحدِّثُ صديقه، أين أمسك أحد السّجينين بصديق هشام، من قميصه، ثمّ دفعه، ليسقط أرضًا، وقال له (وهو يضحك):

- ليس من اللّائق أن تقف أمام أسيادك، فمكانك في الخلف، وليس في المقدّمة يا هذا.

ثمّ نظر لزميله، الذي ضحك هو الآخر، فنظر هشام لهما بحقد، وفي نفس الوقت مدّ يده لصديقه، لكي يساعده على النّهوض، فأخذ صديقه يعدّل ملابسه، أمّا هشام فقد اقترب من السّجينين، وقال:

- ألن تكفّا عن إزعاجي، أنت وهو؟

وأمسك بواحد منهما من قميصه، وكاد يضربه ليطرحه أرضًا، لولا تدخّل الحارس في آخر لحظة، وذلك حين قال:

- ماذا هناك؟

فالتفت هشام للأمام، ليواصل طريقه مع صديقه، بينما نظر السّجينان اللّذان خلفه، لبعضهما البعض، ثمّ سارا خلف هشام، ليخرجوا كلّهم من القاعة المخصّصة للأكل، ويعودوا للزّنزانة.

***

بعدما وبّخت أمّ هاني ابنها، صعدت للطّابق الثّاني، أين رأت باب غرفة جنّات مفتوحًا، فدخلت لتتفقّد ابنتها، وقالت:

- جنّات.. جنّات، أين أنت؟

فردّت عليها جنّات، من داخل الحمّام، وقالت:

- أنا في الحمّام يا أمّي.

- كنت أريد أن أتكلّم معك.

- ثواني.. وأخرج.

جلست أمّ هاني على السّرير، وظلّت تنتظر خروج ابنتها، من الحمّام، وفي هذه الأثناء رأتْ علبة، فوق السّرير، فحملتها، وقالت:

- لِما تستعمل هذه الحبوب؟ غريب.. لم تخبرني بأنّها مريضة.

وسكتت قليلًا، ثمّ قالت لنفسها:

- يجب أن أعرف أمر هذه الحبوب.

وحملت العلبة، أين عادت لغرفتها، ووضعتها في الخزانة، وعادت بعد ذلك لغرفة جنّات، وتظاهرت بأنّها لم ترَ شيئًا.. في هذه الأثناء خرجت جنّات، من الحمّام، وقالت:

- آمل ألّا أكون قد تأخّرتُ عليك.

- كلّا.. لم تتأخّري.

***

بعد مرور ثلاثة أيّام..

قرّرت عمّتي الذّهاب لبيت أبي الثّاني، لعلّها تجده، وتحدّثه شخصيًّا، بعد فشلها آخر مرّة في إقناع فلّة، أو إيجاد أبي، وكم فرحت حين أخبرها الحارس بأنّه في المنزل، فدخلت وكلّها أملٌ في أن يوافق، على طلبها، وهو ما كان بالفعل، فبمجرّد دخولها رحّب بها بحفاوة، ونادى لأمّ هاني، لتسلّم عليها، وبعد أخذٍ وردٍّ وعتاب، قالت عمّتي:

- اسمع يا أخي، أنا لم ولن أنسى بأنّك قد ظلمتنا، نحن إخوتك، ولكن ما من أجل هذا أتيتك، وإنّما جئتك من أجل ابني، أرجو أن تعفوَ عنه، وتعتبره كأبنائك، فهو لم يفعل فعلته، إلّا لإحساسه بالظّلم.

فأمسك أبي الهاتف، واتّصل بأحد معارفه، وطلب منه أن يُخرج هشام، كما أخبره بأنّه متنازل عن القضيّة.. وبعدما أنهى المكالمة، نظر لعمّتي، التي كادت تطيرُ من الفرح، وقال لها (معاتبًا):

- بالرّغم من أنّ الفعل الذي قام به، لا يُغتفر، ومع ذلك فقد عفوتُ عنه، من أجلك، فمجيئكِ إلى هنا غالي.. ولكن على أمل، ألّا يعود لمثل هذا التّصرّف، لأنّي لن أرحمه، أخبريه بما قلت لك، حين يخرج.

***

اتّصل صديق هاني- الذي طلبت منه سارة التّجسّس، على هذا الأخير- اتّصل بهاني، أين وجده قد استيقظ للتّو، من النّوم، فقال له:

- أين أنت يا رجل؟ لِما لم نعد نراك؟ أتزوّجتَ دون علمنا، أم ماذا؟

فضحك هاني، ثمّ قال:

- لا.. لم أتزوّج بعد، ولكنّي سأخطِب اليوم.

فتظاهر صديقه بالفرح، وقال:

- مباركٌ عليك، ولكن لِما لم تخبرني مسبقًا، لأشتريَ لك هديّة.

- لا بأس.. لم يفُتك شيء، أحضرها لي في العرس.

- ولكن من هي العروس؟ لا تقل لي بأنّها سارة؟

فانزعج هاني، وقال:

- لا تعد لذكر اسمها، فأنا لم أعد على علاقة بها.

- أوه.. أنا آسفٌ حقًّا، حسنٌ، دعنا منها الآن، وأخبرني، هل هيَ إحدى الفتيات اللّاتي أعرفهنّ؟

- لا، لم يسبق لك رؤيتها معي، فقد تعرّفتُ عليها في الشّركة.

- حسنٌ، أخبرني، لِما لم تعد تسهر معنا، كما كنت في سابق عهدك؟ أم أنّ خطيبتك قد منعتك، من السّهر معنا؟

- لا.. ليس هذا، أنا مشغولٌ هذه الأيّام، بموضوع الخِطبة، لا أكثر.

***

- اجلس يا هشام.

قال الضّابط لهشام، فجلس.. وهنا عاد الضّابط للحديث:

- لقد تنازل السّيّد سالم عن القضيّة، وعفا عنك، وبناءً على هذا ستخرج اليوم، لتعود لحياتك الطّبيعية.

لم يصدّق هشام ما سمعته أذناه، فكيف لخاله أن يعفوَ عنه، فهو يعرف تمامًا، بأنّه ليس من النّوع، الذي يسامح بسهولة، فما الذي تغيّر ليتنازل، أسئلةٌ دارت في رأس هشام، ولكنّ الضّابط لم يدعه لينفرد بأسئلته، فقد قطع عليه أفكاره، وقدّم له ورقة، وقال بعدها:

- يجب أن تُمضيَ هنا، على هذا التّعهّد، ثمّ تَمضي لشؤونك.

أمضى هشام على التّعهّد، وأعاد الورقة للضّابط، الذي قال:

- آملُ أن تكون قد استفدتَ من الأيّام، التي أمضيتها هنا، وألّا تعود لهذا الأمر مجدّدًا، لأنّك لن تقوى على تحمّل السّجن، فهو ليس لأمثالك، والآن تستطيع أن تعود لبيتك.

فقام هشام، ثمّ مدّ يده، ليسلّم على الضّابط، وقال:

- لو كان كلّ النّاس مثلك، لما وُجد مجرمون، على هذه الأرض.

فابتسم، وقال:

- أتمنّى لك حظًّا موفّقًا يا هشام.

***

بعد أن أنهى صديق هاني المكالمة، عاد ليتّصل بسارة، وقال:
- ألو.. كيف حالك؟
- بخير.. هاه؟ أخبرني، هل من جديد؟
- شكّكِ كان في محلّه، فاليوم سيذهب ليخطب فتاة أخرى.
فشعرت سارة بصدمة، ولم تدرِ ماذا تقول، ظلّت صامتة للحظات، قبل أن تعود للحديث:
- هاه؟ ماذا قلت؟ ومن تكون هذه البنت؟
- زميلته في الشّركة، هكذا قال لي..
فتذكّرت البنت التي رأتها معه، حين كانت تنتظره أمام الشّركة، وقالت في نفسها:
- لا شكّ أنّها هي..
ثمّ عادت لتسأل صديق هاني:
- ألم يخبرك عن عنوان إقامتها؟
- لا.. ولكن إن شئتِ سأستفسر منه، على مسكنها، وأخبرك..
- حسنٌ.
أنهت سارة المكالمة، وعادت لتنفرد بأفكارها، عادت لتندب حظّها، تخيّلت هاني يجلس بجانب خطيبته، والنّاس يهنّؤونهما، ويدعون لهما بالسّعادة، السّعادة التي بُنيت على أنقاض تعاستها هي.. قالت:

- من المؤكّد أنّها غنيّة، وإلّا فلما تقدّم لها، ورضيتْ بها أمّه؟ حسبيَ الله ونعم الوكيل فيكما، أنتما الاثنان.

***

وصل هشام لمنزل أمّه أخيرًا، أين نزل من سيّارة الأجرة، ثمّ تقدّم نحو الباب، ودخل بعد أن فتحت له الخادمة، وما إن رأته أمّه حتّى أسرعت نحوه (وهي تقول):

- حمدًا للّه على عودتك سالمًا، لِما لم تتّصل، لأرسل لك سيّارة تُوصلك إلى هنا؟

- لم يكن لهذا داعي يا أمّي.

- تعال لترتاح، لابدّ أنّك متعب.

وسارت معه، وبعدما جلسا، طلبت من الخادمة، بأن تحضّر له العشاء، ثمّ قالت له:

- الحمد للّه الذي هدى خالك، وليّن قلبه، لولا تنازله، وعفوه عنك، لما كنت الآن بيننا.

فاتّسعت عينا هشام، ثمّ نظر لأمّه، وقال:

- ماذا تقولين؟ هذا يعني أنّكِ أنتِ من ذهب إليه، وترجّاه، ليخرجني من السّجن، أليس كذلك؟

- أأ.. بصراحة، لقد..

فقاطعها قائلًا (بغضب):

- بصراحة ماذا؟

- لقد ذهبتُ إليه فعلًا، وطلبتُ منه أن يعفوَ عنك، وهو لم يعترض..

- ولكن لما ذهبتِ إليه؟ من طلب منكِ بأن تترجّيه؟ هاه؟ أما يكفينا ما حصل لنا بسببه؟ لقد نهب أموالنا، وسرق آمالنا، وتذهبين لتترجّيه، بعد كلّ هذا؟

قال هشام، ثمّ قام من مكانه، فأمسكته أمّه من ذراعه، وقالت:

- ذهبتُ إليه من أجلك يا بُنيّ، فأنت لا تعرفه كما أعرفه أنا، فهو أخي ابن أمّي، وأبي، ولن يتردّد في أن يحطّمك، ويحطّم مستقبلك، وخاصّة إن وقفتَ في وجهه.

- أنا لا يهمّني ما تقولينه، ولست خائفًا منه، فليفعل ما يشاء.

في هذه الأثناء جاءت الخادمة، وقامت بوضع الأكل فوق المائدة، كما نزلت أخت هشام، التي ما إن رأته حتّى قالت (مستغربة):

- هشام؟ أنت هنا؟ الحمد لله على عودتك.

عادت أمّ هشام للحديث مرّة أخرى:

- أنصحك بالعدول عن عدائك له، فلن تجنيَ إلّا المشاكل، لك ولنا كلّنا.

- وماذا تريدين منّي أن أفعل؟ أم إنّكِ تريدينني أن أذهب، لأقبّل رأسه، وأشكره على صنيعه هذا؟

- لا، لم أقل هذا، بصراحة، هذا ما كنتُ أريد أن أكلّمك فيه، أستظلُّ واقفًا هكذا؟ هيّا، اجلس لنتعشّى، وأخبرك بما فكّرتُ فيه.

جلس هشام أخيرًا، ثمّ قال:

- ها قد جلست.. أخبريني ما تريدين قوله، وإن كنتُ متأكّدًا بأنّكِ لن تقولي شيئًا مفيدًا.

- بصراحة.. يجب علينا أن نرحل من هنا.

وهنا قالت أخت هشام:

- إلى أين سنرحل؟

- أرض الله واسعة.. المهمّ ألّا نبقى هنا لحظة واحدة.

فقام هشام من على الكرسيّ، للمرّة الثّانية، ثمّ قال:

- لن أرحل لأيّ مكان، قبل أن أُسوّي بعض المسائل العالقة، وبعدها لكلّ حادثٍ حديث.

ثمّ مشى قاصدًا غرفته، فقالت له أمّه:

- ألن تتعشّى؟

- لا.. أريد أن أنام فقط.. تصبحان على خير.

فتنهّدت أمّه، ثمّ نظرت لابنتها، وقالت (معقّبة على كلامه):

- تصبح على خير.

***

نظر أبو وردة لساعة يده، ثمّ قال لابنته:

- لقد تأخّرت الجماعة عن الموعد.

فقالت أمّ وردة:

- لماذا؟ كم السّاعة الآن؟

- إنّها الحادية عشرة.. أأنتِ متأكّدة بأنّهم سيأتون اليوم؟

همّت وردة بالرّد، ولكنّ أحدًا ما سبقها، حين دقّ الباب، فأشار أبوها لها، ولأمّها بالصّمت، ثمّ توجّه للباب، وفتحه، ليجد هاني واقفًا، وراء الباب، مع أبي وزوجته، فقال:

- أهلًا وسهلًا، تفضّلوا.. تفضّلوا.

ثمّ سبقهم للصّالون، ليفتح لهم الباب، وعاد ليرحّب بهم مجدّدًا، وبعد أن جلسوا جاءت زوجته، لتسلّم عليهم هي الأخرى.. وبعد دقائق من المجاملات الرّوتينية، التي يستقبل بها أهل البيت ضيوفهم، راح أبو وردة يسرد على زوجته، قصّة التقائه بأبي، وتعرّفه عليه، وكيف أصبح من أعزّ أصدقائه بعدها.. وكان أبي يشاركه الحديث، من حين لآخر، أمّا زوجة أبي فاكتفت بلعب دور المحترمة، وسيّدة المجتمع الرّاقية، التي تصغي أكثر ممّا تتكلّم.. وهم على هذا الحال، حتّى تطرّق أبي للموضوع، الذي من أجله جاء، هو وزوجته وابنه، فقال (بعد أن لبس ثوب الجدّية):

- من المؤكّد أنّ ابنتكم المصون قد حدّثتكم، عن سبب الزّيارة.

فأومأ أبو وردة برأسه، ثمّ قال:

- أجل..

- نحن لن نجد أحسن منكم، لنناسبهم، ونخطب ابنتهم لهاني، فما هو قولكم؟

وهنا ابتسم أبو وردة، ثمّ قال:

- ونحن بدورنا لن نجد أحسن منكم نسبًا.

- لنقرأ الفاتحة إذًا.. ولكن صحيح، أين هي العروس؟

فقامت أمّها لتناديها، بينما قال أبوها:

- أنت تعرف البنات ودلالهنّ.

- دعها تفرح بشبابها، فهي ما زالت صغيرة.

قال أبي، ثمّ نظر لهاني، وقال:

- مرّ الوقت بسرعة، وكبر هؤلاء الأولاد، وأصبحنا عجزة، أليس كذلك يا أمّ هاني؟

فقالت أمّ هاني (وهي تتعوّذ بالله من الشّيطان الرّجيم):
- تكلّموا عن أنفسكم، فأنا ما زلت صغيرة.

فضحك أبي بأعلى صوته، وضحك معه أبو وردة.. دخلت وردة، وأمّها في هذه الأثناء، فقال أبي:
- ما شاء الله.

ثمّ نظر لهاني، وقال له:
- أنت محظوظ يا هاني.. أهنّئك على اختيارك.

سلّمت وردة على أبي أوّلًا، ثمّ أمّ هاني، وهمّت بالجلوس بجانب أمّها، فقال أبي (مازحًا):
- ألن تسلّمي على خطيبك؟

فضحك أبوها، وقال:
- وردة فتاة خجولة جدًّا.

فقال أبي لوردة:
- أمامكما الدّهر كلّه، أتمنّى من الله أن يوفّقكما، في حياتكما.

***

بعدما أنهينا العشاء، صعدتُ لغرفتي، ودخلت للحمّام، لكي أستحم، ثمّ عدتُ لمكتبي، لأبحث عن أوراق، كنت قد وضعتها بأحد الأدراج، وحين وجدتها، وضعتها على المكتب، ثمّ أخذتُ نظّاراتي، أين رحتُ أقرؤها، في هذه الأثناء تذكّرتُ لبنى، فقد وعدتُ أمّها بأن أكلّمها، حول ضرورة العلاج، فقمتُ من على مكتبي، وأخذتُ هاتفي، وبحثتُ عن رقم هاتف لبنى، لأتّصل بها، وبعد لحظاتٍ ردّت:

- ألو.. كيف حالك دكتور؟
- بخير، وأنتِ كيف حالك؟
- بخير..
- بصراحة.. كنتُ أخبرتكِ ذات مرّة، بأنّي أريد أن أكلّمكِ في موضوع.
- أجل.. أتذكّرُ شيئًا من هذا القبيل.
- حسنٌ، ما رأيكِ لو نلتقي في مكانٍ عام، لنتكلّم؟
- لا مانع لدي.. ولكن أين سنلتقي؟
- حين تجهزين أخبريني، لآتيَ إليك، ونذهب سويًّا.
- حسنٌ.
- إذًا أتركك لترتاحي.. تصبحين على خير.
- تصبح على خير.
وضعتُ هاتفي على السّرير، ثمّ قلتُ في نفسي:
- لقد نسيتُ موضوعها تمامًا، مسكينة هي لبنى، من كان يدري بأنّ كلّ هذا سيحصل لها؟

***

- ولكن كيف خطر ببالك أن تتّصلي بي؟ وخاصّة أنّكِ قد أخبرتني مرّاتٍ عديدة، بأنّ هاني لم يعد يسهر مع أصدقائه، كما كان في سابق عهده؟
قال عادل متسائلًا، فردّت عليه جنّات:
- هذا صحيح.. ولكنّه ذهب مع والديَّ، ليخطب زميلته، التي أخبرتك عنها.
- أمم.. ولِما لم تذهبي معهم؟
- بصراحة.. لا أحبُّ الرّسميّات.

- وإلى متى سنظلُّ نتكلّم مع بعضنا خلسة؟

- وماذا سنفعل؟

- أنا أتكلّم بجدّية، أخوكِ هاني الذي تخافينه، يذهب ليخطب الفتاة، التي تعرّف عليها، وأحبّها، ونحن نلتقي من ورائه خلسة، وكأنّنا نرتكب جريمة، لمجرّد أنّنا نتكلّم مع بعضنا.

سكتت جنّات، لأنّها لم تجد ما تقوله، فعاد عادل ليسألها:

- أرى بأنّكِ قد لزمتِ الصّمت؟ وهذا يعني أنّكِ قد اقتنعتِ بما قلته.

- بصراحة.. موضوع الزّواج في السّر، ليس بالأمر السّهل.

- هذا لأنّكِ جبانة فقط، لو كنتِ شجاعة لما قلتِ هذا الكلام، أعرف بناتٍ أصغر منك، في العمر، وخَطَيْن هذه الخطوة.

- حسنٌ، دعنا من هذا الحديث الآن، فأهلي سيعودون بعد قليل.

- أنتِ هكذا دائمًا، حين أتطرّق لموضوع الزّواج، تتهرّبين.

- اسمعوا من يتكلّم، وهل تقارن نفسك بهاني؟ هاني سيتزوّج بزميلته، في العلن، بينما أنت تكتفي بالزّواج، في السّر.

- ولكنّكِ تعلمين بأنّي لستُ في مستواكم، وأنّ أهلكِ لن يقبلوا بتزويجكِ لشابٍّ مُعدم.. وأنتِ تعرفين ما أقول جيّدًا، والدّليل على هذا أخوكِ هاني، الذي أمركِ بألّا تلتقي بي، حين رآنا مع بعضنا آخر مرّة.

ظلّت جنّات تصغي لكلامه، الذي تغلغل في عقلها الباطن، حتّى باتت مقتنعة بأنّه على حق، فقد استطاع إقناعها، بأنّ زواجهما في السّر، ليس للتّقليل منها، وإنّما كان وليد الشّعور بالنّقص، من طرف عادل، وتخوّفه من عدم موافقة أهلها.

***

شرع أبي في قراءة الفاتحة سرًّا، بمشاركة كلّ الحاضرين، وبعدما وصلوا لنهاية السّورة، قالوا كلّهم بصوتٍ مسموع: "آمين".. وهنا قال أبي:

- مباركٌ عليكما.

ثمّ قال أبو وردة:

- مباركٌ عليك يا هاني.

والتفت لابنته، وقال:

- مباركٌ عليك يا وردة.

ثمّ طلب من أبي، أن يشرب المزيد من الشّاي، فقال هذا الأخير:

- لقد شربنا، وأكلنا ما فيه الكفاية، نشكركم على حسن ضيافتكم، لكن علينا الذّهاب.

ثمّ نظر لهاني، وقال:

- أليس كذلك يا هاني؟

فقال هاني:

- أوه.. أجل، أجل.

فقال أبو وردة:

- لن تكون هذه الزّيارة الوحيدة، في المرّة القادمة سنتعشّى كلّنا، مع بعضنا البعض.

- أجل.. فهذه مجرّد زيارة للتّعارف.. أليس كذلك يا أمّ هاني؟

قالت أمّ وردة، فردّت عليها أمّ هاني:

- لكن شرط أن تزورونا أنتم أيضًا.

فقالت أمّ وردة:

- بالطّبع.. سنزوركم بإذن الله.

وهنا قام أبي، وتبعه هاني وأمّه، وقاموا بتوديع أهل وردة، ليعودوا للمنزل، وفي الطّريق قال أبي لأمّ هاني:

- هل أعجبتكِ الجماعة؟

- بصراحة ظننتهم أغنى من هكذا، لكن طالما أنّ هاني معجبٌ بابنتهم، فلا نملك إلّا أن نتمنّى من الله، أن يتمّ الموضوع على خير.

فقال هاني (متذمّرًا):

- ولكنّهم أناسٌ طيّبون، ونحن لسنا بحاجة للمال، أليس كذلك يا أبي؟

- لا تسمع لكلام أمّك، فهي لا تشبع أبدًا.

قال أبي، ثمّ التفت لأمّ هاني، وعاد للحديث:

- ثمّ إنّهم طيّبون، كما قال هاني، والمال ليس كلّ شيء، المهمُّ السّمعة الحسنة، والسّيرة الطّيّبة، بالإضافة للأخلاق، والجمال، وأنا أرى بأنّ وردة تمتلك كلّ هذه المواصفات، أليس كذلك يا هاني؟

- أجل.. وردة إنسانة خلوقة، ومؤدّبة.

أدارت أمّ هاني وجهها للنّافذة، وركّزت في المارّة، والطّرقات، في إشارة منها، إلى أنّ كلّ ما قد قيل لم يعجبها، فقال أبي لهاني:

- دعك من أمّك الآن، واستمتع بجمال اللّحظة.

***

بعد مرور أيّام على خطبة هاني، عزمت سارة على اتّخاذ القرار، هذه المرّة بجدّية، وشجاعة أكثر من قبل، لأنّها اقتنعت أخيرًا، بأنّ هاني لن يتزوّجها،

فذهبت إلى بيت صديقتها، وسألتها فيما إذا كانت قد كلّمت أختها بشأنها، أم لا، وهنا قالت لها صديقتها:

- لقد أخبرتها.. ووافقت على مساعدتك، لكن شريطة أن يظلّ الموضوع سرًّا، بينكِ وبين أختي، هل فهمت؟

- ولكن لِما التّكتّم على الموضوع؟

- لأنّ الأمر ليس بتلك السّهولة، التي تظنّينها.

- حسنٌ، أيمكنني أن أراها؟ لأفهم منها، ما يتوجّب عليّ القيام به.

- لا.. هي ليست هنا، ولكن حين تعود سأكلّمك، لتتفاهمي معها.

- حسنٌ.. أتركك الآن.

- ولكنّ أمّي تحضّر لكِ القهوة.

- لا.. لا يمكنني أن أبقى أكثر، عليّ أن أغادر.. فأنتِ تعرفين أخي.

- حسنٌ، اعتني بنفسك.

غادرت سارة، على أمل أن تساعدها أخت صديقتها في محنتها، ظلّت طول الطّريق تفكّر، فيما سوف يحصل، هل ستنجح في مهمّتها، دون أن يُكشف أمرها، ودون أن يُحدث الإجهاض مضاعفات، تستدعي نقلها للمشفى، كانت كلّ تلك الأسئلة تجول في بالها، وفجأة تذكّرت هاني، الذي يُعتبر السّبب الرّئيس في معاناتها، فقالت:

- والآن، إلى أين ستؤول بكِ الأمور؟ ماذا سيحصل لكِ أكثر ممّا حصل؟ إنّه حقًّا لأمرٌ مؤسف، أن نعيش في مجتمع، تدفع فيه البنت ثمن ذنب، كهذا لوحدها، لتتحمّل المسؤوليّة، وتفكّر في حلٍّ لمصيبتها بمفردها، وإن كُشفت فسيمقتها النّاس، كبارًا وصغارًا، ذكورًا وإناثًا، ليحمّلوها ما لا تحمّله

الجبال، وتعيش طول حياتها محمّلة بوصمة عار، مرسومة على جبينها، تعيشُ ليدفع أهلها ثمن غلطة، لم تكن فيها المذنبة الوحيدة، بل هناك طرفٌ آخر، بعيدٌ كلّ البعد عن الحساب، بعيدٌ كلّ البعد عن الشُّبهة، فقط لأنّه رجل، ولا يعيبه سوى جيبه، أجل.. تلك هي حقيقة مجتمعاتنا، التي تخضع للأعراف، التي ما أنزل الله بها من سلطان، تخضع للتّقاليد، أكثر من خضوعها لِما أمرنا الله به، من رحمة، وتضامن، وتكافل، فتدفع الفتاة ثمن ذلك، بأن تبقى منبوذة طول حياتها، بينما يعيش الرّجل بمنأى، عن هذا كلّه، كما هو الحال مع هاني التّافه، الذي أدار وجهه لهذا كلّه، وخطب فتاة غنيّة.

وهي على هذا الحال، حتّى اصطدمت بامرأة، فقالت لها:

- ألا ترين أمامك؟

- أنا آسفة جدًّا، لم أنتبه لك.

فواصلت المرأة طريقها (وهي تقول):

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله، إذا كان هذا حال الشّباب، فماذا نقول نحن كبار السّن؟ إنّهم يمشون بدون شعور.

واصلت سارة طريقها (وهي تقول):

- سأريك - أيّها اللّعين- من هي سارة، التي ضحكْتَ عليها.

***

جاء الحارس يركض، ثمّ قال:

- أنا رهن أمرك سيّدتي.

فأعطته أمّ هاني العلبة، التي في يدها، وقالت له:

- أريد منك أن تعرف لي فائدة هذا الدّواء.. ولِما يُستعمل، أتفهم؟
فأخذ الحارس العلبة، ثمّ نظر لها مليًّا، قبل أن يسألها:
- هذه العلبة الدّاخليّة، ولكن أين الغطاء الخارجي، لهذه الأقراص؟
فنظرت أمّ هاني له مليًّا، ثمّ قالت (بغضب):
- لو كان معي لأعطيته لك.
فضحك الحارس، ثمّ قال:
- حسنٌ.. هل تأمرينني بشيء آخر؟
- لا.. ولكن كما أخبرتك، أريد أن يبقى هذا الأمر سرًّا بيننا.
- بالطّبع.
انصرف الحارس، بينما بقيت أمّ هاني جالسة، في الحديقة، وفي يدها كوب العصير، ثمّ تنهّدت، وقالت في نفسها:
- آمل ألّا يكون وراء هذا الدّواء أمرٌ خطير.

***

كان عادل جالسًا حين رنّ هاتفه، فألقى نظرة عليه، ثمّ ردّ (قائلًا):
- ألو..
- ألو، كيف حالك يا عادل؟
- بخير.. سيّدي.
- اسمع.. لقد اتّصلتُ بك، لأقول لك بأنّي أريد رؤيتك.
- أنا في الخدمة.
- حسنٌ.. إذًا سأنتظرك في بيتي، هذا المساء.
- كما تريد.. سأمرّ عليك، بمشيئة الله.

***

بعد أن جلسنا جاء النّادل، ليسألنا عن طلباتنا، فنظرتُ للبنى، لأعرف ماذا تريد أن تشرب، فقالت:

- أنا أشرب القهوة.

فطلبتُ منه بأن يحضر لنا القهوة، وعدتُ لأتحدّث معها، ومن حديث لآخر، حتّى شعرتُ بأنّ مزاجها، قد تحسّن عن قبل، فانتهزتُ الفرصة، لأتطرّق للموضوع، الذي من أجله جئت، فقلتُ لها:

- وماذا عن حالتكِ الصّحيّة؟

فنظرتْ لي باستغراب، وقالت:

- أأ.. ولكن ما بها صحّتي؟ أنا بخير.. وليس..

وقبل أن تكمل كلامها قاطعتها:

- إن كنتِ تظنّين بأنّني لا أعلم، فأنتِ مخطئة.

- وما الذي تعرفه؟

- أعرف بأنّكِ مريضة بالسّرطان.

فوضعتْ الفنجان على الطّاولة، بشكلٍ لا إرادي، ثمّ نظرت بعشوائيّة، وكأنّها تفكّر فيما يمكن أن تقوله، ظلّت هكذا للحظات، وقد بدا عليها التّوتّر، ولكنّها كبحت غضبها، وقالت (بصوتٍ مرتجف):

- ولكن من أين عرفت هذا الأمر؟

- لا يهمّ.. المهمّ أن تتعالجي، ومن يدر، فربّما تُشفين.

فابتسمت، ثمّ قالت (باستهزاء):

- أرأيت أحدًا وصل للمرحلة الأخيرة، من هذا المرض، وتماثل للشّفاء؟

- قدرة الله أكبر من أيّ شيء، وحكمته اقتضت أن تُصابي بهذا المرض، ولكن بقاؤكِ بدون علاج، في حدّ ذاته انتحار.

- انتحار؟ وماذا سيفعل لي العلاج؟ لا تكذب على نفسك، فكلانا يعرف بأنّ العلاج لن يشفيَ المريض، بشكل كامل، بل يمنحه أيّامًا إضافية، أو لعلّها أسابيع، أو لِنقُل شهورًا فقط.. ولكن في نهاية المطاف، المريض لن يعيش كثيرًا، فما الذي يجبرني على تحمُّل الألم؟ ما الذي يجبرني على أن أطيل من عمر الألم؟ هذا لن يحصل أبدًا، وإن قُدّر لي الموت، فأنا راضية، ولكنّي لن أعذّب نفسي، أكثر من هذا.

فقلت لها (معترضًا):

- ولكن يا لبنى..

- أرجوك أن تكفّ عن الخوض، في هذا الموضوع، فأنا متعبةٌ بما يكفي، ولم يعد لي رغبة، أو طاقة لسماع هذا الكلام.

قالت لبنى.. ثمّ اكتفت بشرب القهوة، وهي تتأمّل منظر البحر بيأس، وهو ما جعلني أشعر بالأسف حيالها، لأوّل مرّة أحسّ بأنّني عاجز، ولا أستطيع تقديم يد المساعدة، أو على الأقل رسْم ابتسامة، على شفاهها، فسكتُّ أنا أيضًا، ورحتُ أتأمّل البحر، بنفس اليأس، والحزن.

***

ظلّ هاني جالسًا، في سيّارته، ينتظر خروج وردة، من المعهد، وبعد أن مرّت ربع ساعة، خرجت هذه الأخيرة، رفقة صديقتها، وبعد أن اقتربت من سيّارة هاني، افترقت معها (وهي تلوّح لها بيدها):

- باي..

فقالت الأخرى:

- باي.. أراكِ في الغد.

اتّجهت وردة لسيّارة هاني، وفتحت الباب، ثمّ ركبت، وبعد أن سلّمت عليه، قال لها:

- لقد تأخّرتِ قليلًا.

- أجل.. لقد كنّا نتحدّث مع الأستاذ، حول المشروع، الذي سنقدّمه.

- وهل أستاذكم وسيمٌ مثلي؟

ضحكت وردة من سؤاله، ثمّ قالت:

- لا تخف، فأستاذنا مُسنّ، ثمّ إنّه متزوّج، ولديه أولاد، وأحفاد.

فابتسم.. وقال:

- وماذا قلتُ أنا؟

- سُق، وكُفّ عن الكلام.

- أمرك يا وردتي.. والآن سآخذكِ لأفخم مطعم، في المدينة.

- على بركة الله إذًا.

***

جلس حازم في الصّالون، يحدّث نور، التي على ما يبدو، بأنّها مازالت غاضبة، من تصرّف خطيبته، بصراحة لم يكن هذا السّبب الوحيد، الذي جعلها تغضب، فهي لم تتقبّل فكرة، أن يُخفيَ عنها حازم، أمرًا كهذا، قال هذا الأخير، بعد أن تعب من التّبرير:

- ألم نتحدّث في هذا الموضوع، المرّة الماضية؟

وسكت قليلًا، ثمّ عاد للحديث:

- اسمعي.. لقد جئتُ إلى هنا، لأتحدّث مع أبيك، حول تعجيل الزّواج، وعدم الانتظار أكثر.

دخل في هذه الأثناء والد نور، وسلّم على حازم، ثمّ قال:

- آسفٌ لأنّني تأخّرتُ عليك قليلًا، ولكن آثرتُ أن أترككما، لتُزيلا سوء التّفاهم، الذي بينكما.

فاستغلّ حازم الفرصة، وقال:

- جئتَ في الوقت المناسب يا عمّاه، فقد كنتُ أُكلّم نور، عن رغبتي، في تعجيل العرس، فهلّا شاركتنا؟

فنظر عمّي لنور، ثمّ قال:

- الرّأي رأيكما، إن شئتما تعجيل العرس، فلا بأس بذلك.

فقالت نور:

- ولكن..

فقاطعها حازم:

- لقد طلبتُ منكِ كذا مرّة، بأن تنسيْ أمرها، فهي لم تعد تعني لي، أيّ شيء، ولذا لم أخبركِ بالموضوع، لأنّني أعتبر هذا الأمر غلطة، اقترفتُها في حقّ نفسي، ولكنّني صلّحتها، حين خطبتكِ أنت.

ثمّ التفت لعمّي، وقال:

- ألن تقول شيئًا يا عمّي؟

فقال أبو نور:

- لا إله إلّا الله.. أنا موافق.

فنظرت نور له، متفاجئة من موافقته، والتفتت لحازم، ثمّ قالت:

- وأنا موافقة.. ولكن لن يكفيني الوقت، لأحضّر نفسي.
- وأنا لا يهمّني هذا الأمر.
قال حازم، وهو يمدّ يده لكوب الشّاي، ثمّ واصل حديثه:
- سنعوّض كلّ هذا بإقامة شهر عسل، في بلدٍ أوروبّي، ما رأيك؟
ابتسمت نور، وأومأت برأسها، في إشارة منها على موافقتها.

***

نظر عادل لساعته، فوجدها الثّامنة مساءً، فقام لكي يرتديَ ملابسه، ثمّ خرج من المنزل، وركب سيّارته، لينطلق بها مسرعًا، لبيت الرّجل، الذي اتّصل به، هذا الصّباح، وما إن وصل حتّى ركن سيّارته، عند زاوية في الشّارع، ثمّ نزل، وسار ناحية البيت.. دقّ الباب، وبعد مدّة فتح الرّجل الباب، ولكنّه لم يُظهِر وجهه، بل ظلّ مختفيًا وراء الباب، التفت عادل وراءه، ونظر يمينًا، ويسارًا، ليتأكّد بأنّ ما من أحدٍ قد رآه، وحين اطمأنّ قلبه، دخل للمنزل.. ثمّ أغلق الباب.

***

رنّ هاتف سارة، فأغلقت الباب، وردّت على صديقتها، بصوتٍ خافت، والتي تحدّثت معها لمدّة، قبل أن تعطيَ الهاتف لأختها، لتخبرها عن المبلغ، الذي عليها إحضاره، وما إن قالت لها المبلغ حتّى قالت سارة (مستغربة):
- ماذا؟ عشرون ألف دينار؟ لِما كلّ هذا المبلغ؟
فقالت لها أخت صديقتها، بأنّ الدّواء الذي ستبيعها إيّاه، ليس متوفّرًا في الصّيدليّات.. فسألتها سارة:
- وهل هذا الدّواء عبارة عن سائل؟ أم ماذا؟

- لا، الدّواء عبارة عن قرص تتناولينه، وإذا لم يأتِ بنتيجة فعليكِ إحضار عشرين ألف دينار أخرى، لأعطيكِ قرصًا آخرًا، فمفعول الدّواء يختلف من امرأة لأخرى.. هل فهمتِ الآن؟

- هذا كثير.. ولكن ليس لي خيار آخر .

أنهت سارة المكالمة، ثمّ أخذت تفكّر في المبلغ، فقالت:

- ولكن من أين لي بكلّ هذا المبلغ؟

***

جمع أبي رجاله، بأحد المستودعات، التي تعوّد أن يجتمع فيها معهم، لوضع البضاعة في الخُضر، أو داخل عجلات السّيّارة، ليقوموا بتصريفها بعد ذلك.. وذلك بأن يبيعوها للشّخص، الذي اتّفق مع أبي، على شراء البضاعة، في وقتٍ سابق.. كان الرّجال منشغلين، بوضع البضاعة، في المكان، الذي طلب منهم أبي، وضعها فيه، وكان إلياس من بينهم، بينما جلس أبي يراقبهم بصمت، وبعد مدّة قال أحد الرّجال:

- ولكن علينا أن نكون أكثر حيطةً، هذه المرّة يا سيّدي.

فردّ عليه أبي:

- معك حقّ، وإن كنتُ متأكّدًا، بأنّ من يراقبنا، هو واحدٌ منّا، ويجلس بيننا الآن.

فاتّسعت عينا إلياس، وبلع ريقه، أمّا الباقي فقد أخذوا ينظرون لبعضهم، كان أبي يراقبهم، الواحد تلو الآخر، لعلّه يجد مؤشّرًا، بين تلك الوجوه، أو علامة تدلّه على من يخونه، ظلّ ينظر لتلك الوجوه، علّه يرى الخوف، أو التّوتّر في واحدٍ منها.. وإلياس ينظر له بطرف عين.. وفي هذه الأثناء وجّه

أبي نظراته لإلياس، الذي كان ينظر له بترقّب، فبدّل إلياس وجهه، وتظاهر بأنّه غير مكترث لكلامه، وهنا عاد أبي للحديث:

- قريبًا سأعرف من هو، وبعدها سأقتله بيديَّ هاتين.

وأشار إلى يديه الاثنتين، وهو ينظر للرّجال بغضب، ليواصل:

- لا مكان عندي للخونة.. أتفهمون؟

فشعر إلياس بالخوف الشّديد، وراح يحدّث نفسه:

- ويلي.. ماذا فعلت؟ لقد وضعتُ نفسي بين طرفي كمّاشة، ولو كُشف أمري، فسيسلخني حيًّا.

ثمّ وضع يده على رقبته، وكأنّه قد شعر بمدى الألم، الذي ينتظره، في حال ما إذا علم أبي بأمره.

***

نزلت أمّ هاني للطّابق الأرضي، أين وجدت الحارس ينتظرها، فقالت له (مستغربة سرّ إصراره على رؤيتها، في هذا الوقت):

- أخبرتني الخادمة بأنّك تريدني، في موضوع مهمّ.. ما الأمر؟

فأخرج العلبة من جيبه، ثمّ قال لها:

- سألتُ أحد المختصّين، عن هذا الدّواء، وأخبرني بأنّه نوع، من أنواع المخدّرات.

فضربت أمّ هاني صدرها بيدها، ثمّ قالت:

- ماذا قلت؟ مخدّرات؟

- أجل.. هذا ما قاله لي، بالحرف الواحد.

فأخذت العلبة، وراحت تحدّث نفسها، دون وعي منها:

- هذا يعني بأنّكِ تتناولين المخدّرات؟
فقال لها الحارس (مستغربًا):
- هل قلتِ شيئًا سيّدتي؟
فعادت أمّ هاني لرشدها، وقالت له (بغضب):
- لا.. لم أقل شيئًا.. يمكنك الانصراف الآن.
وصعدت لغرفتها، والدّهشة بادية عليها، فهي لم تستطع استيعاب كلام الحارس بعد، نظرت للعلبة مجدّدًا، وقالت:
- ابنتي أنا تتعاطى المخدّرات، لِمَ؟ ما الذي ينقصها، لتتناول هذا السّم؟ لو علم سالم بهذا الأمر، فسيقتلها.. يا إلهي، عليّ التّخلّص من العلبة، قبل أن يراها سالم، أو هاني.

***

بعد مرور شهر..
عاد حازم ونور من شهر العسل، وذهبا إلى شقّتهما، وما إن دخلا حتّى قالت نور:
- لقد اشتقتُ للبلد كثيرًا.
فابتسم حازم، ثمّ قال:
- كان بِودّي لو بقينا لوقتٍ أطول، فالرّجوع للبلد يعني الرّجوع للمشفى.
- أتعلم يا حازم؟ لقد اشتقتُ للمشفى، أكثر من أيّ شيء، فبالرّغم من التّعب الذي نعانيه، في العمل، إلّا أنّ له طعمًا خاصًّا، فمن خلاله تحقّق ذاتك، واستقلاليّتك..
وقبل أن تضيف قاطعها حازم:

- قبل أن تسترسلي، تعالي لنتّصل بأمّي، ونطمئنها علينا، ونتّصل بأبيك، ليطمئنّ عليك، وبعدها نعود للحديث عن المشفى، وما فيه.

فضحكت نور، ثمّ قالت:

- معك حقّ، كدتُ أنسى أن أتّصل بأبي، وهو الذي أوصاني بالاتّصال، فور دخولنا للمدينة.

***

- هاه.. أخبريني، هل استطعتِ أن تؤمّني المبلغ يا سارة؟

قالت صديقة سارة لهذه الأخيرة، فردّت عليها:

- ليس بعد، فأنتِ تعرفين أحوالنا المادّيّة، فنحن نعيش تحت خطّ الفقر، يا إلهي، من أين لي أن آتيَ بمبلغ كهذا؟

- آاه.. لو كان معي القليل من المال فقط، كنتُ ساعدتك في محنتك، ولكن للأسف، فنحن لسنا بأحسن حال منكم.

- أعرف ذلك جيّدًا، يكفيني وقوفكِ بجانبي، في هذه المحنة، ويكفيني دعمكِ لي، حتّى لو كان معنويًّا.

سكتت سارة قليلًا، ثمّ عادت لتقول:

- سأتركِكِ الآن.. فقد سئمتُ الحديث، في هذا الموضوع.

- حسنٌ، اعتني بنفسك.

أنهت سارة المكالمة، وجلست وكلّها حزنٌ على حالتها، ثمّ راحت تفكّر فيما يمكنها فعله، فقالت في نفسها:

- والآن ماذا سأفعل؟ من أين لي أن أؤمّن هذا المبلغ؟ لقد مرّ شهر، ولم أستطع تأمين ألف دينار حتّى، فكيف الأمر مع عشرين ألف؟

بعد أن شعرت سارة بالعجز، وقلّة الحيلة، قامت لكي تذهب للمطبخ، لتساعد أمّها، في أشغال البيت، بعدما سمعت صوت أختها، يأتي خافتًا من أعماق البيت، لينادي عليها، سارت بضع خطوات، وما إن تجاوزت باب الغرفة بقليل حتّى تذكّرت شيئًا، فالتفتت للخلف، وعادت لتدخل غرفتها، ونظرت للمكتبة، وبالضّبط للكتب، التي كانت تستعين بها، في المذاكرة، فأسرعت لتفتح الدّرج السّفلي، وتخرج الكتب.. حتّى وصلت لكتاب، كانت وضعته خلف الكتب عمدًا، فأخرجته، وفتحته، لتمسك بالقلادة التي بداخله، وقالت:

- كيف نسيتُ أمر هذه القلادة؟

ثمّ عادت بذاكرتها للوراء، وبالضّبط لحفلة عيد ميلادها، التي أقامها هاني، في أحد اليخوت، التي يملكها أبي، أين احتفل وشلّته بعيد ميلاد سارة، ثمّ أهداها هذه القلادة.. فقالت:

- هذه القلادة هي الشّيء الوحيد الإيجابي، الذي خرجتُ به، من هذه العلاقة، لقد حضرت في الوقت المناسب.

وعادت لتضعها داخل الكتاب، وأعادت الكتاب إلى الدّرج، ثمّ أعادت باقي الكتب، وذهبت لتساعد أمّها، وأختها.

***

نظرت جنّات لعلبة الحبوب، ثمّ قالت:

- عليّ أن أتّصل بعادل، ليجلب لي علبة أخرى، فهذه العلبة قد أوشكت على الانتهاء.

واتّصلت به، وطلبت منه بأن يحضر لها علبة، فرفض بحجّة أنّها لم تقبل الزّواج منه، وقال لها:

- أنتِ لا تتّصلين بي، إلّا حين تكون لكِ مصلحة معي، لتختفي بعدها، إذًا اطلبي من هاني أن يؤمّنها لك، فهو يتناولها أيضًا.

وأغلق الهاتف في وجهها، وتركها مستغربة من غضبه المفاجئ.

***

- ألم تجهزي بعد يا فلّة؟

قال خالد لفلّة، التي كانت تجهّز نفسها، ولأمّي التي كانت تساعدها، قبل أن يعود للحديث:

- يا إلهي.. لما هذا التّكلّف كلّه؟

فقالت له أمّي:

- علينا الذّهاب للخطبة، في أحسن صورة، فأنت تعرف أقارب أبيك، سوف لن يرحمونا، وخاصّة زوجة أبيك.

ثمّ نظرت لفلّة، وقالت:

- آاه لو أنّ الأمر بيدي، لما حضرتُ للخِطبة.. فأنا لا أريد أن ألتقيَ بتلك المجنونة.

- ولكن ما ذنب هاني يا أمّي؟

قالت فلّة، وهي تعدّل شعرها، فقاطعها خالد:

- إن ظللتما تتحدّثان عنها فستضيّعان الوقت، ماذا سيقول الضّيوف، إن دخلنا بعدهم؟ علينا أن نكون في الصّدارة، فنحن إخوة العريس.

ثمّ خرج غاضباً، من غرفة فلّة، فقالت هذه الأخيرة لأمّي:

- معه حقّ، علينا أن نذهب.

فنظرت لها أمّي باشمئزاز، ثمّ قالت:

- أرجو أن تمضيَ هذه اللّيلة على خير، فأنا لم أنسَ بعد آخر مرّة التقيتُ فيها بتلك المجنونة، عند تلك العجوز، ليتني قتلتُها، وارتحت..

فضحكت فلّة، وقالت:

- ألم تنسيْ هذا الأمر يا أمّي؟

***

وصل خالد، ومعه أمّي، وفلّة للفندق أخيرًا، وما إن دخلوا حتّى وجدوا أبي، واقفًا عند باب الفندق، فقال لهم:

- لِما تأخّرتم هكذا؟

فقال خالد:

- أنت تعرف النّساء يا أبي.

ثمّ نظر لفلّة، وعاد للحديث:

- لم تحضر فلّة، إلّا بعدما جنّدت أهمّ المصمّمين، في البلد، ليصمّموا لها أجمل الفساتين، وليس هذا فحسب..

وقبل أن يكمل خالد كلامه، قاطعه أبي:

- معها حقّ، فهي ابنة سالم ابن راضي، أهمّ رجل أعمالٍ في البلد.

ووجّه لكمة خفيفة، على كتف خالد مازحًا، ثمّ ضحك، لتضحك معه فلّة، التي قالت:

- قل له يا أبي.

دخلت أمّي، وفلّة لقاعة الحفلات، وفي طريقهما للطّاولة المخصّصة لعائلتنا، قامتا بالتّرحيب بالضّيوف الموجودين، خاصّة الذين تعرفهم أمّي، سواء من معارف أبي، أو أقربائه.. وواصلتا السّير للأمام، إلى أن رأت فلّة جنّات، فقالت لأمّي:

- هنا يا أمّي.

واتّجهتا لجنّات، التي قامت بدورها لتسلّم عليهما، وجلستا معها، وبعد مدّة، امتلأت القاعة عن آخرها بالضّيوف، الذين قدموا من كلّ مكان، وخاصّة كبار رجال الأعمال، الذين تجمعهم علاقات بأبي، هذا الأخير الذي انشغل - في هذه الأثناء - بالتّرحيب بضيوفه، وشاركته في هذا الأمر أمّ هاني، التي راحت تتبعه كظلّه، إلى أن فرغا من ذلك.

كان خالد لا يزال - في هذه الأثناء - خارج القاعة، يكلّم زملاءه، الذين يشتغلون معه في الشّركة، والذين حضروا للحفل.. إلى أن قرّروا الدّخول أخيرًا، فتقدّموا ليجلسوا كلّهم مع بعض، فرأى خالد جهينة، التي كانت تجلس على المائدة المخصّصة لأهل العروس، فاقترب منها، وكان معه زميله، ليسلّم عليها، أين قالت:

- إذًا حضرتَ للخطبة؟

فقال لها زميله:

- إذا لم يحضر أخو العريس، فمن ذا الذي سيحضر؟

وهنا نظرت جهينة لخالد، وقالت (مستغربة):

- هاني يكون أخاك؟

- أجل.

- لم أكن أعرف بأنّك من عائلة ابن راضي.

شعر خالد بالإحراج ، فتدخّل زميله، ليزيل عنه هذا الإحراج:

- ذلك لأنّ خالد متواضع، ولم يعامل زملاءه بتكبّر، أصلًا الأغلبيّة لا يعرفون بأنه ابن صاحب الشّركة، ولستِ أنتِ فقط.

فابتسمت جهينة، التي ازداد إعجابها به، وقالت:

- تشرّفتُ بمعرفتك يا خالد.

فابتسم، وقال:

- وأنا كذلك، تشرّفت بمعرفتك.

ثمّ مضى في طريقه، هو وزميله، فقال له هذا الأخير (مازحًا):

- أرأيت كيف كانت تنظر لك يا خالد؟

فقال خالد (متجاهلًا):

- من تقصد؟

- أممم.. من؟ على صديقك يا خالد؟

- دعنا نذهب، ونجلس مع الرّفاق، قبل أن تمتلئ كلّ الكراسي.

فابتسم زميله، وقال:

- يا لك من شابٍّ كتوم.

***

ظلّت سارة تنظر للمبلغ، الذي تحصّلت عليه، من وراء بيع القلادة، وهي غير مصدّقة، بأنّها قد أمّنته أخيرًا.. قالت لنفسها:

- الحمد لله أنّني قد استطعت تأمين المبلغ، قبل أن يُكشف أمري.

ثمّ نظرت للمال مرّة أخرى، وعادت لتحدّث نفسها:

- أعدك يا هاني.. بأنّني سأنتقم منك، أنت وأمّك تلك المتعجرفة، التي تظنّ بأنّها تستطيع إهانة النّاس بمالها، حسنٌ، سأريكما من تكون سارة، ولكن ليس الآن.

ووضعت المبلغ في كيس، وقامت لتبحث عن مكان، لتخبّئه (قائلة):

- عليّ أن أضع هذا المال في مكان، لا يخطر ببال أخي، فهو لصّ.

***

وصل الاحتفال لأوجه، وذلك بأن قام الشّباب، وكوّنوا حلقة كبيرة حول هاني وخطيبته، اللّذين كانا يرقصان، والكلّ يصفّق لهما، ما أثار حماسة أمّ هاني، التي أسرعت لأولئك الشّباب، لتفرّق جمعهم، ودخلت وسط الحلقة، وأمسكت بيد ابنها هاني، من جهة، ويد وردة، من جهة أخرى، ثمّ حثّتهما على الرّقص، بطريقة مرحة، وأمّي لا تكفّ عن الضّحك، هي وفلّة، التي همست في أذنها:

- ما بها زوجة أبي؟ منذ أن بدأ الاحتفال، لم تجلس على الكرسيّ أبدًا، لقد فضحتنا.

فقالت لها أمّي:

- انظري لزوجة خال أبيكِ هناك، كيف تنظر لها، وهي مشمئزّة.

فنظرت فلّة في الاتّجاه، الذي تجلس فيه زوجة خال أبي، ثمّ قالت:

- معكِ حقّ، لا أعلم كيف قبِل أبي بالزّواج بها! فهي في كلّ مرّة تثبت بأنّها سوقيّة، ومتخلّفة.

ظلّت زوجة أبي ترقص، غير مكترثة بما يقال عنها، من طرف المعارف، وخاصّة النّساء، اللّواتي رُحن يتغامزن عليها.. ظلّ الشّباب يرقصون، على هذا

الحال، وكانت جهينة من بينهم، والتي لم تكترث لأحد، إلّا خالد، الذي كان يقف، في الجهة المقابلة لها، ممّا جعل صديقه يهمس في أذنه (قائلًا):

- تلك الفتاة لم تبعد عينيها، من عليك، منذ أن بدأنا نرقص.

فنظر خالد لجهينة، وابتسم لها، وعاد ليهمس في أذن صديقه:

- ألا تعرف كيف تسكت أبدًا؟ يا لك من فضولي.

فضحك صديقه، وعاد لينسجم مع باقي الشّباب، الذين راحوا يغنّون مع المغنّي، ممّا جعلهم يرفعون أصواتهم، لشدّة حماسهم.. بينما ظلّت أمّ هاني تلوّح بكلتا يديها، فشعرت جنّات بالخجل الشّديد، من تصرّفاتها، واقتربت منها، وأمسكت بذراعها، محاولة إعادتها لمكانها، ولكنّ أمّها لم ترضَ، إلّا أن تواصل حركاتها البهلوانية تلك، وهنا طلب هاني من وردة بأن يذهبا، كي يجلسا في مكانهما مجدّدًا، متحجّجًا بشعوره بالصّداع.. وفي هذه الأثناء عاد الشّباب ليرقصوا، في مجموعات متفرّقة، وذلك بعد أن اجتمعوا في حلقة واحدة.

وبعد مرور ساعة، قامت جهينة، وأختها لتغادرا للبيت، وفي طريقهما من باب القاعة، الذي يفضي لساحة، توصل للباب الخارجي للفندق، التقت بخالد، فسألها:

- أبهذه السّرعة تغادران؟ والاحتفال لم ينتهِ بعد؟

- بصراحة كان بِودّنا أن نبقى.. ولكن علينا العودة باكرًا.

كانت أخت جهينة في هذه الأثناء منشغلة، بإيقاف أيّ سيّارة أجرة تمرّ من أمامها، وفي كلّ مرّة تفشل في ذلك، فنظر خالد لأخت جهينة، وعاد ليسأل هذه الأخيرة:

- إن شئتما أوصلكما.

فشعرت جهينة بالخجل، وقالت:
- ولكنّنا لا نريد أن نتعبك.. بصراحة.
- لا.. لن تتعباني.
- ولكن..
وقبل أن تنهيَ جهينة كلامها، قاطعتها أختها، وقالت لخالد:
- سنذهب معك.
فنظرت لها جهينة باستغراب، وهنا قالت لها أختها:
- لستُ مستعدّة لأن أقضيَ اللّيل بأكمله، وأنا أنتظر سيّارة أجرة.
فابتسم خالد لكلامها، ثمّ قال لجهينة:
- معها حقّ، ففي هذا الوقت من اللّيل، قلّما تجدين سيّارة أجرة فارغة.
وطلب منهما بأن تذهبا معه، إلى حيث يركن سيّارته.. داخل القاعة كان الصّخب لا يزال على أوجه، فالشّباب ما زالوا يرقصون، أمّا رجال الأعمال فقد كانوا يتحدّثون عن صفقاتهم، ونجاحاتهم، وعلى الصّعيد الآخر أخذ بعض المدعوّين على عاتقهم، التقاط صورٍ للذّكرى مع هاني، وخطيبته، ومنهم أمّي، وفلّة.. وبعدها قالت لهما أمّي:
- أتمنّى لكما التّوفيق، في حياتكما.
فقال لها هاني (ممتنًّا):
- شكرًا لك يا خالة.
فسألته وردة، بعد ذهاب أمّي (قائلة):
- أهذه هي زوجة أبيك، التي حدّثتني عنها؟
- أجل.. إنّها هي.

- زوجة أبيك جميلة.. من الواضح بأنّها من عائلة راقية.
- أجل.. بالإضافة لأنّها طيّبة جدًّا، وحنونة معنا، تمامًا كأولادها، بالرّغم من كلّ ما فعلته معها أمّي.
فنظرت له وردة مستغربة، ثمّ قالت:
- وماذا فعلت لها أمّك؟
- هاه؟ انسي الموضوع.
ثمّ أخذ قطعة من الكعك، وناولها لها (قائلًا):
- تذوّقي هذه.
- ولكنّني لا أريد أن أفسد مكياجي.
- هذه القطعة فقط.

***

توقّف خالد عند بيت جهينة، التي شكرته، هي وأختها، ثمّ نزلتا، وقبل أن تدخلا للبيت، نادى خالد لها، فالتفتت نحوه، وهنا قال:
- إن احتجتِ لشيء، فلا تتردّدي في المجيء إليّ، فنحن زملاء، أليس كذلك؟
- سأفعل.. والآن تصبح على خير.
- تصبحين على خير.
ثمّ واصلت طريقها، هي وأختها، التي همست في أذنها (قائلة):
- إنّه شابٌّ وسيم، يا لكِ من محظوظة.
فابتسمت جهينة، التي شعرت بالخجل، وقالت:
- ويحك، اسكتي.. سيسمعنا الآن.

- وأين المشكلة؟ دعيه يسمع كلامي، لعلّه يخلّصنا منك.

فضحكت جهينة، وقالت (بصوتٍ خافت):

- يا لكِ من مجنونة.

***

جلس هشام بغرفته، ينظر لعريضة دعوى الخلع، التي جاء بها المحضر القضائي، قبل قليل، والحقد يعتصر قلبه.. ثمّ أخذ يحدّث نفسه:

- حسنٌ، سأريكم يا آل ابن راضي، سأنتقم منكم.. وخاصّة أنت يا فلّة، وأبوكِ ذاك اللّص.. لن أدعكم تنعمون برغد العيش، بعد الآن.. وهذه آخر فرحة تفرحونها.

ثمّ أمسك سيجارة، وأشعلها، ليعود للحديث مجدّدًا:

- تقيمون الأفراح واللّيالي المِلاح، وترسلون لي هذه الورقة التّافهة، أقسم بأنّي سأحرق قلوبكم، كهذه الورقة تمامًا.

وأشعل النّار في تلك الورقة، بواسطة تلك السّيجارة، التي في يده، ثمّ عاد ليجذب منها نفسًا مرّة أخرى، وهو يتلذّذ بمشاهدة تلك الورقة، التي كانت تحترق أمام ناظريه.

***

بمجرّد أن بزغت خيوط الشّمس، في السّماء، ولوّحت في الأفق، حتّى خرجت سارة من المنزل، متّجهة لمنزل صديقتها، وبمجرّد أن دخلت، وارتاحت قليلًا، حتّى طلبت من صديقتها أن تناديَ لأختها، التي جاءت بعد ذلك، وشرعت في شرح كيفيّة أخذ الدّواء، فقالت:

- خذي هذا القرص، وحين تكونين بمفردكِ تناوليه، وانتظري لساعات، وإن لم يحدث شيء، فعليكِ أن تأتي، لأعطيكِ قرصًا آخرًا، ليكن في علمك، ستدفعين مثل هذا المبلغ، إذا أعطيتكِ القرص الثّاني.

- ولكن هذا كثير.

- قد لا تحتاجين له، فمفعول الدّواء يختلف من فتاة لأخرى، فهناك من تجهض من القُرص الأوّل، وهناك من تحتاج لآخر إضافي، آمل أن تكوني من النّوع الأوّل يا سارة.

- آمل ذلك حقًّا، لأنّه لم يعد لي قدرة، على التّحمّل، فقد تعبتُ نفسيًّا، من هذا الموضوع، وأخاف أن يُكشف أمري.. يا ربّ ساعدني.

فاقتربت صديقتها منها، وربتت على كتفها، وقالت:

- لا تحزني.. تفاءلي.

ثمّ قالت أخت صديقتها:

- ليس لنا إلّا الانتظار، هل أحضرتِ المبلغ، الذي طلبته منك؟

ففتحت سارة حقيبتها، لتخرج المال، وتقدّمه لها (قائلة):

- أشكركِ من أعماق قلبي، فلولاكِ لما عرفتُ كيف أتصرّف.

فأخذت الفتاة المبلغ، ثمّ قالت:

- هذا واجبي، ولو استطعتُ مساعدتكِ أكثر لما تأخّرت، ولكنّكِ تعلمين بأنّنا نحصل على الدّواء، بطرقٍ غير مباشرة، ولهذا فثمنه غالي، وأنا مجرّد متطوّعة، في هذه العمليّة، ولن أستفيد شيئًا، إلّا أن أرى الابتسامة، على وجهكِ مجدّدًا.

فتنهّدت سارة، ثمّ قالت:

- قبل أن آتي إليك، كنت أحسّ بضيقٍ شديد، لدرجة أنّني قد فكّرتُ في الانتحار.

- صدّقيني، لستِ وحدك، التي تحسّ بهذا الإحساس، فهناك المئات، وربّما آلافُ الفتيات، اللّواتي يعانين مثلك، منذ أن دخلتُ لهذا المجال، وأنا أرى العجب، على كلّ حال، سيزول هذا الشّعور بالتّوتر، بمجرّد أن تنتهي من هذه المشكلة، ولكن عليكِ - في المرّة القادمة - ألّا تثقي في أيّ شخص، فليس كلّ من يقول لكِ كلمة جميلة، يريد لكِ الخير.

- معكِ حقّ.

قالت سارة، قبل أن تستأذن صديقتها، وأختها بالمغادرة، وفي طريقها للمنزل التقت بحسن، فقال لها:

- لما لم نعد نراك يا سارة؟

فحاولت تجاهله، وذلك بأن واصلت المشي، دون أن تقول شيئًا، فقال لها (ساخرًا):

- ألم تباركي لصديقك؟ فقد أقام البارحة احتفالًا عظيمًا، بمناسبة خِطبته لفتاة ثريّة.

فالتفتت سارة خلفها، وبالضّبط إلى حيث يقف، ونظرت له باحتقار، ثمّ عادت لتواصل السّير.. فضحك، وقال:

- كم أنت مسكينة، كنتِ تظنّين أنّ شابًّا كهاني، من علّية القوم، سيأتي ويخطبكِ كساندريلا، تلك الفتاة المسكينة، التي تزوّج منها أمير البلدة، ولكن ها أنتِ ترين الآن، كيف أنّ الأمير قد باعك، واختار فتاة ثريّة، تناسب ومكانته الاجتماعية، أرأيتِ نهاية الطّمع؟

وعاد للضّحك، قبل أن يرحل، ويتوارى عن الأنظار، بينما واصلت سارة طريقها، وكلّها حزنٌ، وأسى على ما آلت إليه حالتها.

***

اتّصلت جنّات بعادل، ولكنّه لم يردّ، فتنهّدت، وقالت:

- والآن.. كيف لي أن أحصلَ على الدّواء؟ لم يبقَ في العلبة إلّا قرصان، آه.. يا إلهي، ما هذه المصيبة، التي أوقعتُ نفسي فيها؟

وعادت لتمسك بهاتفها، بعدما وضعته فوق السّرير، وكتبت رسالة نصيّة لعادل، تخبره فيها بأنّها موافقة، على الزّواج منه.. وما إن رأى هذا الأخير الرّسالة حتّى طار، من الفرح، ثمّ قال:

- أريدك هكذا دائمًا يا عادل، لقد نجحتْ أوّل خطوة، والآن.. لنرى ما سيقدّم لي عدوّكِ يا جنّات، حين يعلم بأنّي نجحتُ في الامتحان؟

وعاد ليقرأ الرّسالة، وهو يُمنّي نفسه بمبلغ، يُسكت به جشعه.

***

عادت نور وزوجها للشّغل، وما إن دخلا للمشفى حتّى انهالت عليهما التّهاني.. وبعدها عاد كلّ واحدٍ لشغله، واتّجهت نور لمكتبها، الذي اشتاقت له كثيرًا، وما إن دخلت حتّى قامت صديقتها رشا، لكي تسلّم عليها، والفرحة لا تسعها، وقالت:

- كيف حالك يا نور؟ لقد اشتقتُ لكِ كثيرًا.

- وأنا أيضًا اشتقتُ لكِ كثيرًا، وللمكتب، والمشفى.

- اجلسي، وارتاحي.. فأنتِ عروس.

فضحكت نور، ثمّ قالت:

- لقد مضى شهر، على العرس يا رشا.

- تظلّ العروس عروسًا، إلى أن تمضي سنة، لتنتقل للمرحلة الثّانية، وهي مرحلة الهمّ، والنّكد، أليس هذا ما تقوله أمّهاتنا؟

ثمّ ضحكت، وقالت:

- أنا أمازحكِ فقط.

فضحكت نور، وقالت:

- أعرفكِ جيّدًا، تحبّين المزاح، حتّى في الأمور الجدّية.

وجلست، لتفتح لها رشا تحقيقًا كعادتها، عن آخر أخبارها، وعن كلّ ما قامت به، في فترة غيابها، إلى أن دخلت عليهما لبنى، وبعد أن سلّمت على نور، وهنّأتها، سألت رشا عن ملفٍّ لمريض، فقامت هذه الأخيرة لتبحث عنه، وحين لم تجده، طلبت منها بأن تتّجه للإدارة، لعلّها تجده هناك.. فخرجت لبنى نحو الإدارة، وهنا قالت نور:

- ما الذي أصابها؟

فقالت لها رشا (بصوتٍ خافت):

- أخبرني أحدهم بأنّها مريضة جدًّا.. كم هي مسكينة، هذه البنت.

فشعرت نور بالأسف حيالها، وقالت:

- شفاها الله.

- آمين.

***

اتّصل عادل بجنّات، بعد الرّسالة التي أرسلتها له، فردّت عليه، والدّنيا لا تسعها من الفرحة، ثمّ قالت (معاتبة):

- أين أنت؟ لِما لم تُجب على مكالماتي؟
- لأنّني لم أعد أطيق الاستغلال.
- الاستغلال؟
- حين تتّصلين من أجل مصلحة، ألا يُعدّ هذا استغلالًا؟ حين أُكنُّ لكِ مشاعر الحبّ، وأفكّر فيكِ كزوجة، في حين أنّ كلّ همّك، هو أن أؤمّن لكِ علبة دواء، ألا يكون هذا استغلالًا؟
فضحكت جنّات، ثمّ قالت:
- فعلًا.. أنت حقًّا مسكينٌ يا عادل.
فغضب عادل، وقال:
- تضحكين، أليس كذلك؟ اضحكي.. هيّا اضحكي.
- ألن تكفّ عن تمثيل دور الضّحيّة؟ من يراك لا يقول بأنّك استفدت، من علاقتنا هذه أبدًا.
- إن كنتِ تقصدين المال، فقد أخبرتكِ - مرارًا - بأنّني سأعيد لك، كلّ ما استلفته منك، فكرامتي فوق كلّ اعتبار.
- ومن أين لك بالمال؟ فما أعرفه هو أنّك معدم.
فتظاهر عادل بالحزن، وقال (معقّبًا على كلامها):
- آه من الأغنياء، كم هم أشرارٌ مثلك، ويحبّون إذلال الفقراء مثلي.. لنا الله نحن الفقراء.
فلم تمسك جنّات نفسها، من الضّحك، وهي تسمع كلامه، الذي لم تصدّقه أصلًا، ثمّ قالت:
- والآن، دعنا من هذا الحديث..

فقاطعها عادل:

- صحيح، لقد أخبرتني سابقًا، بأنّكم تجهّزون لخطبة أخيك، فما الذي حصل، في هذا الموضوع؟

- البارحة أقمنا احتفالًا كبيرًا، حضره كلّ معارف أبي، من رجال المال، والأعمال، كم تمنّيتُ لو كنتَ معنا.

- وماذا عساي أفعل، مع رجال المال، وأنا مجرّد شابٍّ فقير؟

- لا تكن متشائمًا هكذا، فليس كلّ الحضور رجالُ أعمال.

- ومن هي العروس؟ من المؤكّد بأنّها فتاة ثريّة.

- هي من عائلة محترمة، ومثقّفة، ولكنّها ليست ثريّة مثلنا.

سكتت جنّات قليلًا، قبل أن تعود للحديث:

- بصراحة.. هذه الفتاة لا تناسب هاني.

- طبعًا.. وماذا ستقولين غير هذا؟ كلّ الأثرياء أنانيّون، ويحتقرون من هم أقلّ منهم مالًا.

- أنا لم أقصد هذا، ما قصدته هو العكس تمامًا، فهذه الفتاة طيّبة، ومن منبت حسن.. أمّا هاني فهو..

فركّز عادل فجأة في كلامها، ثمّ قال:

- ما به هاني؟

تردّدت جنّات قليلًا، ولكنّ إصرار عادل على معرفة الأمر، جعلها تروي له ما حصل لسارة، التي جاءت لمنزلهم، وترجّت أمّ هاني أن تساعدها، في مشكلتها، وكيف أنّ أمّ هاني قد طردتها.. فقال:

- أهاا.. كلّ هذا يصدر من أخيك!

***

بعدما عمّ الهدوء، ونام الجميع، قام أبي من فراشه، بعد عدّة محاولاتٍ للنّوم، بدون فائدة، واتّجه للشّرفة، أين جلس على الكرسيّ، وراح يفكّر في العمليّات، التي قام بها مؤخّرًا، والتي لم يحدث فيها أيٌّ من الأمور، التي كانت تحدث قبل ذلك، فقال لنفسه:

- يبدو بأنّي كنتُ محقًّا، حين قلتُ لرجالي، بأنّ الجاسوس - الذي ينقل أخبارنا- هو واحدٌ منّا.. فمنذ ذلك الوقت، لم تعد تداهمنا الشّرطة، كما لم نتعرّض لطلقٍ ناري، من مجهولين، كما كان يحدث لنا.

ثمّ أخذ نفسًا من تلك السّيجارة، وعاد ليقول:

- عليّ أن أعرف، من ذا الذي سوّلت له نفسه، التّجسّس عليّ، وحينها سأسلخه، وأعلّقه عند مدخل المستودع، ليكون عبرة للبقيّة.

***

أخذ عادل الهاتف، ليتّصل بالرّجل، الذي كان يتّصل به أحيانًا، وأخبره بكلّ ما قالته له جنّات، عن هاني، وعن علاقته بسارة، وكيف استغلّها، وتركها لتواجه مصيرها، وتحمّل عواقب أخطائها لوحدها، ففرح الرّجل، وقال له:

- جميل.. أريد منك اسم سارة بالكامل، وعنوانها من جنّات.

- حاضر.. هل تأمرني بشيء آخر؟

- لا، شكرًا.. تصبح على خير.

- تصبح على خير.

***

- والآن، عليك التّصرّف يا مروان.. عليك أن تتخلّص من سالم، بأقصى سرعة، قبل أن يصل إليك.

أبعد مروان الغطاء عنه، وقام من فراشه، واتّجه إلى الدّواء، الموضوع فوق الطّاولة، وبعد أن فرغ من تناوله، عاد لفراشه.. وقال:

- إلى متى سأظلّ مختبئًا، مثل اللّصوص هكذا؟ عليّ أن أتخلّص من ذاك الوغد، في أقرب وقت، لكي أعود لحياتي الطّبيعيّة، فمن غير المعقول أن أعيش حياتي كالمجرمين، الفارّين من العدالة.

***

لم تنمْ سارة بسبب الكلام، الذي قاله لها حسن، في الصّباح، كلامه المليء بالشّماتة، الذي أقضّ مضجعها، حتّى صارت كالمجنونة، نظرت لهاتفها، وقرّرت الاتّصال بصديق هاني، الذي أخبرها - المرّة الماضية - عن خطوبته، بزميلة له.. وبعد أن ردّ هذا الأخير، طلبت منه أن يأتي لها، بالمزيد من التّفاصيل، عن خطيبة هاني، مثل اسمها بالكامل، وعنوان بيتها.. فوعدها بأنّه سيتصرّف، وذلك بعد أن ذكّرها بوعدها له، في آخر مرّة، فقالت له:

- حين تأتيني بالمعلومات، سأعطيك المبلغ، الذي وعدتك به.

فقال لها (بعد تفكير):

- أرى بأن نلتقيَ في مكان عام.. فأنا أخشى على نفسي، من هاني، ولا أريد أن نتحدّث في الهاتف، وستكون فرصة لأطمئنّ عليك، وتقدّمي لي المبلغ، الذي وعدتني به.

ففهمت سارة، بأنّه إنّما يريد لقاءها، من أجل المال، فطمأنته مجدّدًا، بأنّها ستعطيه نصيبه، حالما يوافيها بأهمّ المعلومات.

***

لم ينتهِ الكلام بين وردة، وأمّها، وأختها، عن حفلة الخطوبة، وأهمّ ما حدث فيها، لدرجة أنّ أبا وردة قد وبّخهنّ (قائلًا):

- أما زلتنّ تتحدّثن عن الحفلة، وما حصل فيها؟

فقالت له زوجته:

- ولِما أنت منزعج؟

- ما يزعجني هو أنّني مللتُ من سماعكنّ، تتحدّثن في نفس الموضوع، منذ أكثر من يومين.

ثمّ قام، وتركهنّ ليواصلن حديثهنّ، غير مكترثات لما قاله، قالت أخت وردة لهذه الأخيرة:

- هذه أوّل مرّة أراكِ سعيدة فيها، أتمنّى أن تظلّي هكذا دائمًا.

فنظرت وردة لأمّها، وقالت:

- أتسمعين كلامها يا أمّي؟

فقالت أمّها:

- دعكِ منها، وأخبريني..

- عن ماذا؟

- هل رأيتِ كيف كانت عمّتكِ ستموت، حين رأت مدى ثراء عائلة زوجك؟ طبعًا، كانت تعتقد بأنّ ابنها، لا يوجد له مثيل في الدّنيا، ولكن بعد الذي رأته في الحفلة، ستعرف بأنّنا لسنا أقلّ شأنًا منها.

- دعينا منها، فأنا لا أحبُّ أن أسمع سيرتها، أو سيرة ابنها.

عادت أمّ وردة للحديث مرّة أخرى:

- أتعلمين يا وردة؟ أنا خائفةٌ عليكِ من حماتك، فبعد الذي قامت به في الحفلة، صرتُ أخشى أن تضايقك، حين تسكنين معها.

فضحكت أخت وردة، وقالت:

- أرأيتما كيف رقصتْ على جميع الأغاني؟ أنا شابّة.. ولم أستطع إنهاء أغنية واحدة.

فطلبت منها أمّها بأن تخفض صوتها، لكيلا يسمعها أبوها، وقالت:

- معكِ حقٌّ يا ابنتي.. فهي غير محبوبة، من طرف أقرباء أبي هاني، لقد رأيتُ مدى كرههنّ لها، فكُنّ يضحكن، ويتغامزن عليها، كلّما رقصت، أو فعلت أمرًا ما.. يبدو بأنّها ليست سهلة أبدًا.

فقالت وردة:

- لا تخافي عليّ يا أمّي.. سأحاول أن أتجنّبها، قدر الإمكان.

- أتمنّى ذلك يا ابنتي.

في هذه الأثناء نادى أبو وردة، من غرفته، وقال (بتذّمر):

- دعوني أنام.

فوضعت وردة يدها على فمها، وقالت:

- هُشت.. دعوه ينام، وإلّا فسيطردنا خارج المنزل.

فقامت أمّ وردة، وقالت لابنتيها:

- تصبحان على خير إذًا.

***

انتظرت سارة الفرصة الملائمة، لأخذ الدّواء، وذلك بعدما ذهبت أمّها وأختها، لتحضرا عرس بنت جيرانهم، فقامت مسرعة للدّواء، وتناولته وهي تدعو الله، بأن يخلّصها ممّا هي فيه.. ثمّ عادت لفراشها، وأخذت تتضرّع إلى الله، وكلّها أمل، في أن يكون للدّواء مفعولٌ قويّ، من المرّة الأولى، إذْ لا طاقة لها لشراء قرصٍ آخر، سيكلّفها مثلما كلّفها هذا القرص.. وبعد مرور ساعة شعرت بمغصٍ شديد، فقامت على إثره، مسرعة للحمّام، وأغلقت الباب على نفسها بإحكام، خشية أن يعود أخوها للبيت، في أيّ لحظة، إذْ ليس له موعدٌ محدّد، وبعد مدّة فتحت باب الحمّام، وخرجت لتعود للغرفة، وهي

تمسك بطنها، من شدّة الألم، ورغم شعورها بالألم، إلّا أنّ فرحتها بالتّخلّص، ممّا عانته من خوف، بسبب هذا الموضوع، قد فاقت الشّعور بالألم، فراحت تحمد الله، والدّموع تنهمر من عينيها.. ثمّ استلقت على سريرها، وغطّت نفسها.

***

خرجت جنّات من الجامعة، لتجد عادل ينتظرها، غير بعيد، فأسرعت لسيّارته، وهي تلتفت يمينًا، ويسارًا كالعادة، وبعدما ركبت انطلق عادل، بسرعة البرق، متّجهًا للمنزل، الذي أخذها إليه ذات مرّة، وفور وصولهما، وجدت جنّات ثلاثة رجال ينتظرونهما بالدّاخل، وهما الإمام والشّاهدان، اللّذان سيشهدان على زواجهما.

بعد أن طلب الإمام من جنّات، أن تجلس عن يمينه، وعادل عن يساره، عاد ليطلب من جنّات، بأن تردّد الكلام الذي يقوله، وبعد أن فرغ منها، طلب من عادل نفس الشّيء، وبعد أن انتهى، قال لجنّات:

- مباركٌ عليك يا عروس.

ثمّ عاد لينظر لعادل، وقال له:

- مباركٌ عليك يا عريس.

وطلب منهما الإذن بالذّهاب، لأنّ لديه الكثير من العرسان، ينتظرونه، ليعقد قرانهم، وبعد أن خرج لحقه الشّاهديْن، ثمّ عادل، الذي طلب من جنّات بأن تنتظره، لبضع دقائق، ريثما يودّع ضيوفه، وبعدما خرج أغلق الباب، ليقفوا كلّهم أمام باب المنزل، فقال لهم عادل (بصوتٍ خافت):

- أحسنتم.. لقد أدّيتم الدّور، على أكمل وجه.

وأخرج من جيبه مبلغًا، وأعطاه للرّجل، الذي مثّل دور الإمام، وقال له:

- هذا هو المبلغ، الذي اتّفقنا عليه سابقًا، تقتسمونه فيما بينكم.

وبعد ذلك ودّعهم، ليدخل للمنزل مرّة أخرى، ويمضي هؤلاء الثّلاثة، إلى شؤونهم.. وما إن جلس عادل ليتناول القليل من الحلوى، التي كانت موضوعة على المائدة، لأولئك الضّيوف، حتّى رنّ هاتفه، فردّ بعد أن رأى من المتّصل، وبعد أخذٍ وردّ، سأله عن آخر الأخبار، فأخبره بأنّ الأمور تسير على النّحو، الذي خطّط له.

***

كانت نور تسير مع زميلتها رشا، باتّجاه الدّرج، لتصعدا للطّابق الثّاني، وحين وصلتا عند مكتب لبنى، نظرت نور بفضول، ناحية المكتب، أين رأت لبنى، التي حاولت التّشبّث بالكرسي، قبل أن تقع على الأرض، فأسرعت إليها، تاركةً رشا تتكلّم بمفردها، فنظرت هذه الأخيرة باستغراب لمكتب لبنى، قبل أن تسرع هي الأخرى، لتساعد نور في رفعها، من على الأرض.. وما إن أجلستاها حتّى أسرعت رشا، لتأخذ بعض القطن، ثمّ وضعت عليه القليل من الكحول، وقرّبته لأنف لبنى، وما إن استنشقته حتّى عادت لوعيها.. فقالت لها نور:

- هل أنتِ بخير؟

فرفعت لبنى بصرها نحو نور، وعادت لتنظر لرشا، ثمّ وضعت يدها على رأسها، وقالت:

- أنا بخير..

فقالت لها نور:

- بإمكانكِ العودة للبيت، إن كنتِ تشعرين بالتّعب.. وأنا سأتكفّل بإخبار المدير، إن سأل عن سبب غيابك.
- أوه.. لا، لا داعي لهذا.
- حسنٌ.. كما تشائين.. إن احتجتِ لأيّ شيء، فنحن في الخدمة.
فابتسمت لبنى، ثمّ قالت:
- أشكركِ من كلّ قلبي.

***

عادت أمّ سارة، وأختها للمنزل ليلًا، بعدما انتهى العرس، وما إن دخلت أمّ سارة حتّى استغربت، من الهدوء، والظّلام اللّذين يعمّان المكان، فنادت على سارة، ولكن لم تجبها، فتوجّست في نفسها خيفة، واتّجهت على الفور لغرفة ابنتها، ثمّ فتحت الباب، لتطمئنّ عليها، وما إن دخلت حتّى نادت (قائلة):
- سارة.. هل أنتِ بخير؟
فقالت سارة (من تحت الغطاء):
- أجل.
فاقتربت منها أمّها، وجلست على حافّة السّرير، وقالت (مستغربة):
- ولكن.. ليس من عادتكِ أن تنامي، في وقتٍ مبكّر!
فنزعت سارة الغطاء عن رأسها، وقالت لأمّها:
- أحسستُ بمغص.. فغليتُ القليل من الزّنجبيل، ونمت على إثره.
- هل أحضر لكِ شيئًا، لتأكليه؟
- إن أمكنكِ أن تُعدّي لي شرابًا ساخنًا، فلا بأس.

- حسنٌ.

قالت الأمّ، ثمّ قامت، وذهبت لتُحضّر لها ما طلبتْ.

***

- ألو..

قال خالد، فردّت عليه جهينة:

- ألو.. من معي؟

فابتسم خالد، ثمّ قال:

- هذا أنا خالد.

- أوه.. اعذرني، لم أعرفك.

- لا بأس.. كيف حالك؟

- بخير، وأنت كيف حالك؟

- بخير أشكرك، أعرف بأنّ الوقت غير مناسب، ولكنّني أردت أن أطمئنّ عليك، وخصوصًا أنّنا لم نلتق، منذ خطبة أخي هاني.

- ليس هناك أيّ مشكل.. تستطيع أن تتّصل بي، في أيّ وقت تشاء.

بقيَ خالد يتكلّم مع جهينة، لبضع دقائق، قبل أن يسكت، لأنّه لم يجد شيئًا يقوله، وخاصّة أنّها المرّة الأولى، التي يتكلّم فيها معها، فاضطرّ لإنهاء المكالمة، بعد أن أحسّ بالخجل، في الحقيقة لم يكن الوحيد، الذي شعر بالخجل، فجهينة هي الأخرى أحسّت بذلك، فكانت تتلعثم، من حين لآخر، لتسكت حين لا يعود في مقدورها، أن تقول أيّ كلام، ممّا انعكس هذا على خالد، فقرّر في الأخير أن ينهي المكالمة، وذلك بأن قال لها:

- أرى بأنّكِ لستِ على ما يرام، أليس كذلك؟

فسكتت جهينة قليلًا، ثمّ قالت:
- بصراحة، لم أعتد الحديثَ في الهاتف، إلّا مع أقربائي، وأصدقائي.
فضحك خالد، ثمّ قال لها:
- ما رأيكِ لو نلتقي في مكانٍ عام، ووقتها أعدكِ بأنّ لسانكِ سينطلق.
- بصراحة.. حسنٌ.. لا مانع عندي.
- حسنٌ.. أتركُكِ إذًا.. تصبحين على خير.
- تصبح على خير.
أنهى خالد المكالمة، وضبط المنبّه ليوقظه باكرًا، وأغلق الكتاب الذي كان يقرأه، ليعيده لدرج مكتبه.. واتّجه لسريره آخر الأمر.

***

فتحت جنّات حقيبتها، وأخرجت منها علبة الدّواء، التي أعطاها لها عادل، وبقيت تتأمّلها للحظات، وهي تشعر بالسّعادة، قبل أن تفتحها، وتأخذ منها قرصًا، لتتناوله، ثمّ عادت لتغلق العلبة (وهي تقول):
- يا سلام.. ما الذي كان سيحصل لي، لو لم أحصل على هذه العلبة؟ من المؤكّد بأنّني كنت سأفقد عقلي.
وسكتت قليلًا، ثمّ عادت لتحدّث نفسها مجدّدًا، وهي تشعر بالأسى، على نفسها، التي أصبحت رهينة، لهذا الدّواء اللّعين، فقالت:
- أنت السّبب فيما أنا فيه، حسبي الله ونعم الوكيل فيك، أيّها الوغد.
ثمّ سمعت وقع أقدام شخص، يمشي نحو غرفتها، فقامت بسرعة، لتخفي العلبة، بمكان لا يستطيع أن يصل له أحد، وعادت لتستلقيَ على سريرها مجدّدًا، ثمّ غطّت جسمها بالغطاء، وتظاهرت بأنّها نائمة.

***

كان عادل يتفرّج في فيلم رعب، وهو مستلقي على سريره، وبيده كيسُ فشار، يتسلّى به، أثناء مشاهدته للفيلم، ظلّ عادل يحاول السّيطرة على أعصابه، في كلّ مرّة، ولكن دون جدوى، فالفيلم يحتوي على مشاهد مرعبة جدًّا، وما زاد الطّين بلّة هو الظّلام، الذي عمّ أرجاء الغرفة، ممّا ساهم في خوف هذا الأخير، فكان في كلّ مرّة يرى مشهدًا مخيفًا، إلّا ويلتفتُ عن يمينه، وعن يساره، ليتأكّد من أنّ أحدًا لا يراقبه، يريد قتله، كما يفعل القاتل في الفيلم، الذي يتسلّل في الظّلام، ليخرج في وجه الضّحيّة فجأة، ويثير الرّعب فيها، قبل أن يطعنها عدّة طعنات قاتلة.. وهو على هذا الحال، إذْ رنّ هاتفه فجأة، فارتعدت فرائسه مجدّدًا، ثمّ ألقى نظرة خاطفة على هاتفه، قبل أن يكتم صوت التّلفاز، ليردّ على المتّصل:

- سيّدي.. كيف الحال؟

- بخير.. كنت أريد أن أسألك، عن أمرين، أوّلهما: هل أخبرتك جنّات عن اسم سارة بالكامل؟ وثانيهما: متى ستنفّذ ما اتّفقنا عليه؟

- لقد أعطتني بعض المعلومات، عن سارة، ولكن بالنّسبة للاتّفاق، أرى أن تمهلني بعض الوقت، فأنا لم أقتل نملة، في حياتي.

فانزعج الرّجل من كلام عادل، وقال (بصوتٍ مرتفع):

- لم أعطك المال، لتقول هذا الكلام، عليك أن تنفّذ، في أقرب وقت، وإلّا بلّغتُ أبا جنّات، بأنّك قد ضحكتَ عليها، وتزوّجتها في السّر.

فاتّسعت عينا عادل، واصفرّ وجهه، ثمّ قال:

- ولكن.. يا سيّدي..

وقبل أن يكمل كلامه، قطع الرّجل الاتّصال.. فقال عادل:
- يا إلهي.. ما هذا الإنسان؟

***

كانت أمّ سارة في المطبخ، حين دقّ الباب، فقامت لتفتح، وإذْ بها صديقة سارة، تقف خلف الباب، فرحّبت بها، وأدخلتها للصّالون، ثمّ استأذنت منها، لتنادي لسارة، التي كانت بغرفتها، وبعد لحظات جاءت هذه الأخيرة، بخطى متثاقلة، لتسلّم على صديقتها، فقالت لها:

- اعذريني يا سارة، لقد جئتُ باكرًا، لأنّني بحاجة لأن تعيريني، كتّاب الفلسفة الاجتماعية.

فقالت لها سارة:

- اجلسي معنا قليلًا، ثمّ أحضر لكِ الكتّاب.

فقامت أمّ سارة، ثمّ قالت لصديقة ابنتها:

- سأعدّ لكما القهوة.

وما إن خرجت أمّ سارة حتّى استغلّت البنت الفرصة، وهمست في أذن سارة (قائلة):

- هاه؟ أخبريني.. هل من جديد؟
- لقد حصل الأمر.

فأحسّت صديقتها بالفرح، وتنفّست الصّعداء، ثمّ قالت لها:

- وكيف حالكِ الآن؟
- بخير.. أنا اليوم أحسن حالًا.

قالت سارة هذه الجملة ببرود، فردّت عليها صديقتها (معاتبةً إيّاها):

- احمدي الله على أنّه خلّصك، ممّا أنتِ فيه، ولا تفكّري في شيء، من الآن فصاعدًا، إلّا في مستقبلك.. أتفهمين يا سارة؟

فتنّهدت سارة، ثمّ هزّت برأسها، وقالت:

- سأحاول.

***

جلست نور مع أبيها بالصّالون، بعدما أوصلها زوجها، وسلّم على أبيها، ليستأذن منه في الرّحيل، لقضاء بعض المسائل العالقة، على أمل أن يعود بعد ذلك، ظلّت نور تتكلّم مع والدها، فكان يسألها عن حياتها تارة، وعن شغلها تارة، فراحت تسرد عليه، ما عاشته كلّ هذه الأيّام، إلى أن دخلت عليهما زوجة أبيها، التي رحّبت بها، بطريقة أثارت استغرابها، واستغراب والدها، فقد بدت طيّبة، على غير عادتها.

فبعدما سلّمت عليها، جلست إلى جانبها، وراحت تسألها عن حياتها، ونور تجيب على أسئلتها، وتنظر لأبيها، وكأنّها لم تصدّق بعد، ما رأته من حنان، لوهلة ظنّت بأنّها تحلم، ولكنّها أيقنت بأنّها ليست كذلك، وخاصّة حين قالت لها:

- لم يعد للمنزل أيّ قيمة بدونك، لم أكن أعلم بأنّكِ عزيزة عليّ، بهذا الشّكل يا نور.

فابتسمت نور، ولم تدرِ ما الذي يجب عليها قوله، في هذه الحالة، لأنّها - وببساطة - لم تجرّب هذا الشّعور، من قبل، فآثرت الصّمت، آخر الأمر، حين عجز لسانها عن التّعبير، وهنا عادت زوجة أبيها لتواصل:

- لا ألومكِ على صمتك، لأنّي لم أعاملكِ معاملةً حسنةً من قبل، ولكنّي أريد منكِ أن تسامحيني، على كلّ ما بدر منّي.

فشعرت نور بالأسف حيالها، وخاصّة حين بكت، فقالت:

- لا تقولي هذا، فأنا أعتبركِ في مقام أمّي.

أحسّت زوجة أبيها بالسّعادة، وهي تسمع هذا الكلام منها، فقالت:

- أصحيحٌ هذا الكلام يا نور؟

- أجل.. أصلًا لم أعتبركِ غريبة، في يومٍ من الأيّام.

كان أبو نور في هذه الأثناء يراقبهما بصمت، ولم يشأ مقاطعتهما، إلّا حين غلبتهما الدّموع، أين قرّرتا التزام الصّمت.. وهنا قال (مازحًا):

- ألن تحضّرا لنا الغداء؟ أم أنّكما تمثّلان عليّ الحزن، لتتهرّبا من الطّبخ، وآخذكما إلى المطعم آخر الأمر.

فضحكت نور، وقالت:

- أنا سأحضّر لكم الغداء، فقد اشتقتُ للمنزل كثيرًا، واشتقتُ لإعداد الطّعام كالعادة.

***

جلست أمّ وردة مع أمّ هاني، في الصّالون، وبعد أن أفرغت كلّ منهما ما في جعبتها، من مجاملات، وكلمات ترحيبٍ روتينيّة، دخلت وردة مع أختها، وسلّمتا على أمّ هاني، لتجلس وردة بجانب حماتها، بينما آثرت أختها الجلوس، في الجانب المقابل لهما، وبعدما سألت أمّ هاني وردة، وأختها عن أخبارهما، عادت لتتكلّم مع أمّهما، حتّى تعبت هذه الأخيرة من الكلام، أين لزمت الصّمت، واستسلمت أخيرًا، لتترك أمّ هاني تصول لوحدها، أمّ هاني التي

أخذت على عاتقها، مواصلة المعركة بمفردها، حتّى نالت نصيب الأسد، فلم تدع أحدًا تعرفه، إلّا وشمّته، أمام مرأى، ومسمع أمّ وردة، وابنتيها، ثمّ انتقلت بعد ذلك، لاستفزاز وردة، وذلك بأن قالت لها بأنّ ابنها معشوق البنات، وأنّهنّ تلاحقنه، ليتزوّج بهنّ، فنظرت وردة لأختها، التي غمزتها، ثمّ ابتسمت.. وعادت لتنظر لأمّها، التي بدا عليها الانزعاج، من كلام أمّ هاني، وتفاخرها بابنها، دون مراعاة شعورها، أو شعور ابنتها وردة.

بعدما تعبت أمّ هاني من الكلام، ولم تجد بُدًّا منه، خاصّة حين وجدت بأنّ أمّ وردة، وبناتها لم يجادلنها، في حديثها هذا، قامت بعدما استأذنت بالذّهاب، لتغادر.. وبعدما أغلقت وردة الباب، عادت لتجلس مع أختها، وأمّها، فقالت لها أختها (وهي تضحك):

- عليكِ أن تستعدّي لما ينتظرك، فحماتكِ مجنونة مئة بالمئة.

فقاطعتها أمّها (قائلة):

- ليست مجنونة، بل قليلة أدب.

ثمّ التفتت لوردة، وقالت:

- لم أرَ في حياتي إنسانةً مستفزّة مثلها، والله لولا أنّي أعرف ما يعنيه لكِ ابنها، لطردتها من بيتي.

فتنهّدت وردة.. وقالت:

- آاه.. يبدو بأنّ هناك أيّامًا جميلة، تنتظرني معها.

***

كان عادل جالسًا في سيّارته، ممسكًا سيجارة، كي يُمضي بها الوقت، ريثما يخرج خالد، من المحلّ، وما إن خرج، وركب سيّارته، حتّى رمى عادل

السّيجارة، وشغّل سيّارته مجدّدًا، وانطلق خلفه، يترقّبه أنّى ذهب، تمامًا كظلّه، وهو على هذا الحال، إذْ رنّ هاتفه فجأة، فردّ بعدما رأى من المتّصل.. وبعدما سأله هذا الأخير، قال له عادل:

- أجل سيّدي، لقد بدأتُ اليوم في تنفيذ، ما طلبته منّي، وهأنذا أراقب كلّ تحرّكاته.

- لا تتأخّر عليّ.. أريد أن أسمع خبرًا سارًّا، خلال هذه الأيّام، أتفهم؟

- لن تمرّ أيّامٌ إلّا وستسمع فيها، ما يسعدك، كُن على ثقة من هذا.

قال عادل للرّجل، قبل أن ينهيَ المكالمة، ليواصل مراقبته لخالد.

***

بأحد الفنادق أقام أحد كبار رجال الأعمال سهرة، ودعا إليها أهمّ رجال الأعمال في البلد، ومن بينهم أبي، الذي جلس مع معارفه، من الأثرياء، ليتناقشوا حول أهمّ الصّفقات، والأعمال، وغيرها من الأمور التي تهمّهم، ولكنّ نقاشهم لم يمنعهم من الضّحك حينًا، والمزاح حينًا، وخاصّة حين قال أحد أولئك الأثرياء للباقي:

- أرى بأنّ السّهرات قد كثرت، هذه الأيّام؟

فردّ عليه أبي (مازحًا):

- معك حقّ، ففي هذا الوقت من السّنة تكثر الولائم، والسّهرات، لدرجة أنّني قد سمّيتُ هذا الموسم بموسم الأفراح.

وضحك.. ليصيب الجالسين بالعدوى، فانتقل الضّحك إليهم جميعًا، رغم أنّ بعضهم لم يضحكوا، إلّا ليجاملوه، وآخرون لم يسمعوا كلامه أصلًا، ومع ذلك اضطرّوا لأن يضحكوا، لكيلا يبدو منظرهم مستهجنًا، عند البقيّة.. بعد

أن امتلأت القاعة عن آخرها، دخل المغنّي، ليلقيَ على أولئك المدعوّين بعضًا من أغانيه، وتلته الرّاقصة، التي عرّف بها المقدّم، وطلب من الحضور التّصفيق لها، ليرحّبوا بها، لأنّها جديدة.

***

بعد أن غطّت نريمان في النّوم، رأت نفس الحلم، الذي اعتادت أن تراه كلّ مرّة، والذي تتغيّر بعض تفاصيله، في كلّ مرّة.. فبدأت بالصّراخ على إثره، أين قامت من فراشها، وخرجت من غرفتها، متّجهة للدّرج دون أن تشعر، وقبل أن تنزل، خرجت أمّي تجري، من غرفتها نحوها، وأمسكتها من ذراعها، لتعيدها لغرفتها مرّة أخرى، بينما بقيت هي تصرخ:

- دعيني.. قلتُ لكِ دعيني أذهب، فسُهيل يناديني.

ولكنّ أمّي لم تستسلم، بل ظلّت تحاول معها، إلى أن أتتها فلّة مسرعة، بعد أن سمعت صراخها، وقامت بمساعدتها، على إعادتها لسريرها، ثمّ قالت لأمّي بعد ذلك:

- يجب أن ينام بجانبها أحدنا، فمن غير المعقول أن نتركها تنام وحدها، وهي في هذه الحالة.

- حسنٌ.. سأنام أنا معها.. أمّا أنتِ فعليكِ العودة للأولاد.

***

بعد أن شرعت الرّاقصة في الرّقص، انهالت عليها الأوراق النّقديّة، من بعض المعجبين، الذين كانوا يرسلون تلك النّقود، مع المقدّم، والذي يقوم بإعطائها لها، بعد أن يشير بيده للشّخص، الذي قدّم لها المال، فتُحيّيه هي

بيدها، ثمّ تعود لتنشغل بالرّقص.. ظلّت على هذه الحالة، إلى أن قام أحد الأثرياء، والذي كان يجلس بجانب أبي، وأخرج من جيبه أوراقًا نقديّة، ثمّ نادى عليها، لتأتيَ ويمطرها بتلك الأوراق، أين أسرعت إليه، فبدأ برمْي الأوراق على رأسها، وهو يضحك بصوتٍ عال، ويحمل في يده الأخرى كأسًا، من الخمر، كانت الرّاقصة في هذه الأثناء ترقص، وهي تنظر لأبي، وتبتسم له، ممّا جعله يقوم هو الأخر، لكي يخرج ما في جيبه من مال، ثمّ اقترب منها، وشرع في رمي تلك الأوراق، التي كانت تتطاير، عن يمينها، وعن يسارها.. ثمّ عاد ليجلس في مكانه، بينما بقيت هي تحوم حوله.. ولم تبعد عينيها من عليه.

***

بعدما أنهت وردة كلّ كلامها، عن التّحضير للعرس، وعمّا فعلته حماتها أثناء الخِطبة، وبعد زيارتها لهم، قالت لها جهينة:

- عليكِ بالصّبر، فالحياة لا تهبنا كلّ شيء، حاولي التّصرّف بحكمة، مع حماتك، وسترين كيف ستتغيّر معك.

فتنهّدت وردة، وقالت:

- آمل ذلك يا جهينة.

سكتت جهينة قليلًا، ثمّ قالت:

- كنت أريد أن أخبركِ شيئًا.. ولكنّني أشعر بالخجل.

- أتخجلين منّي يا جهينة؟

- بصراحة.. كنت أريد أن أخبرك، بأنّني أتكلّم مع خالد..

وقبل أن تكمل كلامها، قاطعتها وردة:

- أنتِ تمزحين؟
- أوه.. لا.. لست أمزح.
فضحكت وردة، وقالت:
- ومتى حدث هذا؟
- في يوم خطبتكِ قام خالد بإيصالنا، لأنّنا لم نجد أيّ سيّارة، ومن يومها ونحن نكلّم بعضنا، في الهاتف.
فقالت وردة (معاتبة):
- ولِما لم تخبريني بهذا الخبر الجميل؟
- لقد كنتِ في إجازة.
- آه صحيح، نسيتُ بأنّي عدت للشّغل اليوم فقط، أتعلمين يا جهينة؟
- ماذا؟
سألت جهينة باهتمام، فأجابتها وردة:
- أنا سعيدة جدًّا من أجلك، وسعيدة أكثر لأنّنا سنتزوّج الإخوة، وبهذا سنكون أقارب.
فضحكت جهينة، وقالت:
- أتعلمين؟ لقد نسيت تمامًا بأنّ خالد، يكون أخًا لهاني، ثمّ من قال لكِ بأنّ موضوعنا سينتهي بالزّواج؟
- ولِما تتكلّمين معه في الهاتف؟ إن كنتِ لا تريدين أن تتزوّجي به؟
- لا أتكلّم عن نفسي، بل أقصد خالد، من قال لكِ بأنّه ينوي الزّواج؟
- لا أظنّه من النّوع الذي يمضي وقته، في التّفاهات، فهو جادّ، وخلوق.
- آمل ذلك.

***

بعدما دخلت جنّات برفقة عادل لمنزلهما، الذي خصّصاه للاختفاء عن أعين الناس، طلب عادل منها أن تأتي معه، للغرفة المجاورة لغرفة النّوم، ليريها المفاجأة التي أعدّها، وما إن دخلت حتّى رأت مختلف أصناف الأكل، موضوعة على المائدة، بالإضافة لقارورة الخمر، وغير بعيد عن تلك المائدة، وُضعت الشّيشة.. فقالت:

- ما هذا كلّه؟

- أتذكُرين حين كنّا نذهب، لنسهر في الملاهي؟ ها قد حضّرتُ لكِ جوًّا جميلًا، وبدلًا من الذّهاب للملاهي، سنمضي أجمل وقت هنا.

ثمّ مشى نحو التّلفاز، ليشغّله، وعاد للحديث مرّة أخرى:

- وسنشاهد هذا الفيلم، الذي اخترته لكِ بنفسي.

وطلب منها الجلوس، فجلست، وهي لا تزال مستغربة.. قالت:

- بصراحة لا يمكنني شُرب الخمر، لا أريد التّأخّر عن موعد العودة.

- دعينا نتناول هذا الأكل، وبعدها سنرى ماذا سنفعل بهذه القارورة.

مرّت بضع لحظات، كان عادل فيها كفارس مغوار، أو حرب شعواء، لا تُبقي، ولا تذر، فقد التهم كمّيّةً كبيرة، من الطّعام في دقائق، اكتفت جنّات خلالها بمراقبته، وهو يأكل بشراهة، ويصرخ بعدها، حين يتأثّر بمشهد، ثمّ ما يلبث أن يعود لِيلتهم، ما يمكنه التهامه، إلى أن أحسّ بغصّة في حلقه، جرّاء التهامه للطّعام دون مضغ، فأسرعت جنّات، لتملأ له الكوب، الذي أمامها بالماء، ثمّ ناولته إيّاه، وقالت:

- على رسلك، فالأكل لن يهرب، ثمّ ما هذا الفيلم الذي وضعته، لنتفرّج عليه؟ أما كان في إمكانك أن تختار فيلمًا رومنسيًّا مثلًا؟

شرب عادل الماء، وبعدما شعر بتحسّن عاد ليأكل، وكأنّ شيئًا لم يكن، فعادت جنّات لتقول له:

- أين أنت؟ ألم تسمع ما قلت؟ ثمّ ما هذا الفيلم المرعب، الذي اخترته لي؟ أتريد أن تقتلني؟ أمن أجل هذا أحضرتني، إلى هنا؟

فضحك عادل، وقال:

- يا لكِ من جبانة، من قال لكِ بأنّي أحبّ الأفلام الرّومنسية التّافهة؟

- الأفلام الرّومنسية تافهة؟ لذلك فأنت معدوم الإحساس تمامًا.

فعاد عادل للضّحك، ثمّ صبّ الخمر في كأس، وما إن انتهى منه حتّى أخذ الكأس الثّاني، فقالت له جنّات:

- لقد قلتُ لك، لا أريد أن أشرب الخمر.

فأعاد الكأس لمكانه، وسحب نفسًا من تلك الشّيشة، التي بيده، ونظر لجنّات بعد ذلك، وقال:

- خذي هذه.. لا أعتقد بأنّكِ ستمتنعين، عن هذه أيضًا!

فأخذت جنّات رشفة من الشّيشة، وأعادتها لعادل، الذي كان مركّزًا في الفيلم، وبعد أن انتهى من ذاك المشهد المخيف، عاد ليسألها:

- صحيح، ما أخبار أخيكِ هاني؟

- بخير..

- كنت أريد أن أسألك.. هل لديكِ أخٌ اسمه خالد؟

فنظرت له جنّات مستغربة، وقالت:

- أجل.. ولكن لما تسأل؟

- لا.. ولكنّي التقيتُ به، حين كنتُ برفقة صديقي، الذي عرّفني عليه.

وسكت قليلاً، قبل أن يعود للحديث:

- ولكن لِما لم تخبريني بأنّ لكِ إخوة، غير هاني؟

فقالت جنّات (بتذمّر):

- تلك قصّة طويلة، لا أريد الخوض فيها الآن.

فتظاهر عادل باللّامبالاة، وعاد ليسألها عن سارة صديقة هاني:

- ألم تعد صديقة هاني القديمة لتضايقه؟ صحيح، ماذا كان اسمها؟

***

أُغمي على لبنى مجدّدًا، ولكن هذه المرّة كانت أقوى من سابقتها، ممّا استدعى نقلها، للعناية المركّزة، وسط حزنٍ من طرف العاملين بالمشفى، من أطبّاء لممرّضين لإداريّين، كلّهم قد حزنوا لمصابها، لأنّها محبوبة، وخلوقة جدًّا.. كنتُ في هذه الأثناء جالسًا، في مكتبي، لكي أطّلع على بعض الملفّات، أين جاء الدّكتور سمير، الذي كلّف نفسه عناء إبلاغي بالخبر، لأنّه على دراية بإعجابها بي، وما إن أعلمني حتّى قمتُ مسرعًا، لأطمئنّ عليها.

***

ظلّت سارة واقفةً عند المبنى، الذي تسكن فيه وردة، وبعد مدّة رأت سيّارة هاني، تقترب من المبنى، فاختبأت وراء واحدة من الأشجار، المتراصّة على الرّصيف، وانتظرت حتّى نزلت وردة من السّيّارة، واقتربت من المبنى، وما إن أوشكت على الدّخول حتّى نادتها:

- وردة.

فالتفتت وردة للخلف، فوجدت فتاة لا تعرفها، تقف قريبة منها، وتنظر لها، فاستغربت من السّبب، الذي جعلها تناديها، وهي لم ترها قطّ، وما زاد استغرابها، هو أنّها نادتها باسمها.. فاقتربت منها، وقالت:

- هل تعرفينني؟

- أنا سارة.. صديقة هاني السّابقة.

فاتّسعت عينا وردة، ونظرت لسارة باستغراب، وحيرة، ثمّ قالت:

- وماذا تريدين؟

- جئتُ لأحذّركِ من هاني، فهو..

وقبل أن تكمل كلامها قاطعتها:

- إن كان هذا ما جئتِ تقولينه، فأرجو أن تحتفظي بنصيحتكِ لنفسك.

ثمّ أدارت وجهها للخلف، متّجهة نحو المبنى، فقالت لها سارة:

- وهل أخبركِ بأنّني كنت حاملًا منه؟

فالتفتت وردة مرّة أخرى، ثمّ قالت:

- ماذا؟ ما الذي تقولينه؟

- كما سمعتِ.. هاني إنسانٌ انتهازي، ولا يفكّر إلّا في نفسه، أنا أعرفه أكثر منك، بمجرّد أن يجد فتاة أجمل منك، فسيرميكِ مثلي.. ليركض إليها.

وما إن قالت سارة هذا الكلام حتّى التفتت، إلى الخلف، ثمّ رحلت، تاركة وردة واقفة في مكانها، غير مصدّقة بأنّ هاني الذي أحبّته انتهازي، وغدّار، فبالرّغم من كلّ ما سمعته عنه، ولكن أن يستغلّ بنتًا باسم الحبّ، ويرحل لأخرى، هو أمرٌ مرفوض، بالنّسبة لفتاة كوردة.

مشت وردة، بعدما بقيت واقفة، في مكانها للحظات، لتصعد الدّرج، وهي تفكّر في كلام سارة، ولا تفكّر في شيء سواه.

***

دخلتُ للغرفة، التي وُضعت فيها لبنى، وأنا غير مصدّقٍ ما حصل لها، فرغم معرفتي بمرضها، إلّا أنّني كنت مستبعدًا فكرة الموت، لا لشيء، سوى لتعاطفي معها، هذا التّعاطف الذي جعل عقلي يرفض فكرة موتها، وهي شابّة في مقتبل العمر، ومفعمة بالحيويّة، والنّشاط.

لم أتقبّل فكرة موت لبنى، بالرّغم من كوني طبيبًا، ورغم أنّي قد أجريتُ عمليّات عديدة، والتي فشل بعضها، ورأيتُ الموت خلالها يُداهم شبابًا، وأطفالًا، فيأخذهم بدون استئذان، ليتركهم جثثًا هامدة، بلا روح، هذا الموت الذي رأيته، في هذا المشفى مرارًا، لم أتقبّل رؤيته هذه المرّة، لأنّ لبنى ليست مجرّد مريضة، جاءت إلينا، ونحن لا نملك معرفة مسبقة عنها، فإن ماتت أمام أعيننا، فالحزن سيكون من نصيب أهلها، لأنّهم هم الذين عاشروها، ولهم معها ذكريات، بعدد تلك السّنين، التي عاشتها معهم.

لقد أدركتُ الآن، قيمة أن يفقد المرءُ شخصًا قريبًا منه، قد يكون جاره، أو صديقه، أو زميله، أو قريبه، أدركتُ الآن مدى الحزن، الذي يحيط بأهل الميّت، كم هو موجع، وقاسي، رغم أنّني قد جرّبته، حين مات جدّي، ولحقت به جدّتي، ولكن أن يموت المرءُ بمرضٍ خبيث، يأكل جسده شيئًا فشيئًا، حتّى يتمكّن منه، ليردِيه ميتًا، بعد أن كان في كامل صحّته، فهو أمر صعب، وخاصّة حين يكون الميّت في مقتبل العمر، أو طفلًا صغيرًا، لم يدرك معنى الحياة بعد.

بعدما دخلت، اقتربتُ من لبنى، التي كانت غائبةً عن الوعي، وسحبتُ كرسيًّا، ووضعته بجانب سريرها، وجلستُ أتأمّلها، كانت نائمة فقط، أو هكذا خُيّل إليّ، فما أشبه النّوم بالموت، دخلت نور في هذه الأثناء، لتراني جالسًا، أترقّب في صمت، وحزن، فاقتربتْ منّي، وقالت لي (وهي تنظر إلى لبنى):

- أخبروني بأنّه قد أغمي عليها مجدّدًا، ولكن لم أتوقّع بأن تدخل للعناية المركّزة.

فأجبتُها (ببرود):

- هذه نتيجةٌ حتميّة، لشخص مصابٍ بالسّرطان يا نور.

- ماذا قلت؟ أتعني بأنّ لبنى مصابة..

ثمّ سكتتْ فجأة، من هول الصّدمة، فأومأتُ برأسي، وقُلت:

- أجل..

بعد أن غادرت نور مع زوجها، الذي جاء ليطلّ على لبنى، هو الآخر، بقيتُ أنا جالسًا في مكاني، لأنّني وببساطة وجدتُ نفسي مجبرًا، على البقاء مع لبنى، وألّا أتركها بمفردها، ربّما هو إحساسي بالذّنب اتّجاهها، هو الذي جعلني أبقى، فقد خذلتُها، كما خذلتُ نور قبلها، وخذلتُ آخرين غيرها، كزوجتي التي تزوّجتُها دون إرادةٍ منّي، فقضيتُ بهذا على نفسي، وعليها.. بقيتُ جالسًا في مكاني، إلى أن بدأ الهدوء يعمّ أرجاء المشفى، وظلام اللّيل يحلُّ محلّ نور الصّباح، فشعرتُ بالنّعاس الشّديد، وغفوتُ بدون شعورٍ منّي، لأرى لبنى في المنام، أين قالت لي:

- ألن تذهب للبيت؟

- كيف أذهب، وأترككِ بمفردك؟

فابتسمت، ثمّ قالت:

- لن أبقى بمفردي.. فقريبًا سأرتاح ممّا أنا فيه.

ثمّ ذهبتْ، وتركتني.. فقلت لها:

- إلى أين أنتِ ذاهبة يا لبنى؟

ولكنّها مشت، دون أن تجيب عن سؤالي، فشعرتُ بالضّيق من تصرّفها هذا، وفجأة ناداني أحد من خلفي، بعدما وضع يده على كتفي، وربت عليّ بحنان، ثمّ قال:

- دكتور حامد.. استيقظ.

ففتحتُ عينيَّ، لأجد أمّ لبنى تقف خلفي، قبل أن تتّجه لابنتها، لتلقيَ نظرة عليها، وقد بدت متأثّرة، وحزينة على الحالة، التي وصلت لها.

***

- ما بها أختك؟ منذ أن عادت، وهي لا تكلّم أحدًا!

قالت أمّ وردة لابنتها، فردّت عليها هذه الأخيرة:

- أنا أيضًا لاحظتُ بأنّها ليست على ما يرام، فحين عادت طلبتُ منها أن تعيرني هاتفها، لأكلّم صديقتي، فرفضتْ، وطردتني، ثمّ أغلقت الباب، على نفسها بإحكام.

- ولِما لم تخبريني بذلك؟

- لم أرَ لهذا ضرورة، فقد ظننتها ستظلّ على هذا الحال لساعة، كأقصى تقدير، ثمّ تأتي لتتحدّث معي كعادتها.

أحسّت أمّ وردة بالقلق، حيال ابنتها، فوضعت الصّحن فوق المائدة، وذهبت لتكلّمها، أين دقّت عليها الباب، فلم تفتح لها، وهنا قالت أمّها، من وراء الباب:

- وردة.. هل أنتِ بخير؟

فتنهّدت وردة، وقالت:

- أنا نائمة.. ولا أريد أن أكلّم أحدًا.

- ألن تأتي، لتتعشّيْ معنا؟

- لا..

عادت أمّ وردة للمطبخ (وهي تكلّم نفسها):

- ما بها هذه البنت؟ ليس من عادتها أن تغلق الباب، على نفسها، آمل ألّا يكون قد حدث بينها، وبين خطيبها شيء.

فقالت لها ابنتها، بعد أن سمعتها (وهي تكلّم نفسها):

- منذ أن تعرّفتْ على خطيبها، لم تعد وردة التي نعرفها، لقد أصبحت عصبيّة، وكئيبة في الآن نفسه.

رنّ هاتف وردة في هذه الأثناء، فأبعدت الغطاء عنها، ونظرت لهاتفها، فوجدته هاني، فأنهت الاتّصال، وبعد لحظاتٍ عاد هاتفها ليرنّ مجدّدًا، فأغلقته، ثمّ قالت:

- فلتذهب إلى الجحيم، أيّها المخادع.

***

حمل عادل هاتفه، كي يتّصل بذاك الرّجل المجهول، كما يفعل في كلّ مرّة، يكتشف فيها شيئًا جديدًا، وحين ردّ عليه، قال عادل:

- كنت أريد أن أخبرك ببعض المعلومات، التي أخبرتني بها جنّات، عن سارة.. صديقة هاني، وعن عائلتها، وأخيها.

- أنا أسمعك.. هاتِ ما عندك.

قال الرّجل بحماس، ليخبره عادل بكلّ ما عرفه، عن سارة، وعن أخيها ذي السّوابق العدليّة، المعروف بمشاكله، مع أهل الحيّ، لدرجة أنّه لُقّب بالسّفّاح، لكثرة دخوله للسّجن، وتراوده على الأوكار، التي يكثر تعاطي المخدّرات فيها، ولاحتياله على النّاس، وسرقتهم..

***

كان أبي جالسًا بغرفته، في إحدى الفيلّات التي يملكها، والتي يذهب إليها، من حين لآخر، وخاصّة إذا كان مسافرًا لمدينة أخرى، أو حين يضجر من أمّي، وضرّتها، هذه الفيلّات التي لا يعرف عددها أحدٌ سواه، حتّى نحن لا نعرف عنها شيئًا.

وبعدما أمسك الجريدة كعادته، ليتصفّح أهمّ العناوين، دخلت عليه تلك الرّاقصة، التي التقى بها، في آخر سهرة، قضاها مع كبار رجال الأعمال، بأحد الفنادق الفخمة، وحين رآها ابتسم، وقال لها:

- ألم تنامي بعد؟

فجلست بجانبه، ثمّ قالت:

- كلّا.. ليس بعد.

وهنا عاد أبي لينشغل بتصفّح الجريدة، فقالت له:

- هل هذه الفيلّا لك؟

فضحك، وقال:

- أجل.. هل أعجبتك؟

- أجل.. إنّها رائعة.

ثمّ سكتت قليلًا، قبل أن تعود للكلام:

- بصراحة.. لم أكن أتوقّع بأنّك غنيّ، لهذه الدّرجة.

فضحك أبي مرّة أخرى، ثمّ حمل كأس الخمر، وقال:

- لم تريْ شيئًا بعد، كلّ ما رأيته ما هو إلّا نزرٌ قليل، ممّا أملك.

- وما الذي تملكه أيضًا؟

- وهل جئنا إلى هنا لكي أحدّثك، عمّا أملك؟

قال أبي، فضحكت الرّاقصة، ثمّ قالت:

- معك حقّ.

***

عادت أخت وردة لتحاول معها، بعدما عجزت أمّها في إقناعها، بفتح الباب، والمجيء لتناول العشاء، فدقّت الباب مجدّدًا، وهنا قامت وردة، لتفتح لها، وما إن فعلت حتّى قالت أختها:

- أخيرًا؟

عادت وردة لفراشها، دون أن تقول كلمة، فدنت منها أختها، وجلست بجانبها، ثمّ سألتها (قائلة):

- ما الذي أصابك؟ أفعلنا لكِ شيئًا، يستدعي هذا الغضب كلّه؟

فنظرت لها وردة، ثمّ تأفّفت، وقالت:

- دعيني الآن وشأني، لقد طلبتم أن أفتح لكم الباب، لتطمئنّوا عليّ، وها قد فعلتُ ذلك، والآن بإمكانكِ أن تذهبي، بعد أن اطمأنّ قلبك.

- لن أذهب.. حتّى تخبريني ما بك.

لم تردّ وردة على أختها، لتنشغل بهاتفها، الذي عادت لتفتحه مجدّدًا، وأخذت تتصفّح وسائل التّواصل كعادتها، وفي هذه الأثناء رنّ هاتفها مرّة أخرى، فتأفّفت.. وقالت (مخاطبة الهاتف):

- ألا تفهم أبدًا.

فنظرت أختها للهاتف، ثمّ قالت:

- لا تقولي لي بأنّ المتّصل هو هاني؟

فسكتت، ولم تجبها، وهنا تأكّدت من صحّة كلامها، فقالت:

- أتعلمين؟ كنت متأكّدة تمامًا بأنّ هاني هو السّبب، فيما أنتِ فيه الآن، فمنذ أن تعرّفتِ عليه، ومزاجكِ من سيّءٍ لأسوأ.

فتنهّدت وردة، ثمّ قالت:

- معكِ حقّ.. يبدو بأنّني قد تسرّعت، في موضوع الخطبة هذا.

ظلّ هاني يحاول الاتّصال بها، ولكن دون جدوى، فقرّر أن يبعث لها رسالة، وبعد أن فرغ من كتابتها بعثها لها، ثمّ وضع هاتفه، وقام للحمّام، وهو مستغربٌ من تصرّفها.. وما إن خرج حتّى رنّ هاتفه، ففتحه، ليجد بأنّها قد أرسلت له رسالة، في المسنجر، وما إن قرأها حتّى تغيّر لونه، واتّسعت عيناه، من هول الصّدمة، فوردة قد طلبت منه بأن يبتعد عنها، فهي لا تريد أن تراه مجدّدًا، وهنا عاد ليتّصل بها، لكنّها لم تجبه، فجلس على سريره، وهو غير مستوعبٍ ما يحصل له، ثمّ قال:

- ولكن ما بها هذه؟ في الصّباح فقط كانت على ما يرام، ما الذي حصل لها، حتّى أرسلت لي هذه الرّسالة؟

***

لم ينم هاني طول اللّيل، بسبب التّفكير في رسالة وردة، وبمجرّد أن طلع النّهار قام من فراشه.. ونزل للطّابق الأرضي، وما إن رأته أمّه حتّى قالت له (مستغربة):

- أراك قد استيقظتَ باكرًا، على غير العادة.

فواصل طريقه، دون أن يجيبها، فاستغربت من تصرّفه، وقالت:

- ألن تفطر يا هاني؟

في هذه الأثناء كان هاني قد خرج، من المنزل، متّجهًا لسيّارته، بينما بقيتْ أمّه تحدّث نفسها:

- ولكن ما به هذا الولد؟ غادر دون أن يفطر، أو يتفوّه بكلمة.

***

خرجتُ من المشفى، بعدما أحسستُ بالتّعب الشّديد، وبعدما وصلتُ للبيت صعدتُ لغرفتي، ودخلت للحمّام لأستحم، ثمّ نزلت للمطبخ، أين وجدتُ أمّي، التي كلّفت نفسها عناء إعداد الفطور، فجلستُ لأتناوله، وبعد أن فرغتُ منه، قالت لي:

- تبدو جائعًا؟

فأخبرتها بأنّني لم أذق لقمة، منذ البارحة، فرمقتني باستغراب، وقالت:

- لماذا؟

- لم يكن لي رغبة، في الأكل.

ولزمتُ الصّمتَ للحظات، قبل أن أضيف:

- عليّ أن أعود للمستشفى الآن.

- ولكن.. أليس اليوم هو يوم إجازة يا حامد؟
- بلى.. ولكن..
فقالت أمّي (متسائلة):
- ولكن ماذا؟
- أتذكرين تلك الدّكتورة، التي حكيتُ لكِ عنها؟
فنظرتْ لي مستغربة، وهنا قلتُ لها:
- الدّكتورة لبنى.
- آه.. تذكّرتها.. ما بها؟
- لقد أدخلوها البارحة للعناية المركّزة، وهي الآن بين الحياة، والموت.
فتأسّفتْ لسماع هذا الخبر، وقالت:
- أوه.. يا إلهي، ولكن ماذا وقع لها، ليدخلوها للعناية المركّزة؟
- مريضة بالسّرطان.
- يا إلهي.. كم هي مسكينة هذه الفتاة.
***
بعد أن دخل العمّال للشّركة، قام هاني من مكتبه، واتّجه لمكتب وردة، وحين دخل لم يجدها، فالتفت لجهينة، وقال لها:
- كيف حالك يا جهينة؟
- بخير.. وأنت؟
- أنا بخير.. ماذا كنت أريد أن أقول لك؟ أوه.. أجل، ألم تأتِ وردة؟
- لا.. إنّها غائبة.

وضع هاني يده على رأسه، ثمّ خرج، وما إن اجتاز الباب حتّى عاد، ليسألها مرّة أخرى:

- ألا تعلمين لماذا غابت؟

- بصراحة.. لا.

- حسنٌ، شكرًا.

وخرج مرّة أخرى، ولكنّه لم يعد لمكتبه، بل قرّر الذّهاب لمنزل وردة، ليفهم منها سبب تصرّفها هذا.

***

بدأت نور بتحضير الغداء، فوضعت الخُضر بالسّلّة، وسحبت الكرسيّ، وبعد أن جلست قشّرت تلك الخُضر، ثمّ حملتها مجدّدًا، لتضعها تحت الحنفيّة، ثمّ تركتها تقطر جيّدًا، واتّجهت لإبريق الشّاي، وصبّت القليل منه في فنجان، وعادت لتجلس مرّة أخرى، وبالها مشغول بموضوع لبنى، فمنذ أن عادت، وهي لا تفكّر في موضوع سواه، وبعدما احتست القليل من الشّاي، قالت لنفسها:

- الآن فهمتُ سرّ اهتمام حامد بلبنى.. كم أنتِ مسكينة.

رنّ هاتفها في هذه الأثناء، فألقت نظرة، لتجد رقمًا غير مسجّل عندها، فردّت على المتّصل، لتكتشف بأنّه مخطئ، فخجل الرّجل، واعتذر منها (قائلًا):

- أنا آسفٌ جدًّا.. لقد أخطأتُ في الرّقم.

عادت نور لتحتسيَ الشّاي مجدّدًا، بعدما أنهت المكالمة.. كما عادت لتحدّث نفسها مرّة أخرى:

- يا إلهي.. كم كنتُ قاسية عليها، وعلى حامد أيضًا.

ثمّ وضعت الفنجان على المائدة، وقامت لتعدّ الغداء، فحملت الخُضر، لتقطّعها لقطع صغيرة، ووضعتها في القدر، مع الماء، والتّوابل، والملح، ثمّ حملته لتضعه فوق النّار، وخرجت من المطبخ آخر الأمر.

***

كان أخو سارة جالسًا في المقهى، مع رفاقه، أين اتّصل به رقم مجهول، فردّ عليه (قائلًا):

- ألو..

وهنا قال المتّصل بدون مقدّمات:

- لقد اتّصلتُ بك، لكي أخبرك ببعض الأمور، التي يجب أن تعرفها، عن أختك سارة، أليست أختك؟

فقال أخو سارة (بتوتّر):

- أجل.. ولكن ما الذي تعرفه عنها؟

- لقد كانت على علاقة بشاب، اسمه هاني ابن راضي، الذي ضحك عليها، وأوهمها بأنّه يحبّها، وحين حملت منه تركها، وخطب فتاة ثريّة..

فقام أخو سارة من مكانه، ثمّ قال:

- ماذا تقول؟ لا.. هذا مستحيل.. أنت تكذب.

- اسأل أختك، وحينها لن تستطيع إنكار الأمر.

ثمّ أنهى المتّصل المكالمة، ليترك أخا سارة يكلّم نفسه، معتقدًا بأنّ هذا الأخير لا يزال على الخطّ، فقال:

- لو عرفتُ بأنّك تكذب، فكُن على ثقة، بأنّني لن أرحمك.. ألو..

***

- ألم أطلب منك بأن تبتعد عنّي، وتتركني وشأني؟

قالت وردة بغضب لهاني، الذي نظر لأمّها، وقال لها:

- ألن تفهموني الأمر على الأقلّ؟ لأقتنع بضرورة الابتعاد عنك.

فقالت أمّ وردة:

- وأنا مثلك.. لا أعرف شيئًا، فمنذ أن عادت من الشّغل البارحة، وهي على هذا الحال.

فقال هاني (بيأس):

- قولي لي السّبب، وأعدكِ بأن أتركك وشأنك، بعد أن أعرف.

- ما علاقتك بسارة؟

فتأفّف عند سماع سيرة سارة، ثمّ قال:

- أيعقل بأنّ كلّ هذا الغضب، من أجل تلك التّافهة؟

- سألتك سؤالًا فأجبني.. ما علاقتك بسارة؟

- أأ.. أ.. لقد أخبرتكِ سابقًا، بأنّني كنت على علاقة بها، كأيّ شابٍّ في هذه الدّنيا، يرافق فتاة، ثمّ انتهت علاقتنا، بعد أن تعرّفتُ عليك.

- ولِما لم تخبرني بموضوع الحمل؟

فاتّسعت عينا هاني، وشعر بالتّوتر، بينما نظرت أمّها لها، وقالت:

- عن أيّ حملٍ تتحدّثين؟

فالتفتت وردة لأمّها، وقالت:

- هذا المحترم الذي يجلس إلى جانبك، كان على علاقة بفتاة، اسمها سارة، ثمّ تركها، بالرّغم من معرفته بحملها!

- إنّها كذّابة، ولم تؤلّف هذه القصّة، إلّا حين عرفتْ بأنّي قد خطبتك.
وهنا فقدت وردة السّيطرة على نفسها، وصرخت فيه (قائلة):
- ألن تتوقّف عن الكذب أبدًا؟ أتعتقد بأنّ بنات النّاس لعبة، في يدك؟
ثمّ قامت من مكانها، ونظرت لأمّها، وقالت:
- لا تنسيْ بأن تغلقي الباب، بعد أن يخرج.
والتفتتْ لهاني، أين رمقته باحتقار، لتواصل بعدها سيرها لغرفتها، تاركة إيّاه في موقف، لا يُحسد عليه، هذا الأخير الذي لم يتحمّل إهانتها له، فقام من مكانه، متّجهًا إلى الباب، وخرج دون أن يقول كلمة، لأمّ وردة التي شعرت بالخجل، من تصرّف ابنتها.

***

حين عُدتُ للمشفى، اتّجهتُ مباشرة لغرفة لبنى، لأجدها كما تركتُها، وأجد سمير يقف بجانب أمّها، وأختها، محاولًا مواساتهما، في الحقيقة لم يكن بمفرده، في الغرفة، فمعظم الأطبّاء، والممرّضين قد أخذوا على عاتقهم السّهر لخدمتها، فكانوا يزورونها، كلّما سنحت لهم الفرصة، بل حتّى المدير هو الآخر، قد بدا عليه التّأثّر، فكان لا يستطيع كفّ دموعه، كلّما دخل، ليراها في هذه الحالة، دنوتُ من أمّ لبنى، وسمير، ثمّ قلت لهذا الأخير:
- هل من جديد؟
فأومأ لي برأسه، وقال:
- لا.. حالتها كما هي.
فالتفتُّ لأمّ لبنى، وقلتُ لها:
- بإمكانكِ أن تذهبي، لترتاحي.. وأنا سأبقى هنا معها.

فقالت محاولة السّيطرة على دموعها، التي تغلبها في كلّ مرّة:
- لا يهنأ بالي، إلّا حين أبقى معها.

***

لم يستطع هاني العودة للبيت، بعد الكلام، الذي سمعه من وردة، فظلّ يجوب الشّوارع كالمجنون، حتّى رأى مقهى على يمينه، فأوقف سيّارته، وتوجّه إليه، ليشرب فنجانًا من القهوة، وحين انتهى منه، عاد ليطلب فنجانًا آخرًا، وبقي على هذا الحال، إلى أن غربت الشّمس، فقرّر العودة للبيت، وما إن دخل حتّى جاءت أمّه، لتحدّثه في موضوع، فصرخ فيها:

- أرجوك يا أمّي.. اتركيني وشأني.

فنظرت له مستغربة، ثمّ قالت:

- ما بك؟ لِما ترفع صوتك عليّ، بهذا الشّكل؟

فلم يعرها أيّ اهتمام، وصعد لغرفته، دون أن يقول حرفًا، وقد سيطر عليه الغضب، واليأس في نفس الوقت، وهنا أدركت أمّه بأنّ الموضوع خطير، فقرّرت أن تتبعه، لتعرف ماذا حصل، وما إن صعدت ودخلت لغرفته، حتّى وجدته مستلقيًا، وبيده سيجارة، فاقتربت منه، وقالت:

- ما بك يا هاني؟ أراك على غير عادتك، هل من خطب؟

فتأفّف، وعاد ليأخذَ نفسًا آخرًا، من تلك السّيجارة، فعادت لتسأله:

- ألا تريد أن تخبر أمّك؟ أمّك التي تأتي لتحدّثك، أنت الأوّل، حين يقع لها أيّ مشكل، حتّى لو كان بسيطًا.

فنظر لأمّه، وقال (بتأثّر):

- تلك الحقيرة ذهبت لوردة، وأخبرتها بأنّها حاملٌ منّي، ووردة أرسلت لي رسالة، مفادها أنّها لا تنوي الزّواج منّي، وحين ذهبتُ لأفهم منها السّبب، طردتني من بيتهم، على مرأى، ومسمع من أمّها.
- فلتذهب للجحيم، هي وأمّها، غدًا سأخطِب لك فتاة، أجمل وأغنى منها ألف مرّة.

***

دخل أخو سارة للمطبخ، لكي يحمل سكّينًا، وفي هذه الأثناء رنّ هاتف سارة، فأسرعت لترى من، وإذْ بها تتفاجأ، حين رأت بأنه هاني، فوضعت الهاتف جانبًا، وقالت لنفسها:
- من المؤكّد بأنّه قد تشاجر مع خطيبته، ولهذا اتّصل بي، كي يشتمني، فعلًا إنّه من أحقر خلق الله، بعد كلّ ما سبّبه لي.. ولا زالت لديه الجرأة، ليتّصل بي؟

وهي على هذا الحال، وإذْ بأخيها يفتح باب غرفتها، فالتفتتْ، لتتفاجأ به واقفًا أمامها، قبل أن يركض نحوها، حاملًا سكّينًا في يده، ليمسكها من شعرها، ويسحبها مع الأرض، وقال:
- أصحيحٌ ما سمعت؟ أصحيحٌ بأنّكِ على علاقةٍ بشاب، اسمه هاني؟ انطقي.. أيّتها العاهرة.

لم تتمالك سارة نفسها، فبدأت بالصّراخ، والعويل، لتستيقظ أمّها على إثره، وأسرعت إليها، لترى ما بها، ولحقت بها ابنتها، وما إن دخلت الأمّ للغرفة، ورأت ابنها، وهو يمسك بأخته، ويحمل في يده سكّينًا، حتّى أسرعت نحوه،

وترجّته أن يترك ما في يده، لكنّه لم يعرها أيّ اهتمام، وعاد ليصرخ - مرّة أخرى - في أخته:

- هيّا.. تكلّمي.. هل هذا الكلام صحيح؟ هل أنتِ حاملٌ منه؟

فقالت أمّه:

- ماذا؟ ماذا تقول؟ سارة حامل؟

فقالت سارة:

- هذا الكلام غير صحيح، من قال لك هذا؟

- أنتِ تكذبين.. قولي الحقيقة، وإلّا قتلتكِ بيديَّ هاتين.

في هذه الأثناء ترجّته أمّه، لكي يعدل عن تصرّفه، ولكن دون جدوى، فالشّابُّ كان قد فقد الأمل، في أن يفتكّ اعترافًا من أخته، وهنا أمسكها من ذراعها، وعاد ليصرخ فيها، فما كان منها إلّا أن تنفيَ الأمر، ما جعله يفقد أعصابه، فضربها حتّى أغمي عليها، ووقعت، ليصطدم رأسها بحافّة السّرير، ما جعلها تسقط أرضًا، فصاحت أمّها:

- ويلي.. ابنتي..

ثمّ جثت على ركبتيها، لترى ما حلّ بها، بينما عاد ابنها للوراء، من هول الصّدمة.. فقد ظنّ لوهلة بأنّ البنت قد ماتت، من جرّاء الارتطام، وخاصّة حين رأى الدّم، في يد أمّه، التي أمسكت برأسها، محاولةً إيقاظها، دون جدوى، فعادت للصّراخ مرّة أخرى:

- لقد قتلتَها.. لقد ماتت سارة.. ابنتي ماتت.

وما إن سمع الشّابُّ أمّه، تتلفّظ بهذا الكلام، حتّى هرب، بينما بقيتْ أخته الصّغرى متخشّبة، في مكانها، قبل أن تصرخ هي الأخرى.

***

بعد أن ضاق هاني بالأمر ذرعًا، وقتله التّفكير، في موضوع وردة، حمل نفسه، ليذهب لأحد الملاهي، والذي تعوّد أن يسهر فيه، رفقة شلّته، وما إن دخل حتّى لوّح له صديقه، وقال:

- هاني.. نحن هنا.

فالتفت هاني ناحية الصّوت، وما إن رآه حتّى سار، ليجلس معه، وما إن فعل حتّى قال له صديقه:

- أعرّفك بالشّلّة، هذا مراد، وذاك سمير، أمّا هذه فرويدة، والأخير عادل.

وما إن رأى عادل حتّى تغيّر لونه، وتوتّر، ولكنّه سيطر على نفسه، وقال (بعد أن رسم ابتسامة مزيّفة، على وجهه):

- أهلًا..

وعاد لينظر لصديقه مرّة أخرى، محاولًا تجاهل عادل قدر الإمكان، وهو ما فعله هذا الأخير، فقد حاول هو الآخر تجاهل هاني، وتحاشيه، وذلك بأن قام ليرقص مع رويدة.

***

ظلّت الرّاقصة - التي تعرّف عليها أبي - تنظر في المرآة، للقلادة التي وضعتها حول رقبتها، والتي أهداها لها أبي، وبقيت على هذا الحال، حتّى رنّ هاتفها، فحملته، وردّت (قائلة):

- ألو..

فقال المتّصل:

- هاه؟ أخبريني.. هل اصطدتِ الحوت يا جيهان؟

فضحكت جيهان بصوتٍ عالٍ، وقالت (وهي لا تزال تنظر للقلادة):
- وإن قلتُ لك نعم، فما هي الهديّة، التي ستهديني إيّاها؟
فقال الرّجل بعد أن أحسّ بالفرح، لسماعه هذا الخبر:
- طلباتكِ أوامر.. ولكن بعد أن تكملي المهمّة، التي من أجلها اصطدنا هذا الحوت.
فقالت (وهي تمسك بالقلادة، لتتفحّص مدى جودتها):
- حسنٌ.. سنرى ما الذي يمكن أن تقدّمه لي.

***

بعد أن فرّ أخو سارة، أسرعت أخته الصّغرى، لتستنجد بالجيران، الذين كلّفوا أنفسهم عناء نقل سارة للمشفى، أين تمّ إدخالها للعناية المركّزة، نظراً لخطورة حالتها الصّحية.. كانت أمّها لا تزال تحت تأثير الصّدمة، غير مستوعبة بعد ما وقع لابنتها، ولا السّبب الذي جعل أخاها يهجم عليها بوحشيّة، كلّ ما استطاعت فعله هو الصّراخ، فكانت بمجرّد أن يخرج ممرّض، أو طبيب من غرفة العناية، إلّا وتسأله عن حالة ابنتها، ولكنّه لا يجيبها، بل يمضي مسرعًا، لوجهة أخرى، وهو ما زاد من قلقها، وخوفها، فجعلت تقول:
- لقد قتلها أخوها، أخوها هو من دفعها.

***

بعدما شرب هاني من الخمر، ما يكفي، خرج يتمايل، متّجهًا لسيّارته، التي استطاع أن يشغّلها بالكاد، وما إن سار قليلًا حتّى أحسّ أنّ الأرض تتحرّك، وما زاد الطّين بلّة، هو تلك الرّغبة المُلحّة، التي باغتته، لإرجاع كلّ ما شربه، ممّا جعله يفقد السّيطرة على نفسه، فارتطم بسيّارة، كان صاحبها يجري بأقصى

سرعته، ضاربًا سلامة المارّة عرض الحائط، ومن حسن حظّ الاثنين، أنّ سيّارة الشّرطة كانت قريبة، من مكان الحادث، ممّا عجّل في مجيء سيّارة الإسعاف، ليُنقلا على جناح السّرعة.

***

ذهبت نور كي تطلّ على لبنى، فوجدتها قد استفاقت، وعادت لوعيها، فاقتربت منها، وقالت لها:

- كيف حالك يا لبنى؟

فنظرت لبنى لنور، وبقيت على هذا الحال للحظات، ثمّ قالت بصوتٍ خافت، يدلّ على مدى إحساسها بالتّعب، والإجهاد:

- أنا بخير..

في هذه الأثناء سحبت نور الكرسيّ، لتضعه بمحاذاة لبنى، وجلست.. فقالت لها هذه الأخيرة:

- جئتِ في الوقت المناسب.

فاستغربت نور، ثمّ قالت (متسائلة):

- لماذا؟

- كنت أريد أن أحدّثك، بخصوص الدّكتور حامد..

جاء في هذه الأثناء حازم، بعد أن عرف بأنّ نور قد ذهبت، لتزور لبنى، فقرّر أن يزورها، هو أيضًا، ويتحدّث مع نور، وبمجرّد أن اقترب من باب الغرفة حتّى سمع لبنى، وهي تحكي لنور عنّي، فآثر البقاء وراء الباب، ليسمع كلّ ما تقوله.

- الدّكتور حامد لا يحبّ، امرأة غيرك يا نور، وحتّى وإن حاول أن يخفيَ مشاعره، عن النّاس، إلّا أنّه يفقد السّيطرة على نفسه، من حين لآخر، وهذا ما لمسته، وأحسستُ به، منذ أن تمّ تعيينكِ هنا..

وما إن سمع حازم هذا الكلام، من لبنى، حتّى تراجع، بشكلٍ لا إراديّ للوراء، وانتفخ وجهه، وتغيّر لونه للأحمر، من فرط الغضب، قبل أن يقرّر الانسحاب أخيرًا، أين عاد أدراجه..

- انسيْ الموضوع يا لبنى.. فأنا متزوّجة الآن.. والكلام الذي تحدّثين فيه، قد مضى عليه وقتٌ طويل.

قالت نور للبنى، وسكتت قليلًا، قبل أن تستأنف الحديث:

- كنت أريد أن أطلب منك، بأن تسامحيني، عن كلّ ما بدر منّي، في الأيّام الماضية، فأنا لم أكن أعرفكِ حقّ المعرفة.. أنا آسفةٌ حقًّا.

اكتفت لبنى بالابتسامة، ولم تضف عليها شيئًا، ممّا جعل نور تشعر بالرّضا، عن نفسها أخيرًا، فمنذ أن علمت بمرضها، وهي تحمّل نفسها ذنب، كلّ ما وقع لها.

***

- كيف حالك يا وردة؟

قالت جهينة من داخل المكتب، لتطمئنّ على صديقتها وردة، فردّت عليها هذه الأخيرة (بحزن، وبرود في نفس الوقت):

- أنا بخير..

- اتّصلتُ لأطمئنّ عليك، حين علمتُ بأنّكِ قد غبتِ اليوم أيضًا.

- فيكِ الخير يا جهينة.. لقد أصبتُ بنزلة برد، لا أكثر.

- أوه.. كنت أعتقد بأنّكِ قد تغيّبت، من أجل هاني.

فاستغربت وردة، حين سمعت كلمة هاني، ظنًّا منها بأنّ هذا الأخير قد حكى لجهينة، عن المشكل، الذي حدث بينهما، ثمّ قالت:

- لماذا؟ هل قال لكِ شيئًا؟

- لا.. ولكن يبدو بأنّكِ لم تعلمي بعد، بأنّه يرقد في المشفى.

فقامت وردة من مكانها، وقالت:

- ماذا؟ ماذا قلت؟

- كما قلت لك، لقد أخذوه للمشفى البارحة، إثر اصطدامه بسيّارة.

***

كان أبي يتكلّم مع الطّبيب، ليطمئنّ على هاني، الذي كان ممدّدًا، على السّرير، وأمّه بجواره، حين وصلت وردة، ووالداها، وما إن رأوا أبي حتّى أسرعوا نحوه، لتسأله وردة عن هاني، فهدّأها (قائلًا):

- إنّه بخير، لا تقلقوا، مجرّد كسر في رجله اليمين، وبعض الرّضوض.

فتنفّست وردة الصّعداء، لتتبع هي ووالداها أبي، الذي قادهم للغرفة، التي يرقد فيها هاني، وما إن رأى هذا الأخير وردة حتّى كاد يقوم، على رجل واحدة، فأمسكته أمّه من ذراعه، لتعيده للوضعية، التي كان عليها، وطلبت منه بأن يرتاح، لكيلا يؤذيَ رجله المكسورة، وهي ترمق وردة، وأهلها بحقد، وغلّ، فاقتربت وردة منه، وقالت (بتأثّر):

- حمدًا لله على سلامتك.

فابتسم هاني، وردّ عليها:

- أشكركم على مجيئكم.

فقالت أمّ وردة:

- وكيف حالك الآن؟

- بخير.. أنا..

وقبل أن يكمل هاني كلامه، قاطعته أمّه (قائلة):

- لقد أمره الطّبيب بالابتعاد عن أيّ شيء، من شأنه أن يغضبه، وخاصّة أنّ هذا الحادث قد وقع، من جرّاء حزنه، على ما فعلته ابنتكم..

وقبل أن تضيف، قاطعها أبي (قائلًا):

- المهمّ أنّه بخير الآن.. وإن كان هناك سوء تفاهم، بين الاثنين..

ثمّ نظر لوردة، وهاني، وعاد ليقول:

- سنحلّه في الحال، أليس كذلك يا أبا وردة؟

فابتسم أبو وردة، وقال:

- بلى.

لتبتسم أمّ وردة بعده، محاوِلة إخفاء شعورها بالإحراج، لما وقع لهاني، بسبب ابنتها، بينما بقيت أمّ هاني عابسة، إلى أن قال لها أبي:

- أليس كذلك يا أمّ هاني؟

فقالت (بصوتٍ خافت، لتتفادى غضبه):

- كما ترى.

***

عادت لبنى لتدخل في غيبوبة مجدّدًا، وربّما تكون الأخيرة، هكذا قال أحد الأطبّاء، قال بأنّها تحتضر، وسط ذهول الجميع، فالأغلبيّة لم يعرفوا عن مرضها شيئًا، ولم يسمعوا بأنّها مريضة، قبل أن تدخل للعناية.

بعد هذا الكلام، سادت حالة من الحزن، فتفرّق الجميع، عدا أمّ لبنى، التي لم تستطع حبس دموعها، أو كتم صوت الألم، الذي يخرج حارًّا، من أنفاسها، تلك الأنفاس التي تترقّب - بخوف - الدّقائق القادمة، وما تحمله من معاناة، وأسى لهذه الأمّ المكلومة.

***

بعدما خرج هاني من المشفى، عاد لينعم بالرّاحة، والدّلال، فالجميع قد تجنّد لخدمته، والسّهر على تنفيذ طلباته.. جلس أبي بجانبه، بعدما تمدّد على السّرير، ليريح ساقه المكسورة.. وقال له:

- عليك أن تكون أكثر حرصًا يا هاني.

فقال هاني (بعد أن أحسّ بالخجل من أبي):

- معك حقّ.. سأحاول أن أتصرّف بحرص أكثر.

فعاد ليشدّد عليه مرّة أخرى، وذلك بأن قال:

- لا أريد أن أقول هذا الكلام مجدّدًا، فنحن رجال الأعمال مراقبون، من الجميع، وكلّ الأعين علينا، وكما تعرف بأنّ لنا أعداءً كُثرًا، يتربّصون بنا، هنا وهناك، وأوّل ضحيّة يفكّر فيها أولئك الحاقدون، لينتقموا منّا، هو أنتم - أولاد رجال الأعمال- أتفهم؟

فتنهّد هاني، وقال:

- أمرك.. من اليوم فصاعدًا لن أسبّب لكم، المزيد من الخوف، والقلق.

فربت أبي بيده على ذراع هاني، ثمّ ابتسم، وقال:

- أعرف بأنّك تستطيع أن تفعل هذا، إن شئت أن تساعد أباك، وتزيل عنه عبء التّفكير، فيما يمكن أن يحصل لك.

***

بعد أن انشغل الجميع بهاني، استغلّت جنّات الفرصة، لتتّصل بعادل، الذي استغرب اتّصالها، بهذا الوقت المتأخّر، وذلك بعدما نظر لساعته، التي وجدها تشير إلى التّاسعة ليلًا، فقال لها:

- ومن أين جاءتكِ الجرأة لتتّصلي بي، في هذا الوقت؟ وخاصّة أنّ أخاكِ قد كلّف نفسه عناء حراستك، ومراقبتكِ تمامًا كالجنديّ.

فضحكت جنّات، وقالت له:

- إلّا اليوم.. فقد اصطدم البارحة بسيّارة، ليُنقل للمشفى، وهو الآن يرقد في غرفته، وحوله الجميع، يسهرون على خدمته، فكيف تريد منه أن يراقبني؟ وقد أمره الأطبّاء بأن يبقى ممدّدًا، على السّرير.

- أوه.. يؤسفني أن أسمع هذا الخبر.. شفاه الله.

قال عادل هذا الكلام، محاولًا إظهار تأثّره، فسألته جنّات:

- من المؤكّد بأنّك في الشّارع، أليس كذلك؟

فقال، وهو يجلس بسيّارته، ليراقب خالد، الذي دخل للمحلّ:

- أوه، هذا صحيح.. لقد التقيتُ بصديقٍ قديم، وأخذنا الحديث، حتّى مضى الوقت، كما ترين.

في هذه الأثناء خرج خالد، وصديقه من المحلّ، ليتّجها لسيّارته، فقال عادل لجنّات:

- اسمعي، سأكلّمكِ لاحقًا.. يجب أن أوصل صديقي لمنزله.

وبعدها شغّل سيّارته بسرعة، لينطلق خلف سيّارة خالد.

***

بعد أن ألقى أبي محاضرة، يوصي فيها هاني بالحذر، عاد إلى غرفته، ليجهّز نفسه، وخرج، أين ركب سيّارته، ثمّ أمر الحارس بأن يتّجه، لبيت الرّاقصة، التي خرجت، بمجرّد أن كلّمها في الهاتف، وبعدها طلب من السّائق بأن يتّجه، لإحدى الفيلّات، التي يقام فيها الآن حفل، لأحد أشهر رجال الأعمال في البلد، ثمّ التفت للرّاقصة، وقال لها:

- سآخذكِ الآن في جولة، لن تنسيها أبدًا، حفلٌ يجمع أهمّ رجال البلد.

فابتسمت، ثمّ قالت:

- أرى بأنّكم تحتفلون بكثرة، ولكن ما السّبب الذي يجعل رجال الأعمال يتناوبون، على إقامة الحفلات، ليصرفوا كلّ هذه المبالغ الطّائلة؟

فضحك أبي لسؤالها هذا، ثمّ قال:

- ألم أقل لك، بأنّكِ تصلحين لإدارة الأعمال، أكثر من الرّقص؟

ثمّ أمسك سيجارته، وبعد أن أخذ منها نفسًا، عاد ليواصل حديثه:

- هذه الحفلات إنّما تقام لأسباب، لا يعرفها إلّا رجال الأعمال، وليست كما يرى العامّة من النّاس أمثالك، ففي الوقت الذي يرى معظم النّاس، بأنّ هذه الحفلات يُصرف عليها أموال طائلة، بغرض التّفاخر، يراها رجال الأعمال ضروريّة، للتّرويج لمشاريعهم، وللتّعريف بأنفسهم في السّوق، ولعقد الصّفقات في هذه الحفلات، عملًا بالمثل الذي يقول: رُبّ صدفةٍ خير من ألف ميعاد.. أفهمتِ الآن؟

- ومنكم نستفيد.

فعاد أبي للضّحك مرّة أخرى، قبل أن تضحك هي الأخرى.

***

بعدما بقيت أمّ لبنى مع هذه الأخيرة، لتلحق بها ابنتها، وبعد أن أخبرني الدّكتور سمير، بما قاله الطّبيب، أسرعتُ لأراها، قبل أن تغادر عالمنا، ولحق بي سمير، وما إن دخلت حتّى وجدتُها غائبة، عن الوعي.. فنظرتُ لها مطوّلًا، وفي هذه الأثناء اقتربت منّي أمّها، وقالت:

- أصحيحٌ بأنّ لبنى ستموت؟

فالتفتُّ نحوها، بعد أن حاولتُ ضبط نفسي، ثمّ قلت:

- لا تقولي هذا.. ستعود لبنى لتنير حياتك.

لا أعرفُ لِما قلت لها هكذا، بالرّغم من تأكّدي التّام، بأنّه لن يحدث، ولكنّني لم أشأ تصديق فكرة موت لبنى بعد.. فتحتْ هذه الأخيرة عينيها، في هذه الأثناء، فدنت منها أمّها، وأختها، أمّا أنا فقد بقيتُ في مكاني، ثمّ سحبتْ نفسًا عميقًا، ورفعتْ بصرها إلى السّقف، لتتّسع عيناها فجأة، وبعد مرور ثوانٍ أغلقتهما، وقد ارتخى جسمها، فصرخت أختها:

- لبنى.. استيقظي، أرجوك..

ولكن دون جدوى، فلبنى كانت قد فارقت الحياة.. في هذه الأثناء اقترب الدّكتور سمير منها، ونظر لجهاز التّخطيط، أين استقامت تلك الخطوط أخيرًا، لتذوب كلّها في خطٍّ واحد، وصدر صوتٌ غير متقطّع بعدها، وهنا تأكّد من وفاتها، فقام برفع الغطاء، ليغطّيَ وجهها بأكمله، فلم أتمالك نفسي، أين عدتُ دون شعورٍ منّي للوراء، وأنا لا أكاد أقوى على الوقوف، ومن أين لي أن أقف، وأنا أسمع صراخ أمّ لبنى، وأختها، الذي ملأ المشفى.. دخل في هذه الأثناء بعض الأطبّاء، والممرّضين، وحاولوا إخراج أخت لبنى، وأمّها، بعد أن انهارت هذه الأخيرة، من هول الصّدمة، بينما بقيتُ أنا بالقرب

منها، لا أعرف إن كان عليّ الخروج، أم البقاء، فاقترب منّي الدّكتور سمير، وربت على كتفي، وقال:
- البقاء لله.
وأمسكني من ذراعي، ليأخذني معه، أو بمعنى أصح جرّني معه جرًّا، ثمّ أطفأ النّور، وأغلق الباب.. وعاد ليمسكني من يدي، وقال:
- هيّا يا حامد.. فوقوفك هنا لن يغيّر شيئًا.

***

توجّه أبي مع تلك الرّاقصة للفيلّا، التي اعتاد أن يلتقيَ معها فيها، بعد أن أنهيا الحفلة، وبعدما جلسا قليلًا، توجّه أبي للمطبخ، وفتح الثّلّاجة، ليشرب القليل من الماء البارد، وجلس بعد أن فتح هاتفه، ثمّ أخذ يراقب الرّاقصة، من الكاميرا الموجودة بالغرفة، أين أخرجت من حقيبتها قارورة صغيرة، ثمّ أخذت كأس الخمر خاصّة أبي، وعادت لتفتح القارورة، وقبل أن تضع بعض القطرات، في الكأس، قال أبي بصوتٍ عالٍ، وهو لا يزال في المطبخ:
- هل أحضر لكِ القليل من الماء؟
وعاد ليركّز في الهاتف، أمّا هي فقد ارتبكت، حين سمعت صوته فجأة، فعادت لتغلق القارورة بسرعة، وخبّأتها في حقيبتها، وقالت:
- أوه.. أجل.
فقام ليصبّ لها القليل من الماء، ثمّ أطفأ هاتفه، وسار للغرفة، وفي يده كأس الماء، وقد بدا عليه الاستغراب، أين راح يحدّث نفسه:
- ما الذي كانت تفعله؟ وماذا يوجد في القارورة؟ عليّ أن أعرف.
ثمّ دخل.. وقدّم لها كأس الماء، وقال لها:

- ما به وجهك، قد تغيّر لونه هكذا؟

- أوه.. أنا؟ هذا بفعل الحرارة فقط، سأشغّل المكيّف.

- اشربي الماء، ثمّ شغّليه.

فابتسمت، ثمّ شربت الماء، أمّا أبي فقد ظلّ يرمقها بريبة، ولكنّه ما يلبث أن يضحك، بين ثنايا تلك النّظرات، لكيلا يثير في نفسها الشّك اتّجاهه.

***

عمّ الحزن أرجاء المستشفى، بعد أن سمع الجميع بموت لبنى، ومنهم نور، التي راحت تسأل عنّي أوّل واحد، فقال لها الدّكتور سمير، بأنّني لم أستطع البقاء.. وهنا قالت (متأسّفة):

- كنت أريد أن أعزّيَه، فحامد هو أكثر واحد، بدا عليه التّأثّر الشّديد لمرضها.. فمنذ أن تمّ إدخالها للعناية المركّزة، وهو لا يفارقها.

كلّ هذا والدّكتور حازم واقف، مع الدّكاترة، ويصغي لتلك الكلمات، التي صدرت عن لسان نور، وهو يرمقها بغضب.. قبل أن يغادر، ودون أن يقول كلمة واحدة.

***

- والآن.. ماذا ستفعل؟

صديق أخي سارة يسأل هذا الأخير، فيجيبه:

- لا أعرف..

وسكت قليلًا، ثمّ قال لصديقه:

- أريد منك أن تذهب للحيّ، وتأتي لي بآخر الأخبار، يجب عليّ أن أعرف، إن كانت أختي قد توفّيت، أم لا، وبعدها سأتصرّف.

- ما كان عليك التّسرّع، في الحكم عليها.. أليس من المحتمل أن يكون المتّصل مجرّد كاذبٍ مثلًا، أو حاقدٍ عليها؟

- كيف يكذب، وقد أعطاني اسم الشّخص، الذي كان على علاقة بها؟ على كلّ حال لن يهنأ بالي، قبل أن أقتله، تمامًا كما فعلتُ معها، أعدك.

***

خرجت نور من المستشفى، وهي منهارة تمامًا، وبعد أن أوقفت سيّارة أجرة، فتحت الباب الخلفي للسّيّارة، وركبت، ليسألها السّائق:

- إلى أين سيّدتي؟

فأخذت تفكّر، ثمّ قالت:

- أتعلم؟ لا أعرف إلى أيّ وجهة سأذهب.

فابتسم السّائق، وقال:

- كان الله في عونك.

ثمّ تذكّرت بأنّها ذاهبة لبيت أبيها، فطلبت منه أخْذها لوسط المدينة، وما إن انطلق حتّى أطلقت لنفسها العنان، للتّفكير في كلّ ما حصل، بينها وبين لبنى، قبل أن تقول في نفسها:

- الحمد لله أنّني قد لحقتها، قبل أن تموت، ماذا كان سيحصل لي، لو أنّها توفّيت، دون أن أطلب منها مسامحتي؟ كم من المرّات نتسرّع في الحكم، على الأشخاص، ونؤذيهم بتصرّفاتنا؟ كم من المرّات علينا أن نتريّث، قبل إصدار الأحكام؟

***

- إلى المنزل؟ أليس كذلك؟

قال عادل، لتجيبه جنّات (وهي تضحك):
- وهل لنا مكانٌ غير عشّ الزّوجيّة؟
فضحك عادل، وقال:
- أعجبتني كلمة عشّ الزّوجيّة.
وانطلق بسيّارته العتيقة، على جناح السّرعة، متّجهًا للبيت، لدرجة أنّ كلّ سائقي السّيّارات التي تمرّ في طريقه، كانوا يحاولون الابتعاد عنه، مخافة أن يصدمهم، فسيّارته حديدها قوي، وليس مثل حديد السّيّارات الجديدة، اكتفى عادل بالضّحك، وهو يراقب السّيّارات، تهرب منه، في كلّ مرّة يسوق هذه السّيّارة، ثمّ علّق على الأمر (قائلًا):
- يا سلام.. كم هو شعورٌ جميل، أن يسوق الإنسان سيّارته، في أمان، إنّه حقًّا لشعورٌ رائع، أن ترى نفسك تسير بمفردك، في الطّرقات.
وعاد للضّحك مجدّدًا، والصّراخ مثل المجانين، لدرجة أنّ كلّ الذين يمرّون بجانبه، من الرّاجلين، أو السّائقين، كانوا يتحاشونه، لاعتقادهم بأنّه قد خرج لتوّه، من مشفى المجانين، فمنظر صراخه مجتمعٌ مع تلك السّيّارة البالية، التي يقودها بشكل عشوائي، فيروح يمينًا، ويعود ليسير في اليسار، وكأنّه يلاعب باقي السّيّارات، قد جعلهم يوقنون، بأنّه ليس إنسانًا طبيعيًّا.

***

- عليّ أن أذهب الآن.. الحمد لله على سلامتك مرّة أخرى.
قال خالد لهاني، ليردّ عليه هذا الأخير:
- ألن تشرب العصير؟
فقال خالد، بعد أن قام من مكانه، وعدّل هندامه:

- عليّ أن أعود للشّغل، فأنت تعرف أبي.. مع السّلامة.
- مع السّلامة يا خالد.
قال هاني مودّعًا خالد، الذي غادر، ليعود لشغله، بينما بقيت أمّه ترمق خالد بحسد، حتّى خرج، أين التفتتْ لابنها (قائلة):
- عليك أن تتعلّم من أخيك الأصغر.. أرأيت كيف يتكلّم، ويتصرّف؟ لِما لا تكون مثله؟
فتأفّف هاني، ثمّ قال:
- أرجوك.. اتركيني وشأني الآن.
- أنت هكذا دائمًا، حين أنصحك بأن تقتديَ بإخوتك تتهرّب.

***

- عليك أن تعود لمراقبته.. أتفهم؟
قال العمّ مروان لإلياس، فردّ عليه هذا الأخير:
- ولكن يا سيّدي..
فقاطعه العمّ مروان (غاضباً):
- لا تُكثر عليّ الكلام.. عليك أن تعود لمراقبته، فقد نسيَ الموضوع.
مسح إلياس العرق، الذي يتصبّب من جبينه، ثمّ قال:
- حسنٌ.. أمرك سيّدي.
ثمّ أغلق الهاتف، وعاد ليحدّث نفسه:
- ولكن ماذا عليّ أن أفعل؟ كيف سأتصرّف؟ يا إلهي.. ما هذه الورطة، التي وضعتُ نفسي فيها؟

***

- اجلسي يا جنّات، أريد أن أكلّمكِ في موضوع.

هاني يقول لجنّات، فتجلس، وهي تترقّب، ما يمكن أن يقوله لها، وبعد لحظاتٍ عاد للحديث:

- ما هي أخباركِ مع الدّراسة؟

- بخير..

- كنت أريد أن أسألك، عن ذاك الشّاب، الذي رأيتكِ معه.

فتظاهرت جنّات بأنّها لم تعرف، عمّن يتحدّث، وقالت:

- من تقصد؟

- الشّابُّ الذي رأيتكِ معه ذات مرّة، وطلبتُ منكِ الابتعاد عنه، زميلك في الجامعة، أما زلتِ تكلّمينه؟

- أوه.. لا.. طبعًا.

فنظر هاني لها مليًّا، وكأنّه لم يصدّقها، ثمّ عاد للحديث:

- اسمعي منّي يا جنّات، هذا الشّاب غير مناسبٍ لك، ليس لأنّه فقير، بل لأنّه مستهتر، وغير مسؤول.. هل لكِ أن تعطيني كوب الماء؟

ثمّ أشار بيده، للكوب الموضوع على الطّاولة الصّغيرة، فأسرعت لتعطيه إيّاه، وبعد أن شرب، عاد ليقول لها:

- لا زلتِ صغيرة.. وعليكِ أن تهتمّي بدراستك، فهي الأهمّ حاليًّا.

ابتسمت جنّات، ثمّ قالت له:

- أشكرك على نصائحك، التي ولا شكّ بأنّها نابعة من خوفك عليّ.

ثمّ قالت في نفسها:

- ولكن فات الأوان، على هذا يا أخي.

وعادت لترسم تلك الابتسامة، على وجهها، والتي تخفي خلفها، الكثير من النّدم.

***

بعدما طلب أخو سارة من صديقه، الذّهاب للحيّ الذي يسكن فيه، ليعرف من شباب الحيّ، إن ماتت سارة، أم لا.. ذهب صديقه للحيّ، وهناك وجد مقهى، فتوجّه إليه، وجلس على إحدى الطّاولات، وانتظر لبضع دقائق، فلم يجد أيّ حركة في الحيّ، توحي بوفاة أحدهم.. وهنا جاءه النّادل، فانتهز الفرصة ليسأله:

- كنت أريد أن أسألك..

- تفضّل.

- شكرًا.. بصراحة، سمعتُ بأنّ فتاة قد توفّيتْ البارحة، في هذا الحيّ.. هل لك أن تدلّني على بيتها؟

فاستغرب النّادل من كلامه، وقال:

- من الممكن أنّك أخطأت العنوان، فنحن لم نسمع عن وفاة أيّ فتاة.

- حسنٌ.. أشكرك.

ذهب النّادل ليحضر له القهوة، وفي هذه الأثناء تذكّر سارة، فعاد وفي يده صينيّة، وبعد أن وضع الفنجان على الطّاولة، قال:

- هناك فتاة نُقلت البارحة للمستشفى.

- وهل توفّيتْ؟ أم ما زالت على قيد الحياة؟

- لا، لم تمت بعد.

***

منذ أن عدتُ من المستشفى، أين كانت السّاعة حوالي الرّابعة صباحًا، دخلتُ لغرفتي مباشرة، وأغلقتُ الباب على نفسي، ونمتُ نومًا عميقًا، وكأنّني أهرب من الحياة، بما فيها، وأنا على هذا الحال، إذْ دخلت أمّي، بعد أن دقّت عليّ الباب، واقتربت منّي، وقالت (بصوتٍ خافت):

- حامد.. حامد.. إنّها الثّانية بعد الزّوال.

فأبعدتُ الغطاء عن وجهي، أين لم أستطع النّظر لأشعّة الشّمس، التي اخترقت عينيَّ، فعدتُ لأغطّيها بيديَّ، وأنا مستغربٌ من مرور كلّ هذا الوقت، بينما جلست أمّي على حافّة السّرير، وقالت:

- ألن تأكل شيئًا؟

- لا.. لا أريد شيئًا.

- ولكن هذا لا يجوز، يجب أن تأكل، فحزنك لن يعيد الميّت للحياة، بقدر ما يضرّك أنت فقط.

عدتُ لأستلقي في فراشي، بعدما شعرتُ بأنّ لذاك الكلام، الذي صدر عن أمّي وقعٌ سلبي، فكيف للإنسان أن يتحكّم في شعوره بالحزن؟ كيف له أن يزيح ذكرى شخص، من باله، توفّي للتّو؟ للأسف.. لم يعد لهذا الكلام أيّ صدى إيجابي، فمنذ زمن قطعتُ الصّلة معه، فلم يعد يؤثّر فيّ كما كان سابقًا، كما لم أعد أستوعبه أصلًا، أو أسمعه، فالمتكلّم يلقي كلامه، من هنا، ليصبح طيّ النّسيان، بعد ربع ساعة.. أمّا أمّي فقد قامت متّجهة للنّوافذ، وفتحتها كلّها، ثمّ قالت:

- دع الهواء يدخل للغرفة، على الأقلّ.

***

بعد مرور يومين، على دخول سارة للمستشفى، أين وضعت في العناية المركّزة، في البداية، استفاقت بعدها، لتتعافى بسرعة، فجروحها كانت سطحيّة، بل حتّى ارتطام رأسها لم يكن قويًّا، وهو ما سارع في شفائها.

وما إن استيقظت حتّى هرعت أمّها للمنزل، لتعدّ لها الأكل، ثمّ عادت محمّلة بالفواكه، بالإضافة لحساء الخضر، وما إن دخلت للغرفة، التي ترقد فيها ابنتها، حتّى أمسكت الملعقة، ثمّ غمستها في الحساء، وقرّبتها من فم سارة، فقالت لها هذه الأخيرة:

- لا أريد أن آكل شيئًا.

- تذوّقي يا ابنتي القليل فقط، فقد فقدتِ الكثير من الدّم.

فتحت سارة فمها، لتحتسيَ القليل من الحساء.. ثمّ عادت أمّها لتغمس الملعقة مرّة أخرى، فقالت لها سارة:

- ليس لي رغبة يا أمّي.

- الشّهية غير مهمّة.. المهمّ أن تأكلي، لتقفي على قدميكِ مرّة أخرى.

في هذه الأثناء دخل الطّبيب، برفقة الضّابط، ثمّ اقترب من سارة، وقام بفحصها، ونظر لأمّها بعد ذلك، وقال:

- في المساء - بمشيئة الله - تستطيعون إخراجها، ولكن يجب أن تبتعد عن أيّ ضغوط، وعليكم أن توفّروا لها أكلًا صحيًّا، سأكتب لها كذلك بعض الأدوية، التي يجب عليها تناولها، لتستردّ عافيتها.

فقالت أمّ سارة:

- أشكرك يا دكتور.

التفت الدّكتور للضّابط، ثمّ قال (موجّهًا الحديث لأمّ سارة):

- سأتركُكِ مع الضّابط، ليسألك عن بعض الأمور، حول قضيّة سارة.
فارتبكت أمّ سارة، ثمّ قالت له:
- حسنٌ.. تفضّل.
- لقد حرص الضّابط على أن تتماثل ابنتكِ للشّفاء، ولم يشأ أن يسألك، حين كانت حالتها غير مستقرّة.
جلس الضّابط، بعد أن غادر الدّكتور الغرفة، وفتح دفترًا، أين بدأ بطرح مجموعة من الأسئلة، على كلٍّ من سارة، وأمّها اللّتين راحتا تجيبانه، مع التّحفّظ في إعطاء إجابة، لسبب الضّرب، بحيث نظرت سارة لأمّها، التي نظرت لها هي الأخرى، مشيرة لها بعدم الخوض في السّبب، وهنا قالت سارة:
- بصراحة لا أعرف، فأخي كثيرًا ما كان يعتدي علينا، لأتفه الأسباب، ويسرق أيّ شيء له قيمة، ليبيعه، ويشتري به ذاك السّم.
فدوّن الضّابط كلام سارة، وأمّها، وقام بعدها، ثمّ قال لسارة:
- حمدًا لله على سلامتك.
ليغادر بعدها الغرفة، وهنا تنفّست سارة، وأمّها الصّعداء.
***
كانت نور جالسة في غرفتها، تتفرّج على التّلفاز، حين دخل زوجها، وطلب منها الإسراع، في وضع الأكل، وما إن ذهبت للمطبخ حتّى لحق بها، ليسحب الكرسيّ، أين جلس ينتظر، أن تضع الطّعام أمامه، وما إن فرغت من وضعه حتّى سحبت الكرسيّ، المقابل له، وجلست، لتشاركه الأكل، بالرّغم من عدم

شعورها بالجوع، وبالرّغم من إحساسها بالحزن، على لبنى، ولكنّها حاولت أن تبدوَ طبيعيّة.. وبمجرّد أن أكل حازم اللّقمة الأولى حتّى عاد ليقول بعدها:

- مالي أراكِ حزينة؟

فقالت نور (ببرود):

- وكأنّك لا تعرف.

- آاه، أنتِ حزينة على لبنى.. لقد لاحظتُ بأنّ الأغلبيّة قد تأثّروا بموتها، ولكن مثلكِ أنت، وحامد لم أرَ بعد.

فبلعت نور ريقها، وحاولت أن تتصرّف بشكل عادي، ثمّ قالت:

- هذا لأنّنا تعرّفنا عليها عن قرب، فقد كانت معنا، في نفس الرّواق.. أمّا الباقي فهي مجرّد زميلة لهم، كالعشرات غيرها.

سكت حازم قليلًا، ثمّ قال:

- ولكنّني أعتقد بأنّ حامد قد حزن عليها، بشكل غير طبيعي، يبدو بأنّه كان يحبّها، ولكنّه لم يفصح لأحد، نظرًا لأنّه متزوّج.

فسكتت نور، وكأنّها لم تسمعه أصلًا، وهنا قال حازم:

- أراكِ قد لزمتِ الصّمت؟

فتأفّفتْ نور، وقالت:

- وما الذي يجب عليّ قوله؟

- ولِما شعرتُ بأنّكِ قد انزعجت، حين قلتُ لكِ بأنّ حامد يحبّها؟

فضحكت نور، وقالت:

- لاا.. يبدو لي بأنّك تبحث عن المشاكل، بأيّ طريقة.

ثمّ وضعتْ الملعقة، وقامت متّجهة لغرفتها، وهنا تأكّد حازم من صحّة الكلام، الذي سمعه من لبنى، فقال في نفسه:

- إذًا كلامُ لبنى صحيح.

ثمّ وضع الملعقة هو الآخر، وقام ليتّجه للحمّام.

***

- صباح الخير سيّد خالد.

رفع خالد رأسه، ليجد جهينة واقفة، وفي يدها بعض الملفّات، فقال:

- صباح الخير يا آنسة جهينة، كيف حالك؟

- بخير.

ثمّ مدّت يدها، وقالت له:

- لقد أحضرتُ لك هذه الملفّات، لتعاينها.

- اجلسي أوّلًا، لترتاحي.. وبعدها لكلّ حادثٍ حديث.

وبعد أن جلست، طلب خالد كوبين من القهوة، ثمّ قال:

- كنت أفكّر في أن أدعوك، لتتغدّى في مكانٍ عام، ما رأيك؟

- لا مانع لديّ.

فابتسم، ثمّ قال:

- أحسن من أن نتحدّث هنا.

***

- وكيف حاله الآن؟

قالت فلّة لأمّي، فردّت عليها:

- لقد ذهبتُ إليه للتّو، وأيقظته، وسينزل بعد قليل، ليشرب معنا القهوة.

فقالت نريمان:

- لا أصعب من فقد إنسانٍ عزيز.

نزلتُ في هذه الأثناء، فنظرت أمّي لفلّة، ونريمان، وقالت:

- لقد نزل حامد، غيّرا هذه السّيرة الآن.

فالتفتت فلّة نحوي، وقالت:

- صباح الخير يا حامد، لقد اشتقنا لجلوسك معنا، حول المائدة.

فرسمتُ ابتسامة خفيفة، على وجهي، لأجاملها، وقلتُ بعدها:

- صباح الخير.

وجلستُ بجانب نريمان، فأخذت أمّي فنجانًا، وصبّت فيه القليل من القهوة، مع الكثير من الحليب، وقالت:

- أعرف بأنّك لا تحبّ الحليب، مع القهوة، ولكن سأجعلك تشرب على مزاجي، هذه المرّة.

***

عادت جهينة لمكتبها، بعد أن اتّفقت مع خالد، على أن يتغدّيا، في أحد المطاعم، حين ينتهي وقت العمل.. فوجدت وردة جالسة، خلف مكتبها، وهي تنظر للنّافذة خلفها، وقد سرحت بخيالها، خارج حدود هذه الشّركة، فقالت جهينة:

- وردة.. أين سرحتِ بخيالك؟

فالتفتتْ نحوها، ثمّ اعتدلت في جلوسها، وقالت:

- كنت أفكّر في هذه الحياة.

فابتسمت جهينة، وقالت (مستغربة):

- الحياة مرّة واحدة؟ لاا!.. هذا كلامٌ خطير يا وردة.

فقالت وردة (ببرود):

- أنا لا أمزح.

- ولكن ما بك، هل سنعود لهذا الموضوع؟

- أصلًا لم أنسَ الموضوع، حتّى أعود لذكره.

- أرى أن تطوي هذه الصّفحة، وتنسيْ ما حصل.

- ولكن كيف يمكنني ذلك، كيف يمكنني أن أنسى، ما حصل لسارة؟ كيف يمكن أن أغفر، لهاني خطيئته؟

فقامت جهينة من مكانها، وجلست بجانبها، بعد أن سحبت كرسيًّا، من تلك الكراسي، الموضوعة أمام المكتب، ثمّ عادت لتقول:

- ألا يمكن أن تكون سارة مجرّد محتالة؟

- بصراحة.. لا يبدو عليها هذا؟

فضحكت جهينة، وقالت:

- وما أدراكِ أنت؟ الغيرة تجعل الإنسان يفعل أيّ شيء، حتّى لو كان ضدّ مبادئه، أرى بأن تهتمّي بشؤونك، وتنسيْ أمر سارة برُمّته.

- هل هذا ما عليّ فعله، برأيك؟ يعني لو كنتِ مكاني، أكنتِ ستتصرّفين بنفس الطّريقة؟

- أجل.

- سأحاول.

قالت وردة ببرود، بعد أن تنهّدت، وعادت لتلتفتَ ناحية النّافذة، لتطلق العنان لخيالها مرّة أخرى.

***

دخلت أمّ هاني لغرفة ابنها، وهي تحمل في يدها صحنًا، من الفخّار، فيه القليل من البخور، وأخذت تطوف بالغرفة، وتحرّك ذاك الصّحن، في كلّ أرجائها، حتّى امتلأت عن آخرها بالبخور، فاستيقظ هاني، وقال:

- ما هذا الذي تفعلينه يا أمّي؟
- صباح الخير يا بُنيّ.. لقد وضعتُ القليل من البخور.
- أرجوك خذي هذا البخور، لأنّني لم أعد أستطيع التّنفّس.
- ولكن يا بُنيّ.. هذا البخور مفيد للعين.. و..

وقبل أن تكمل كلامها، صاح فيها (قائلًا):

- لا أريده.. أخرجي هذا السّم، من غرفتي فورًا.

فأسرعت أمّ هاني بالخروج، قبل أن يثور ابنها.. ثمّ قالت:

- يا لهؤلاء الأولاد، لا يعرفون مصلحتهم أبدًا، لو يعرف ما لهذا البخور، من فائدة، لما اعترض على بقائه، في الغرفة.

***

- وأخيرًا التقينا.

قال خالد كلامه هذا، بعد أن جلس، فابتسمت جهينة، وقالت:

- أجل.
- ماذا تأكلين؟
- أمم.. بصراحة، لا أعرف بعد.

- حسنٌ.. اختاري على مهل، حتّى وإن بقينا للمساء، فلا مانع لديّ.
فضحكت جهينة، وقالت:
- لا.. ليس لهذه الدّرجة.
- إذًا اختاري لي معك، ما دمتِ شاطرة هكذا.
ووضع قائمة الطّعام خاصّته جانبًا، وأخذ يتصفّح هاتفه، ريثما تختار ما يعجبها، من مأكولات.

***

نظرتُ للسّاعة، فوجدتها الرّابعة مساءً، فقمتُ لأغيّر ثيابي، وخرجتُ من البيت، لا أعرف أيّ وجهة أقصد، المهمّ ألّا أبقى دقيقةً فيه، فقد شعرتُ بضيق، يختلج صدري، لدرجة أنّني لم أعد أقوى، على التّنفّس، سرتُ في الشّارع كالتّائهين، وأنا على هذا الحال، حتّى قادتني قدماي للشّاطئ، أين اخترتُ أكثر الأماكن عزلة، وجلستُ فوق تلك الصّخور، لأتأمّل البحر، جلستُ لأتأمّل نقطة الوصل، بين الأرض والسّماء، متمثّلة في زرقة البحر، موصولة بزرقة السّماء.

***

نامت سارة في فراشها، أين غطّتها أمّها، وأطفأت النّور، وأغلقت عليها الباب، ثمّ ذهبت للمطبخ، لتُجهش بالبكاء، حين تذكّرت ما وقع لسارة، دخلت عليها ابنتها الصّغرى، لتتفاجأ برؤيتها تبكي، فقالت:
- أتبكين يا أمّي؟
فمسحت أمّ سارة دموعها، وقالت:
- أنا حزينة على أخيك.

فجلست بجانبها، وقالت:

- احمدي الله على أنّ سارة لم تمت، وإلّا كان مصيره السّجن لسنين.

فتنهّدت أمّها، وقالت:

- الحمد لله على كلّ حال.

ثمّ سكتت.. فقامت ابنتها، وقالت لها:

- سأحضّر لكِ عصير النّعناع، لتهدّئي أعصابك.

وبينما ابنتها منشغلة، بإعداد شراب النّعناع، عادت لتحدّث نفسها:

- أحمد الله على أنّ النّاس لم يعرفوا، سبب الشّجار.

***

مضى الكثير من الوقت، وأنا جالسٌ بين تلك الصّخور، لأراقب حركة الأمواج، التي تروح، وتجيء دون كلل، أو ملل.. كنت جالسًا لوحدي، في البداية، بمعيّة تلك الصّخور، ولكنّ هذا الحال لم يدم طويلًا، فكنت أرى شخصًا قادمًا من بعيد، ليجلس في مكانٍ ما مثلي، ويراقب البحر هو الآخر، ثمّ ما يلبث أن يقف آخرٌ، خلف ذاك السّور، ويجلس ثالثٌ على مقعد، من تلك المقاعد العموميّة، إلى أن اجتمع عددٌ لا بأس به، من عشّاق التّأمّل.. نظرتُ عن يميني، ويساري، فتعجّبتُ من كلّ هؤلاء، الذين آثروا المجيء إلى هنا، للجلوس بمفردهم.. أيقنتُ بعدها بأنّ لكلّ واحدٍ من هؤلاء سببًا، جعله يأتي إلى هنا.. وأغلب هذه الأسباب حزينة، فالسّعادة تجعل الشّخص يؤثر الجلوس، بمعيّة النّاس، ليشاركوه فرحته.. أمّا الحزن فيجثم على صدر صاحبه، لدرجة أنّه لا يستطيع حتّى بثّ شكواه للآخرين.. إذًا هذا هو القاسم المشترك بيننا.

رنّ هاتفي في هذه الأثناء، فأخرجته من جيبي، وأجبتُ على أمّي، التي كلّفت نفسها عناء الاتّصال، للاطمئنان عليّ، بعدما تأخّرتُ في العودة للبيت، على غير عادتي.. فقالت:

- ألو.. حامد، أين أنت يا بُنيّ؟

- لا تقلقي عليّ.. سأعود للمنزل بعد قليل.

- حسنٌ.. اعتنِ بنفسك.. هاه؟

وأنهينا المكالمة، لأنظر لهاتفي، فوجدتُ بأنّها العاشرة ليلًا، فأعدته لجيبي، وقمتُ من مكاني، كي أعود للمنزل، لأنّني لم أشأ أن أبطئ على أمّي، فأزيدها عبئًا فوق أعبائها.

***

قام أبي مستأذنًا الرّاقصة، الذّهابَ للمطبخ، ليحضر بعض الفاكهة، من الثّلّاجة، وتركها في الغرفة.. وما إن وصل للمطبخ حتّى فتح هاتفه، ليرى عبر الكاميرا، ما الذي ستفعله في غيابه، كالمرّة الماضية، وبمجرّد أن أحسّت بأنّه قد أبطأ، في العودة، قامت لتفتح الخزانة، وأخذت تقلّب هنا، وهناك، وفي كلّ مرّة تلتفت، لتتأكّد بأنّه لا يزال في المطبخ، لتعود للبحث، فنظر لها مستغربًا، وضحك، ثمّ قال:

- يا سلام.. أنتِ لصّةٌ أيضًا!

وعاد للضّحك، وهو يمسك بكأس العصير، ليشرب منه من حين لآخر، وفي نفس الوقت يتفرّج عليها، وهي تفتّش الخزانة، وحين أحسّ بأنّ الأمر يستحقّ الفرجة، سحب الكرسيّ، وجلس ليواصل المشاهدة (قائلًا):

- لابدّ من القليل من المتعة.

وقال بصوتٍ مرتفعٍ فجأة:

- هل تأخّرتُ عليك؟

فارتعبت الرّاقصة، وعادت لتجلس في مكانها بسرعة، ثمّ قالت:

- لا.. على رسلك.

فضحك بشكلٍ هستيري، ثمّ قال:

- يجب أن تلاعب هؤلاء الجرذان، وتستمتع بتعذيبهم، قبل أن تقتلهم.

***

بعد أن تماثل هاني للشّفاء، وأصبح بإمكانه المشي، ذهب للشّغل.. وما إن دخل حتّى تعوّذ بعض الموظّفين، من رؤيته مجدّدًا، فقد ارتاحوا منه لأيّام، ولكنّ السّعادة لا تدوم، هكذا قال أحدهم، حين رآه يسير، في الرّواق، نانفخًا صدره، قال لزميله، الذي يشاركه نفس المكتب:

- ليت السّعادة تدوم لفترة أطول.

فقال له زميله (مستغربًا):

- ماذا تقصد؟

فأشار بيده خارج المكتب، وقال:

- ذاك التّافه يسير في الرّواق، بشكلٍ مستفز.

- آه.. تقصد هاني؟

- أجل، لقد عاد للشّغل، ومن الآن يجب أن نستعدّ لحركاته الصّبيانيّة.

فابتسم زميله، وقال له:

- هوّن عليك.. ولا تنسَ بأنّه حين يؤذي أحد الموظّفين، فإنّه يدفع الثّمن بعدها مباشرة، وما الحوادث المتكرّرة التي تحدث له، سوى دليلٍ على غضب الله عليه، لظلمه للموظّفين، الذين لا حول لهم، ولا قوّة.

فرفع الآخر يديه للسّماء، ثمّ قال:

- يا ربّ.. خلّصنا من هذا التّافه.

فضحك زميله، وقال:

- أرى بأنّك لم تعد تطيق وجوده بيننا.

- بصراحة.. أجل، أتمنّى أن يختفيَ من الوجود.

- اشتغل.. ولا تحلم أحلام اليقظة.

قال الثّاني للأوّل، ثمّ عاد ليكمل عمله.

***

كان عادل في الجامعة، حين اتّصل به نفس الشّخص، الذي تعوّد على الاتّصال به، من حين لآخر، فردّ عليه، وما كاد يفعل حتّى قال له:

- متى ستنفّذ ما اتّفقنا عليه؟

فقال عادل، بعد أن ترك رفاقه، لكي يتكلّم في سرّية:

- لم يبقَ الكثير.. قريبًا ستسمع خبرًا سارًّا.

- سنرى..

قال الرّجل، وأنهى المكالمة، بينما عاد عادل ليكمل حديثه، مع رفاقه.

***

بعد أن قام هاني بجولة، في الشّركة، عاد ليجلس في مكتبه، أين طلب منه خاله، أن يملأ بعض الأوراق، وهنا شعر هاني بالضّجر، فقال:

- يا إلهي.. كم أكره الأوامر.

فقال له خاله، قبل أن يخرج من المكتب:

- اشتغل، ولا تتكلّم، سأذهب لمكتب أبيك.. عليك أن تنهيَ العمل، الذي كلّفتك به، قبل أن أعود، أتفهم؟ لا أريد المزيد من المشاكل، مع أبيك بسببك.

فأمسك هاني الأوراق، وأخذ قلمًا، وما كاد يبدأ حتّى رنّ هاتفه، فأحسّ بالسّعادة تغمره، لا لشيء، سوى أنّه سيرتاح من العمل، الذي كلّفه به خاله، فقد تعوّد على الاتّكالية، ولم يعد يقوى على شيء، سوى مراقبة الموظّفين، واختلاق المشاكل.. ردّ هاني على المتّصل، الذي اتّضح أنّه عبد الوهّاب، فيما بعد، ثمّ قال له (متسائلًا):

- ولما لم تتّصل بي، من رقمك المسجّل عندي؟

- وهل كنت ستردّ عليّ، لو رأيتَ رقمي الأصلي؟

فتنهّد هاني، وقال:

- والآن.. هاتِ ما عندك.

- أسمعتَ ما حصل لسارة؟

فقال هاني (بغضب):

- عرفتُ بأنّك ستتطرّق لموضوعها، أأرسلتْك لتستعطفني، أم ماذا؟

- لقد نُقلت للمشفى، بعد أن ضربها أخوها، وكاد يقتلها بسببك طبعًا.

وهنا تغيّر لون وجه هاني، وقال:

- ماذا تقول؟

- كما سمعت.

سكت هاني، ولم يدرِ ماذا يقول، فعاد عبد الوهّاب للكلام:
- أرأيت عجرفتك، وتكبّرك ماذا فعلا بالبنت؟
فصاح فيه هاني:
- وما علاقتي أنا؟
- كيف تقول هذا الكلام؟ والكلّ يعرف بأنّها كانت تخرج معك؟ ألهذه الدّرجة أنت إنسانٌ تافه، وأنا لم أكن أعرفك، على حقيقتك؟
وأنهى المكالمة، بينما عاد هاني ليمسك القلم، ثمّ قال:
- ما هذه الورطة، التي أوقعتُ نفسي فيها؟ ماذا لو ذكرتْ سارة اسمي للأمن؟ ويلي، كيف سأتصرّف الآن؟
ثمّ وضع الأوراق، والقلم، أين عاد خاله في هذه الأثناء، وما إن جلس حتّى قام هاني، وخرج من المكتب، فقام خاله ليناديه:
- هاني، هاني، ألا تعرف كيف تشتغل كالنّاس؟ يا إلهي، سيصيبني هذا الشّابُّ بجلطة، ماذا سأقول لأبيه، إن سألني عن شغله؟

***

كانت جنّات في المطبخ، حين طلب منها عادل، بأن تحضر له كأسًا، من الماء، وبعد أن شرب القليل منه، عاد ليأكل الفشار، فقالت له:
- سأبقى هنا للمساء.
فاستغرب عادل، وقال:
- للمساء؟ لماذا؟ ألم تقولي بأنّ هاني يراقبك؟
- بلى.
ثمّ تناولتْ القليل من الفشار، وعادت لتستأنف الحديث:

- ولـكنّه سيذهب اليوم، ليسهر مع رفاقه كالعادة، الحمد لله أنّه قد عاد لعاداته القديمة، فقد كرّهني في كلّ شيء.
- إذًا سنحتفل سويًّا؟ أليس كذلك؟
- وكيف ذلك؟
- أنتِ مع عادل، لن تكلّفنا السّهرة، سوى القليل من الخمر، ومشتقّاته، بالإضافة للموسيقى، وهذه متوفّرة عندنا.. ما رأيك؟
فضحكت جنّات، وقالت:
- أعجبتني كلمة مشتقّاته هذه.. على كلّ حال لا مانع لديّ.
فقام عادل من مكانه، وقال:
- حسنٌ، انتظري، وسترين كيف ستتحوّل الغرفة لقاعة حفلات، أو أقول لك؟ ستتحوّل لملهى صغير.
وضحك، لينصرف بعدها، لكي يجهّز الشّيشة، والخمر، وغيرها.. وهنا قالت جنّات:
- آه يا إلهي.. كم هو مجنون.

***

بعدما انتهت نور من فحص المرضى، عادت لتفتح الملفّات، وتقرأها، في هذه الأثناء سمعت صراخًا، صادرًا من الرّواق، في البداية لم تكترث لتلك الأصوات، التي أخذت تعلوا شيئًا فشيئًا، فقد تعوّدت على ذلك، فمن حين لآخر يتشاجر المرضى، مع الممرّضين، أو الأطبّاء، وسرعان ما ينتهي هذا كلّه، لكن هذه المرّة زاد الأمر عن حدّه، فدخلت رشا مسرعة نحوها، وقالت لها:

- أسرعي يا نور.. فزوجكِ قد تشابك مع ممّرضٍ بالأيدي.

فقامت نور، وخرجت، لترى ما الذي يفعله زوجها، ولحقت بها رشا، فوجدتا حازم يخور كالثّور، في الممرّض، الذي دافع عن نفسه بدوره، ليتدخّل بعض الزّملاء، وينهوا النّزاع، بحيث أمسك اثنان منهم بحازم، وأبعداه عن الممرّض، الذي أمسكه طبيبٌ، من يده، طالبًا منه العودة للعمل، قبل أن يكتشف المدير الأمر، فعاد الممرّض أدراجه، وهو يتوعّد حازم بالشّر (قائلًا):

- سأريك من أكون، لا تعتقد بأنّنا عبيدٌ عندك.

وانصرف، بينما بقي حازم يصرخ، وهو يقف في مكانه، طالبًا من زميليه أن يتركاه، وهو ما حدث بالفعل، فقد تراجعا ليعودا لعملهما.. اقتربت منه نور، وقالت:

- ولكن ما بكما؟ لما هذا الصّراخ كلّه؟

فصرخ حازم فيها (قائلًا):

- دعيني وشأني.

ثمّ انصرف هو الآخر، فنظرت نور لرشا، وقالت (مستغربة):

- ما به هذا الرّجل؟

فابتسمت رشا، وقالت لها:

- لا عليك.. دعينا نعود لشغلنا، قبل أن يرانا المدير.. فأنتِ تعرفينه.

***

اتّصلت الرّاقصة بالعمّ مروان، وبعد أخذٍ ورد، سألها عن أخبارها، مع أبي، فقالت له:

- بصراحة، لم أكن أعتقد بأنّه صعب، إلى هذا الحدّ.
- كيف ذلك؟
- تخيّل، لحدّ اللّحظة لم أجد شيئًا ضدّه، أو عنده.. إنّه شخصٌ غريب.
- ليس المهمّ أن تكتشفي عنه شيئًا، بل المهمّ أن تنفّذي ما طلبته منك، ما طلبته منكِ فقط، هل فهمت؟
- حسنٌ.. لقد فهمت.
- لا أريد أيّ غلطة، قبل أن تنفّذي، ما اتّفقنا عليه.
- ولكن ما بك؟ لما غضبتَ بهذا الشّكل؟
- لأنّني أرى بأنّكِ أصبحتِ تتصرّفين، من نفسك، دون الرّجوع إليّ، إن فعلتِ أيّ شيء، دون أن ترجعي لي، صدّقيني.. لن أرحمك.
وأنهى المكالمة، ليغلق هاتفه، وأخذ قرصًا، من تلك الأدوية، ليتناوله، أمّا الرّاقصة فقد استغربت، من غضبه المفاجئ هذا، وقالت:
- ولكن ما به؟ ألا يمكن أن نكلّمهم، إلّا في إطار الشّغل؟

***

ظلّت أمّ هاني تتّصل بابنتها، ولكن دون جدوى، فنظرت إلى السّاعة، لتجدها قد تجاوزت السّادسة مساءً، فقالت في نفسها:
- هذه أوّل مرّة تتأخّر فيها، تُرى أين هي الآن، ولِما لا تردّ عليّ؟ أيمكن أن يكون قد حدث لها أمرٌ ما؟ يا إلهي، آمل أن تعود سالمة.
في هذه الأثناء دخلت عليها الخادمة، وبعد أن وضعت أمامها فنجان القهوة، قالت لها:
- هل من خطب سيّدتي؟

فانتبهت أمّ هاني لوجود الخادمة، وقالت:
- جنّات لم تعد إلى الآن.
- من المحتمل أن تكون قد ذهبت، مع صديقاتها، لعيد ميلاد إحداهنّ.
فقامت أمّ هاني من مكانها، متّجهة للنّافذة، وأزاحت السّتار، ثمّ أخذت تنظر هنا، وهناك، وقالت:
- ولكن لو كان كذلك لأخبرتني.. لا أظنّ ذلك.
ثمّ عادت لتجلس، وبعد أن أمسكت الهاتف مرّة أخرى، قالت:
- لستُ مرتاحة أبدًا.
- ولما لا تتّصلين بصديقاتها؟
فتنهّدت أمّ هاني، وقالت:
- نسيتُ بأنّ لها صديقاتٍ أصلًا.. حسنٌ، سأتّصل بصديقتها المقرّبة.

***

كنتُ جالسًا في غرفتي، حين دقّتْ نريمان الباب، ثمّ قالت:
- هل لي أن أتكلّم معك قليلًا؟
فأومأتُ برأسي، وقلت:
- أجل.
فقالتْ بعدما حملت الكرسيّ، لتضعه مقابل السّرير، واعتدلتُ أنا في هذه الأثناء، فجلستُ بعد أن كنتُ مستلقيًا، لأصغيَ لها:
- لم أشأ التّحدُّث معك، في الأيّام الماضية، لأنّني أعلم مدى الحزن، الذي كنتَ تحسُّ به، فقد عشتُ نفس التّجربة..

وراحت تسترسل في كلامها، وكأنّي بها قد جاءت لتتحدّث معي، عن مصيبتها، لتفرغ قلبها، فهي لم تأتِ للحديث عن موت لبنى، بقدر ما جاءت لتتحدّث عن موت سهيل، وما خلّفه من آثار سلبيّة على نفسيّتها، التي انهارت كليًّا، بسبب تحطّم أحلامها، وآمالها، أحلامُها التي ماتتْ، بموت سهيل.. أمّا أنا فقد آثرتُ الصّمت، لأترك لها مجالًا، لتعبّر بحرّية أكثر، وخاصّة وأنّها بحديثها هذا، قد وجدتْ مساحة أكبر، لتعبر بكلّ أريحيّة، لأنّها في الظّاهر تتكلّم عن موت لبنى، أمّا الباطن، والمقصود فهو موت سهيل.. لقد آثرتُ الصّمت، ربّما لأنّني لم أحزن، بالقدر الذي حزنت به هي، على سهيل.. فحزنُها كان على شخص، أحبتّه بصدق، شخصٌ مات مقتولًا، وكلّنا يعرف من قتله، أمّا حزني فهو ببساطة مجرّد شفقة، على فتاة أحبّتني، ولم أبادلها الشّعور نفسه، وماتتْ بسبب مرض عضال، وليس بسببي، وهذا هو الفرق بيني، وبين أختي، التي راحت ضحيّة، لتسلّط والدي، وجشعه.

***

استيقظت جنّات، لتجد نفسها نائمة في غرفتها، وما إن فتحت عينيها، ورأت عادل، الذي كان نائمًا بجانبها، حتّى التفتت بتلقائيّة للنّافذة، في الجهة المقابلة، فرأت بأنّ اللّيل قد خيّم.. وهنا قامت مسرعة لهاتفها، وما إن فتحته حتّى وجدت بأنّها العاشرة، ممّا جعلها تصابُ بالذّهول، لتضع يدها على خدّها، أين أخذت تصرخ بشكلٍ لا إرادي، فقام عادل، وأخذ يقول لها:

- ماذا هناك؟ ما بك يا جنّات؟

- تأخّر الوقت، ماذا سأقول لأمّي الآن؟ لقد اتّصلت بي أربعين مرّة.

فشعر عادل بالخوف، لكنّه حاول أن يجد حلًّا، بدلًا من ذلك، وخاصّة أنّ الموقف قد خرج عن السّيطرة، فقال لها:

- اتّصلي بها، وطمئنيها عنك.

- وإذا سألتني أين أنا، ولماذا تأخّرت، ماذا سأقول لها؟

فأخذ عادل يفكّر في حل، بينما بقيت جنّات تبكي، إلى أن قال:

- وجدتها..

- ماذا؟

- غيّري ملابسكِ بسرعة، سأريكِ كيف ستتصرّفين معها، لتقنعيها بأنّكِ قد تأخّرتِ لسببٍ وجيه، هيّا، أسرعي، ولا تنظري لي هكذا كالغبيّة.

***

- والآن.. ماذا أفعل؟ كيف سأتصرّف؟ أخبريني.

قالت أمّ هاني للخادمة، بعد أن يئست، وتقطّعت بها السّبل، فما كان من هذه الأخيرة، إلّا أن اقترحت عليها، بأن تكلّم أبي، أين قالت:

- أرى بأن تتّصلي بأبي هاني، وتخبريه، ليتصرّف.

- ولكنّني أخشى ردّة فعله.

- إلى متى ستظلّين على هذا الحال سيّدتي؟ فقد اتّصلتِ بها ولم تُجب، واتّصلتِ بصديقاتها، الواحدة تلو الأخرى، وأخبرنكِ بأنّهنّ لا يعرفن عنها شيئًا.. أرى بألّا تضيّعي المزيد من الوقت.

فكّرت أمّ هاني قليلًا، ثمّ قالت:

- معكِ حقّ.. لا يمكنني الانتظار، أكثر من هذا.

وحملت الهاتف، لتتّصل بأبي، وما كادت تفعل حتّى صاح الحارس، في الأسفل (قائلًا):

- سيّدتي.. لقد عادت جنّات.

فأسرعت أمّ هاني لتطلّ من النّافذة، التي تركتها مفتوحة، لتؤنس نفسها، فتطلّ من حين لآخر، لعلّها ترى ابنتها، وهي تجتاز باب المنزل، صعدت جنّات في هذه الأثناء الدّرج بالكاد، فقد بدا عليها، بأنّ رجلها اليمين تعرج قليلًا، كانت أمّ هاني قد خرجت هي الأخرى تجري، وما إن التقت بابنتها، في منتصف الدّرج، حتّى صاحت:

- أين كنت، أيّتها الغبيّة؟

وعادت لتقول مرّة أخرى، بعد أن رأتها في حالة يرثى لها، وقد بدا عليها التّعبُ جليًّا:

- ولكن ما بك يا ابنتي؟ لما تعرجين هكذا؟

ثمّ اقتربت منها أكثر، وعادت لتسألها:

- وما هذه الكدمات، التي على وجهك؟ ولما هذا القماش ملفوف، حول يدك؟

- لا تقلقي يا أمّي.. مجرّد حادثٍ بسيط.

فضربت أمّ هاني صدرها بيدها، وقالت:

- ماذا؟ ماذا قلت؟ حادث..

ثمّ أمسكتها بلطف، لتساعدها على السّير، وأدخلتها لغرفتها، وبعد أن استلقت جنّات في فراشها، قالت:

- لقد ذهبتُ برفقة صديقتي رجاء، أنت تعرفينها، أليس كذلك؟

فقالت أمّ هاني (مستغربة):

- من رجاء؟

- رجاء التي جاءتنا تلك المرّة، وأحضرت لي هاتفي، حين نسيتُه.

- آه.. حسنٌ.. تذكّرتها، ما بها؟

- خرجنا من الجامعة، وذهبنا لتناوُل البيتزا، في محلّ قريبها، بعدما طلب منها التّرويج للمحل، فعرضت عليّ، أنا واثنين من زميلاتي، الذّهاب معها، وبعد أن فرغنا من الأكل، قرّرنا العودة للجامعة، ولكنّ سيّارة رجاء اصطدمت بسيّارة أخرى، فجاءت سيّارة الإسعاف، لتنقل المتضرّرين للمستشفى، أمّا نحن فقد قدّموا لنا الإسعافات، ونُقِلنا لمركز الشّرطة، ليحقّقوا معنا، وبقينا على هذا الحال، إلى أن جاء أحد الضّباط، وما إن سمع اسمي حتّى سألني عن أبي، وما إن قلتُ له بأنّني ابنته حتّى توسّط لنا، وخرجنا.. هذا كلّ ما في الأمر.

فتنهّدت أمّها، وقالت:

- حمدًا لله على سلامتك يا ابنتي، أخبريني، هل يؤلمكِ رأسك؟ أو أيّ مكان، في جسمك؟

- لا.. مجرّد كدماتٍ بسيطة يا أمّي.

ثمّ أمسكت بذراعها، وقالت:

- ذراعي يؤلمني قليلًا، ولكن لا بأس.

- إن شئتِ نتّصل بطبيب العائلة، أو بأخيكِ حامد، ليكشف عنك.

- لا.. لا داعي لهذا كلّه، أنا بخير صدّقيني، ثمّ إنّ الأطبّاء قد قدّموا لنا بعض الإسعافات الأوّليّة.

قالت الخادمة في هذه الأثناء لجنّات:

- حمدًا لله على سلامتك سيّدتي.

فالتفتت أمّ هاني للخادمة، وقالت:

- حضّري لها بعض الأكل، لتأكله.

ثمّ عادت لتنظر لجنّات، وقالت:

- لابدّ بأنّكِ لم تأكلي شيئًا، منذ الظّهيرة.

***

في اللّحظة التي وضعت الرّاقصة السُّم، في كأس الخمر، خاصّة أبي، حتّى دخل عليها هذا الأخير، ليفاجئها.. أين قال لها:

- ماذا تفعلين؟

فتراجعت للوراء، وسقطت القارورة من يدها، لشدّة خوفها، وقالت:

- أ.. أأ.. لا.. لا شيء.. هذا مجرّد دواء.

فاقترب منها، وأمسكها من شعرها، ثمّ صرخ فيها (قائلًا):

- ولما وضعتِ الدّواء في كأسي؟

- أوه.. لم أنتبه فقط.

- لم تنتبهي؟ هيّا.. انطقي، ما هذا السّائل الذي وضعته؟ هيّا..

- لقد قلتُ لك.. مجرّد..

وقبل أن تُكمل، حَمَل الكأس، وطلب منها أن تشرب ما فيه، فأمسكته، وهي ترتجف، لتُقرّبه من فمها.. ثمّ نظرت لأبي، فقال لها:

- هيّا.. اشربي..

فأخذت تبكي، وهنا عاد أبي ليمسك الكأس، وحاول بنفسه أن يسقيها منه، ولـكنّها أغلقت فمها بإحكام، ولم ترضَ أن تفتحه أبدًا، فانسكب ما في الكأس على وجهها، أين غضب أبي، وقام بضربها ضرباتٍ عشوائيّة، ثمّ أخرج مسدّسًا من طقمه، الموضوع على السّرير، ليشهره في وجهها، وقال (بصوتٍ مرتفع):

- من بعثك؟ هيّا.. انطقي.. تكلّمي.

- أرجوك.. لا تقتلني، أرجوك.

فعاد ليمسكها من شعرها، ثمّ وضع المسدّس على رأسها، فقالت (وهي ترتجف):

- مروان.. مروان.. هو من بعثني لأقتلك.

فاتّسعت عينا أبي، ثمّ قال:

- مروان؟ ما زال حيًّا؟

- أجل.. إنّه حيٌّ يرزق.

فدفعها بيده، لتسقط أرضًا، أين أخذت تتوسّل إليه، لكيلا يقتلها، لكنّ الغضب كان قد تمكّن منه، فسحب الزّناد، وأصابها بعدّة رصاصات، في مناطق مختلفة، من جسمها، أردتها قتيلة في الحال.

***

كان حازم في مكتبه، حين خرجت نور من مكتبها، لتتّجه لرواق ما بعد العمليّات، لكي تتفقّد المرضى، وفي طريقها التقت بطبيب، فتجاذبا أطراف الحديث، وبينما هما على هذا الحال، إذْ خرج حازم من مكتبه، ليرى الطّبيب يضحك مع نور، فأسرع إليه، وأمسكه من قميصه، ثمّ صرخ فيه:

- ألا تعرف بأنّها زوجتي يا هذا؟
- أبعد يدك عنّي.
وقام بدفعه بكلتا يديه، فعاد حازم لينقضّ عليه كذئبٍ جائع، يبحث عن أكل، يسكت به جوعه، بينما انتفض الثّاني، ليدافع عن نفسه، كلّ هذا ونور تصرخ فيهما، بأن يكفّا عن الشّجار، ولكن دون جدوى.

***

بمجرّد أن طلع النّهار حتّى رنّ هاتفي، ففتحتُه، لأرى من المتّصل، وإذْ بي أجده المدير، فأجبته.. وما إن فعلت حتّى انهال عليّ بالأسئلة، ولم يفسح لي المجال، لقول كلمة، فاكتفيتُ بالاستماع لنصائحه، التي يعيدها على مسامعي، في كلّ مرّة يلتقي بي، أو يكلّمني.. وبعدما انتهى من الحديث، وتعب من إسداء النّصائح، قال لي:
- أخبرني يا حامد، متى ستعود للعمل؟
- بصراحة.. كنتُ سأتّصل بك، لأكلّمك في الموضوع.. أنا أريد إجازة إضافيّة.
وما كدتُ أقول حتّى انتفض:
- ولكن كيف ذلك يا حامد؟ لا يمكنني الاستغناء عنك أبدًا.
فسكتٌّ، ولم أدرِ ما أقول، لأقنعه بأن يعتقني، ويعطيني إجازة إضافيّة، لأنّني أعرف مسبقًا، بأنّني سأفشل أمامه، لأنّه سيقنعني بمباشرة شغلي، بدلًا من ذلك، وذلك بأن يعطيني درسًا، في حبّ العمل، والإخلاص فيه، ليس هذا فحسب، بل سيجعلني أرفض رفضًا قاطعًا، تمديد الإجازة، وأتنازل عن راتبي، للجمعيّات الخيريّة، إن هو أراد ذلك طبعًا.

***

عادت نور مع زوجها للمنزل، وذلك بعد أن أنهيا دوامهما، وما إن دخلا حتّى صرخت فيه (قائلة):

- لقد سكتُّ، ولم أشأ أن أحرجك، في المشفى، لكن هذا لا يعني بأنّي راضية عن تصرّفاتك.. من اليوم فصاعدًا، عليك أن تفهم طبيعة شغلي، شغلي الذي هو شغلك أيضًا.. هل فهمت؟

- وهل طبيعة شغلكِ تقتضي عليك، بأن تضحكي مع زميلك؟ هل هذا من الاحترام في شيء؟ هيّا.. أخبريني.

- وطالما لا تراني محترمة، فلما تزوّجتني إذًا؟

سكت حازم، ولم يجبها، واكتفى بالذّهاب لغرفته، فلحقت به، وقالت:

- هاه؟ لم تجبني!

- وماذا تريدين منّي الآن؟

- أريد أن تحترمني، وتحترم زملائي، فليس من المعقول بأن تتشاجر، مع الكلّ، فقط لأنّهم كلّموني، أو سلّموا عليّ.

***

- ولكن لما لا تعود للمنزل؟

- كيف أعود، وقد ضربتُ أختي، حتّى كدتُ أقتلها؟

يقول أخو سارة، فيردّ عليه صديقه (قائلًا):

- ولكنّها لم تمت.

- أخشى أن تكون قد بلّغتْ عنّي.. لا تنسَ بأنّ الشّرطة تكون قد حقّقت، مع أمّي، التي من المؤكّد بأنّها أخبرتهم، أنّي الفاعل، وأنا لا أريد العودة،

لتلقيَ عليّ الشّرطة القبض، قبل أن أنفّذ ما في رأسي، وهو التّخلّص من هاني، وقتله، كما استباح حرمتي.

فسكت صديقه قليلًا، قبل أن يقول:

- هذا يعني بأنّك ستظلّ مختبئًا هكذا؟

- بقيَ القليل يا صاحبي، أعدك بذلك.

***

كان أبي مستلقيًا، حين دخلت أمّي، وفي يدها صينيّة، بها فنجاني قهوة، وكأس ماء.. قالت (بعد أن وضعت الصّينيّة، فوق المائدة):

- صباح الخير يا سالم.

- صباح الخير.

أخذت أمّي الفنجان، ثمّ ناولته لأبي، وقالت:

- حين رأيتُ بأنّك قد تأخّرت، في الاستيقاظ، على غير العادة، قرّرتُ أن أحضر لك فنجانًا، من القهوة، لتعدّل مزاجك.

فقال أبي (وهو شارد الذّهن):

- أحسّ ببعض الوهن، لا أكثر.

في هذه الأثناء نادت الخادمة لأمّي، فقامت.. وقالت لأبي:

- سأنزل، لأرى ماذا تريد، ثمّ أعود، لأشرب معك القهوة.

بقي أبي شارد الذّهن، ولم يقل حرفًا واحدًا، لأنّه كان يفكّر فيما قالته له، تلك الرّاقصة، عن العمّ مروان، أين راح يحدّث نفسه:

- إذًا مروان حيّ.. ولكن كيف ذلك، وقد قتله إلياس؟ هل من المعقول أن يكون..؟

وأخذ هاتفه، ليتّصل بإلياس، وما إن ردّ عليه هذا الأخير حتّى قال له:

- أريد منك أن تأتيني، في الحال، هل فهمت؟

وأغلق هاتفه، دون أن يتيح له قول حرفٍ واحد، وعاد ليمسك بالفنجان، وهنا دخلت أمّي، فقالت له:

- الحمد لله أنّني قد لحقتك، قبل أن تشرب القهوة، أما طلبتُ منك بأن تنتظرني؟

فابتسم، وقال:

- بالكاد حملتُ الفنجان.

***

اتّصل العمّ مروان بالرّاقصة، ولكنّه وجد هاتفها مغلقًا، فقال:

- هذه ثالث مرّة أتّصل بها، لأجد هاتفها مغلقًا، تُرى ما الذي حصل؟

ثمّ وضع هاتفه جانبًا، وأشعل سيجارة، ليرنّ هاتفه فجأة، فحمله بسرعة، ظنًّا منه بأنّ الرّاقصة هي التي اتّصلت به، ولكن خاب ظنّه، حين وجد بأنّه أحد رجاله، فلم يردّ عليه، وعاد لينشغل بتلك السّيجارة، وقد حاصرته الهواجس، من كلّ جانب، فلم تترك له منفذًا، لفعل أيّ شيء، فأخذ يفكّر في موضوع الرّاقصة، أين قال لنفسه:

- ليس من عادتها أن تُبقيَ هاتفها مغلقًا، كلّ هذا الوقت، منذ أن كلّمتها آخر مرّة، قبل أن تذهب لسالم، كان هاتفها مفتوحًا، ثمّ أغلقته، بمجرّد أن ذهبت إليه، ومنذ ذلك الحين لم تفتحه، أيُعقل بأنّه قد اكتشف أمرها، وقتلها؟ ولكن.. ما هذه التّخاريف، التي تفكّر فيها يا مروان؟ لا يمكن أن يكشف أمرها.

وأخذ كأسًا، وصبّ فيه الخمر، ليشربه دفعةً واحدة، وعاد بعدها لينهيَ السّيجارة، التي في يده، كلّ هذا وباله لا زال مشغولًا بأبي، والرّاقصة.

***

بعد أن جلست وردة، جلس هاني، ثمّ قال لها:

- أتعلمين؟ لم أكن أظنّ بأنّنا سنجلس، مثل هذه الجلسة، مرّة أخرى.

- لماذا؟

- آخر مرّة قمتِ فيها بطردي، من منزلكم، قطعتُ الأمل، في أن نعود، كما كنّا من قبل.

- دعنا من هذا الموضوع، ولنفتح صفحة جديدة، ما رأيك؟

فابتسم هاني، وقال:

- بمناسبة الصّفحة، ماذا ستأكلين؟

وهنا نظرت وردة لقائمة الطّعام، التي بين يديها، وهي على هذا الحال، حتّى جاء النّادل، وقال لهاني:

- ماذا أحضر لكما؟

.. وبعد مرور لحظات، شرعت وردة في الأكل، بينما ظلّ هاني يراقبها، وهي تأكل، حتّى انتبهت له، فقالت:

- ما بك؟ لما لا تأكل؟

- أحبُّ أن أتأمّلك، وأنتِ تأكلين.

فضحكت.. وقالت:

- على هذا لن تأكل أبدًا.

- لا يهمّ، لأنّنا نستطيع أن نأكل في أيّ وقت، أمّا أنتِ فلستِ متاحة، كلّ الوقت.
- أممم.. يبدو لي بأنّك قد أصبحت شاعرًا.
- ليس إلى هذا الحدّ.
سكت هاني قليلًا، ثمّ قال:
- كنت أريد أن أكلّمك، بشأن العرس.. عليكِ أن تجهّزي له.
- بمشيئة الله.
- إن احتجتِ لأيّ شيء، أخبريني، ولا تخجلي.
***
نظر أبي لساعته، التي كانت تشير للسّادسة مساءً، ثمّ قال لإلياس:
- ألم أطلب منك هذا الصّباح، أن تترك كلّ شيء، وتأتي إليّ حالًا؟ لما تأخّرت، أيّها الحيوان؟
فقال إلياس (بصوتٍ مرتجف):
- آسف سيّدي، لقد مرضت زوجتي، فأخذتها للمشفى.. ولهذا..
- هل ستقصّ عليّ قصّة حياتك كلّها؟
ثمّ اقترب منه، وأمسكه من قميصه، وهمس في أذنه (بغضب):
- أين دفنتَ جثّة مروان؟
فارتعدت فرائس إلياس، وانعقد لسانه، وقال:
- أ.. أأأ.. أين عساها تكون يا سيّدي؟ لقد دفنتها، في فناء بيت جدّي.
- يجب أن نذهب الآن، لأراها بأمّ عيني، أتفهم؟
- ولكن لما؟ ألا تثق فيّ سيّدي؟

- اخرص يا حيوان.. سنذهب معًا، وإن لم نجدها، فسأدفنك في بيت جدّك حيًّا، أتفهم؟

فبلع إلياس ريقه، واصفرّ وجهه، وأحسّ بأنّ نهايته قد أوشكت، ولكن لحسن حظّه، فقد رنّ هاتف أبي، في هذا الوقت، ليردّ على المتّصل، الذي أخبره بأنّه قد دخل للبلد، وأحضر له البضاعة، وعليه أن يأتيَ حالًا، ليعاينها.. نظر أبي لإلياس، بعد أن أنهى المكالمة، وقال:

- سأذهب الآن، وحين أفرغ ممّا في يدي، سنذهب معًا، لبيت جدّك.

فأومأ إلياس برأسه، وقال:

- أنا رهن إشارتك سيّدي.

- اغرب عن وجهي الآن.. هيّاا.

***

- أخبريني.. هل انطلت الحيلة على أمّك؟

قال عادل لجنّات، التي ضحكت، ثمّ قالت:

- أتشكُّ في قدراتي التّمثيليّة؟ طبعًا صدّقتني، وكادت تبكي من أجلي.

- لا تنسيْ بأنّني أنا الذي اقترحتُ الفكرة، بالإضافة للمكياج، والحبر الأحمر.. يعني لولا مساعدتي لك، لكنتِ الآن في عداد الأموات.

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله.. ولكن لما تدعو عليّ بالشّر.

- أنا أمازحك، ليس إلّا، أخبريني، هل علم أبوك، وأخوك بما حصل؟

- لا طبعًا، لقد أقنعتُ أمّي بألّا تخبرهما، لكيلا يقلقا، وبالكاد اقتنعتْ، لو علم هاني، أو أبي بما حصل، فستكون نهايتي.

فتنهّد عادل، وقال:

- الحمد لله أنّ هذه المشكلة قد انتهت بسلام، والآن عليّ أن أتركك، اعتني بنفسك، ولا تتّصلي بي أبدًا، حين يكون أخوكِ في المنزل، علينا أن نكون أكثر حذرًا.

- معك حقّ، سأحاول أن أكون حذرة أكثر، لا تقلق.. مع السّلامة.

استمع هاني لكلّ ما قالته، فقد وقف وراء الباب، لكي يتجسّس عليها، وذلك حين عاد للمنزل، وصعد الدّرج، أين سمعها تتكلّم، في الهاتف، فقرّر أن يقف، ليعرف ما الذي تفعله، من ورائه، فهو لم يصدّقها، حين نفتْ آخر مرّة، تحدّثَ فيها معها، بأن تكون على علاقة بعادل، وهو ما تأكّد منه للتّو، بعد أن سمع الكلام، الذي قالته، وإن لم يفهم ما الذي أخفته عنه، وعن أبي، إلّا أنّه قد بات متيقّنًا، بأنّها تكلّم عادل.. فقال:

- كنتُ أعرف بأنّكِ تكذبين عليّ، يجب أن أكلّف أحدًا، ليراقبها، فأنا أعرف البنات، وما يمكن أن يفعلنه، باسم الحب، تمامًا كسارة.

ثمّ عاد لغرفته، بينما استلقت جنّات على سريرها، لتصعد الخادمة في هذه الأثناء، وهي تحمل صينيّة، وما إن دخلت حتّى قالت لجنّات، التي تظاهرت بأنّها نائمة:

- سيّدتي.. لقد أحضرتُ لك القليل من الحساء، والفاكهة.

***

وضعتُ هاتفي جانبًا، واستلقيتُ على السّرير، لأفتح الباب لهواجسي، التي تزورني، من حين لآخر، وخصوصًا في اللّيل، ومن فكرة لأخرى، حتّى وجدتُ نفسي، أتذكّر يوم وفاة لبنى مرّة أخرى، فأحسستُ بضيق، يكتم على صدري، ليخنقني، فقمت، وأمسكتُ هاتفي مجدّدًا، لأنسى هذا الموضوع،

أين أخذتُ أتنقّل، من برنامج لآخر، ومن فيديو لمنشور، حتّى غفوت، لأرى لبنى تقف أمامي، ومعها نريمان، ليتكرّر بعدها نفس الحلم، الذي رأيته قبل وفاة لبنى، بحيث أنّهما ذهبتا، لتتركاني وحيدًا، أنادي عليهما، بأن تأخذاني معهما، ولكن دون جدوى.

***

كانت نريمان قد نامت، هي الأخرى، لتحلم بسهيل يناديها كالعادة:

- نريمان.. نريمان.. أين أنت؟ تعالي، أنا أنتظركِ هنا.

لتستيقظ، وتخرج من غرفتها، وهي شبه غائبةٍ عن الوعي، بفعل المنوّم، الذي أخذته.. ثمّ أخذت تنادي، هي الأخرى:

- سهيل.. سهيل.. أين أنت؟

سارت قليلًا، وما إن وصلت للدّرج حتّى فقدت توازنها، أين وقعت من عليه، فسمعت أمّي صراخها، أثناء وقوعها، وقامت مسرعة إليها، لتجدها مُمدّدة على الأرض، فصرخت بأعلى صوتها، ولحقتها فلّة..

***

..بقيتُ أصرخ بأعلى صوتي، وأبحث عن لبنى، ونريمان، ولكن ما من مجيب.. فأحسستُ بالحزن لفقدانهما، لدرجة أنّه قد كتم على صدري، وأنفاسي.. انتهى الحلم هنا، لأستيقظ بعدها، على وقع صراخ شخص، فقمتُ بسرعة، لأعرف مصدر الصّراخ..

خرجتُ من غرفتي، بعدما سمعتُ صراخ أمّي، وفلّة، وإذْ بي أرى ذلك المنظر، أين كانت أمّي جالسة، بالقرب من نريمان، محاوِلةً إيقاظها، ولكن دون جدوى، فهذه الأخيرة كانت قد ماتت.

لم أستطع النّزول للأسفل، لأنّني وببساطة قد فقدتُ السّيطرة، على رجليَّ، فبقيتُ واقفًا في مكاني، وأنا في حالة ذهول.. قام في هذه الأثناء خالد، ليرى ما رأيته، فنزل مسرعًا لأمّي، التي انهارت من شدّة الصّدمة، لينتشلها من على الأرض، وساعدته في ذلك فلّة، وأخذاها بعد ذلك للصّالون، أين قامت الخادمة، لتساعدهما، أمّا أنا فقد أحسستُ بوهن فظيع، ولكنّني حاولتُ أن أتماسك، لأنزل إلى حيث كانت نريمان، وما إن اقتربتُ منها حتّى جثوت، على ركبتيَّ، ووضعتُ إصبعي على رقبتها، وضغطتُ على الوريد، وكم كانت صدمتي، حين لم أجد أيّ نبض.. وهنا رفعتُ رأسها، لأضعه على يدي، فوجدتُ القليل من الدّم، على الأرض، فرحتُ أنظر لوجهها، الذي ابيضّ، وازداد جمالًا، عن ذي قبل، فأضحت وكأنّها عروسٌ نائمة.. أضحتْ عروسًا، في كامل زينتها.. رُحتُ أكلّمها، والدّموع تنهمر من عينيّ، أين قلتُ لها:

- سامحيني يا أختي، سامحيني، لأنّني لم أستطع أن أنقذك.

لأغرق بعدها في بحر، من الدّموع، تلك الدّموع التي نزلت، والتي لم يكن سببها موت نريمان، بالدّرجة الأولى، بل لأنّني لم أستطع تنبيهها، كما لم أستطع تأويل المنام، الذي رأيته أكثر من مرّة، والذي كان بمثابة إشارة لي، ولكنّني لم أفهمه وقتها.. والآن فقط استطعتُ ذلك، لكن بعد فوات الأوان.

***

بعد أن طلع النّهار، جاء النّاس من كلّ مكان، ليعزّونا في مصابنا، فامتلأ البيت عن آخره بمعارفنا، وزملائي، وباختصار كلّ أهل المدينة.. لتسود حالة الحزن البيت برمّته.

وقفتُ بجانب أبي، وخالد، وهاني لنستقبل المعزّين، الذين انهالوا علينا من كلّ مكان، الرّجال منهم، أمّا النّساء فاكتفين بتقديم واجب العزاء، لوالدي خاصّة، ثمّ اتّجهن بعدها لأمّي، وفلّة ليقدّمن لهما واجب العزاء، ثمّ دخلت وردة، وأمّها، ومعهما جهينة، فسلّمن علينا، ودخلن إلى حيث تجلس النّساء، في الدّاخل.

***

كانت نور في مكتبها، حين دخلت رشا، وقالت:

- ألم تسمعي ما حصل؟

فرفعت نور رأسها، ثمّ قالت (بلامبالاة):

- لا تقولي لي بأنّ المدير قد تشاجر، مع أحد الأطبّاء؟

ثمّ عادت لتواصل التّدقيق، في الملف الذي أمامها، فقالت رشا:

- لا.. لقد سمعتُ للتو، بأنّ أخت الدّكتور حامد، قد توفّيت البارحة.

فاتّسعت عينا نور، ثمّ قالت (بذهول):

- ماذا قلت؟ أخت حامد؟

- أجل..

- هل أنتِ متأكّدة؟

- أجل.. قلت لك، لقد أخبرني طبيبٌ للتّو، وذلك بعدما ذهب عدد، من الزّملاء، ليعزّوا حامد، على أن يذهب الفوج الآخر، بعد قليل، وذلك بعد أن يعود الفوج الأوّل.. هل ستأتين معنا؟

كانت نور في حالة ذهولٍ تامّ، حين سألتها رشا، فيما إذا كانت تنوي الذّهاب معهم، أم لا، فلم تجبها، وهنا عادت لتسألها مجدّدًا:

- نور.. أين سرح خيالك؟

- هاه؟ أنا معك.

- لم تجيبيني.. هل ستأتين معنا؟

- أوه.. ليس قبل أن أسأل زوجي، انتظري حتّى أذهب إليه، وأسأله.

ذهبت نور لمكتب زوجها، وما إن أخبرته عن رغبتها بالذّهاب، لتقديم واجب العزاء، حتّى قال لها:

- لا.. لن تذهبي لأيّ مكان.

فاستغربت نور من ردّة فعله، ثمّ قالت:

- ولكنّها ابنة عمي!

- لا تجادليني.. قلت لكِ لن تذهبي، يعني لن تذهبي، ثمّ تعالي إلى هنا، ألم تخبريني سابقًا، بأنّكم في قطيعة تامّة، مع عمّكم هذا؟

- ولكن ذاك موضوع، وهذا موضوع آخر.

- لا يهمّني.. والآن اخرجي، ودعيني أنهي شغلي، من فضلك.

بقيت نور تنظر له لدقائق، وهي مصدومة، من موقفه الصّارم، والغريب في الآن نفسه، قبل أن تخرج، لتعود لمكتبها، أين قالت لها رشا:

- هاه؟ هل ستأتين معنا؟

- بصراحة.. لا.. لن آتيَ معكم؟
- لا تقولي لي بأنّ زوجك، قد رفض مجيئكِ معنا؟
- أجل.
- ولكن لماذا؟ أليس حامد ابنُ عمّك؟
- بصراحة.. حتّى أنا لم أفهم سبب رفضه، غير المبرّر هذا.
قالت نور، وهي تشعر بالإحباط، من تصرّف زوجها الغريب.

***

جاءت رشا مع بعض الزّملاء للمنزل، وبعد أن قدّمت واجب العزاء لي، ولوالدي، وإخوتي، دخلت مع زميلاتها للدّاخل.. ليجلسن، بعد أن فرغن من واجب التّعزية لأمّي، التي كانت تبكي بحرقة، على نريمان، والتي كانت في كلّ مرّة، تنعيها بتلك الكلمات، التي أدمت قلوب السّامعات، فبكيْن كلّهنّ، بمن فيهنّ وردة، وأمّها، وجهينة، ورشا، بينما كانت زوجة أبي جالسة، في الجهة المقابلة لأمّي، مع جنّات التي بكت بحرقة، هي الأخرى، على أختها، ظلّت زوجة أبي تراقب أمّي، في صمت، إلى أن لم يعد في استطاعتها الصّمود، أمام تلك الكلمات، التي اخترقت قلبها، بدون استئذان، فبكت بحرقة، لشعورها بالنّدم، لما اقترفته يداها، طوال هذه السّنين لأمّي، ولنا جميعًا.

***

كانت أمّ سارة في المطبخ، تغسل الأواني، بعد أن تناولت العشاء، هي وابنتها الصّغرى، أين دخلت عليها سارة، وقالت لها:
- هل لي أن أتحدّث معك - قليلًا - يا أمّي؟

لم تلتفت أمّ سارة لهذه الأخيرة، وبقيت تغسل الأواني، متجاهلة بذلك طلب ابنتها، فسحبت سارة أحد تلك الكراسي، التي تحيط بالمائدة، ثمّ جلست.. وبعد لحظاتٍ من الصّمت، قالت:

- أنا أعرف بأنّكِ لا تريدين التّحدّث معي، أو حتّى النّظر إليّ، وأعرف بأنّني قد خيّبتُ أملكِ فيَّ، كما خيّبه أخي من قبل، ولكنّكِ لا تعلمين لِما فعلتُ كلّ هذا.. طوال عمري وأنا أحلم باليوم، الذي أصبح غنيّة فيه، لأنتشلكم من هذا الفقر، الذي تركنا فيه أبي، رحمه الله، كنت أحلم بأن أحقّق لك، كلّ ما تمنّيته يومًا، وكلّ ما حَرمتِ نفسكِ منه، في شبابك، من أجلنا، ولكن لم أتوقّع أن يحصل لي هذا.

بكت سارة في هذه الأثناء، وبكت أمّها، ولكن لم تظهر لها ذلك، بل ظلّت تغسل الأواني، ظلّت تحاول أن تبدوَ قويّة، رغم تأثّرها بكلامها، عادت سارة للحديث (بعد أن مسحت دموعها):

- ولكن على ما يبدو، بأنّه لا مفرّ من الفقر.. يبدو بأنّه قد كُتب علينا، أن نبقى هكذا، مدى الحياة.

وقامت، لتعود لغرفتها، أمّا أمّها فقد ظلّت تبكي، حتّى بعدما غادرت، فسارة قد بكت على فقر أهلها، أمّا الأمّ فقد بكت على ما هو أهمّ، من الفقر، وهو شرف ابنتها، الذي ضاع، بسبب تافهٍ كهاني.

***

استلقت أمّ هاني على السّرير، أين راحت تتقلّب يمينًا، ويسارًا لعلّها تنام، ولكن دون جدوى، فتأنيب الضّمير تغلّب عليها، هذه المرّة، وحين عجزت عن النّوم، راحت تفكّر في كلّ ما فعلته، من شرور، في حقّ ضرّتها،

وأولادها الذين هم نحن، تذكّرتْ كيف أقنعتْ والدي، برفض زواجي بنور، وكيف كانت السّبب، في هروب رؤوف للأرجنتين، تاركًا بلده، وأهله، وأمّه وراء البحار، تذكّرتْ كذلك كيف كانت تكيد لنا، وذلك بأن كانت تقصد السّحرة، بهدف تدميرنا، وما موت نريمان، إلّا بسبب أحلام اليقظة، التي كانت تراها، من حين لآخر، فقد كانت - في آخر فترة - كثيرة الهذيان، هذا الهذيان الذي كنّا نعتقد بأنّ سببه، تلك الأدوية المهدّئة، أو لحزنها على سهيل، ولكن لم نفكّر يومًا، بأنّ سببه هو السّحر، الذي كانت زوجة أبي تدفع من أجله، أموالًا طائلة، وكلّ هذا لتشفي غليلها، وتطفئ نيران حقدها.

***

عدتُ لغرفتي، بعدما تفرّق النّاس من حولنا، لأغلق الباب على نفسي، أين استلقيتُ على السّرير، بالرّغم من اقتناعي التّام، بأنّني لن أنام، مهما حاولتُ لذلك سبيلًا، فتحتُ هاتفي في هذه الأثناء، لأقلّب تلك الصّور، حتّى وصلتُ للصّور، التي جمعتني بنريمان، يوم ذهبنا إلى الغابة، كنت أتفحّص تلك الصّور، وكأنّني أراها للمرّة الأولى، وما أسوأه من شعور، أن يرحل الإنسان، ليبقى منه بعض الصّور، والكثير من الذّكريات، كم هو شعور سيّء، أن يغادر شخصٌ عزيزٌ علينا، لنختزله في مجموعة صور، تُذكّرنا به، بين الحين والآخر، وكم آلمني قلبي، حين رأيت تلك الصّور، فأغلقت هاتفي بسرعة، ثمّ رميته فوق السّرير، وقمت، لأستحمّ بدلًا من ذلك، كنت أريد أن أطفئ تلك الجمرة، التي بداخلي، فلم أجد سوى الماء، وسيلة مُثلى لذلك، وليته فعل، ليته أطفأ تلك الجمرة، التي أطبقت على صدري، فكما دخلتُ للحمّام، خرجتُ منه بنفس الحزن، فهرعتُ للمنوّم، لعلّه ينسيني حزني، ولو لساعات.

***

ظلّ أبي يدخّن السّجائر، الواحدة تلو الأخرى، في محاولة منه لمواساة نفسه، ولكن دون جدوى، وذلك لأنّه أحسّ بفداحة الخطأ، الذي ارتكبه في حقّ نريمان، التي راحت ضحيّة لتسلّطه، وجبروته.. بعدما انتهى من تلك السّجائر كلّها، توجّه لقارورة الخمر، ليصبّ القليل منه، وما إن همّ بشربه حتّى سمع أمّي تهذي، وتقول:

- نريمان.. ابنتي.. نريمان، لا تذهبي.

لتستيقظ بعدها، أين نظرت للغرفة، وكأنّها لم تعرف، أين هي بعد، ثمّ أخذت تصيح، وتقول:

- أين ابنتي؟ أين هي نريمان؟

ففتح أبي باب الفرندة، ثمّ دخل للغرفة، وحاول تهدئتها، وما إن رأته حتّى صرخت فيه (قائلة):

- ابتعد عنّي، أيّها القاتل.. أنت من قتل ابنتي.

في هذه الأثناء كان جميع من في البيت، قد استيقظوا، فأسرعوا كلّهم لغرفة أمّي، ولحقتُ بهم أنا، آخر الأمر، وما إن دخلت حتّى وجدتُ فلّة، تمسك بأمّي، التي كانت تصرخ، محاولة تمزيق ثيابها، بعدما زال مفعول المهدّئ، الذي حقنتُها به، في الصّباح.

حاول خالد أن يهدّئها، ولكن بدون فائدة، ففي كلّ مرّة يحاول إقناعها بأنّ ما وقع لنريمان، إنّما هو قضاء، وقدر، إلّا وتعود للصّراخ، واتّهام أبي بقتلها، أبي الذي تراجع للوراء، ولم يدرِ ماذا يفعل، حيال هذا الاتّهام، الذي سمعه، كلّ من في البيت، فأسرعتُ إليه، طالبًا منه الخروج، ريثما تعود

لرشدها، فهي مجهدة بما يكفي لنعذرها، وهنا انسحب، ودون أن يقول كلمة واحدة، وقد بدا عليه الحزن.. أمّا أنا فقد عدتُ لأمسك بأمّي، التي لم تنفكّ عن الصّراخ، وطلبتُ من خالد، بأن يذهب بسرعة لغرفتي، ويحضر لي حقيبتي، لأعطيها أيّ دواء، أُسكتُ به ألمها.

***

عدتُ لغرفتي مرّة أخرى، بعد أن نامت أمّي أخيرًا، وهدأت الأوضاع، ثمّ استلقيتُ على السّرير، وبقيتُ هكذا، إلى أن بدأ اللّيل بالتّلاشي، لتحلّ محلّه أشعّة الشّمس، التي بدأت تنتشر، شيئًا فشيئًا، فقمتُ من فراشي، وفتحتُ باب الفرندة، لكي أتأمّل تلك الأشعّة، التي تنبعث من السّماء، فقلتُ في نفسي:

- وأشرقت الشّمس مجدّدًا، بعد ليلٍ طويل، وكئيب، أشرقت الشّمس، لتزيل ما في قلوبنا، من هموم، وتغسل ما في صدورنا، من أحزان، وتبعث في الحياة بهجة، وسرورًا.

وبقيتُ هكذا، أراقب منظر الشّروق، وكأنّني أراقبه لأوّل مرّة، إلى أن برزت الشّمس، من وراء الأفق مبتسمة، وكاشفةً عن نورها، الذي يبعث في النّفس، شعورًا بالأمان، لا يوصف، رغم كلّ ذاك الكمّ، من الحزن، الذي كنتُ أحسّ به.

***

- كم تمنّيتُ أن أسمع خبرًا كهذا، منذ سنين، ولكن لا بأس، والآن، الآن فقط، ستذوق طعم الألم، لتعرف بأنّ الله عدل يا أبا حامد.

قال هشام في نفسه، بعدما سمع خبر وفاة نريمان، وأخرج سيجارة، من جيبه، ثمّ عاد ليقول، ولكن بصوتٍ مرتفع، هذه المرّة:

- من اليوم فصاعدًا، لن تعرف معنى السّلام، وخاصّة أنّ هذا أوّل الغيث فقط.. أعدك بأن أحرق قلبك، كما أحرقت قلبي، وظلمت أمّي، سأريك من هو هشام يا سالم.

وأخذ نفسًا، من تلك السّيجارة، التي في يده، وضحك بصوتٍ مرتفع، ثمّ عاد للحديث:

- كُن على ثقة، بأنّني سأنكّد عليكم حياتكم.

***

دقّ الباب فجأة، فقام العمّ مروان فزعًا، ثمّ اتّجه للعين السّحرية، وبعد أن تعرّف على الطّارق، فتح له الباب، فقال إلياس:

- صباح الخير يا سيّدي.

فردّ عليه العمّ مروان (ببرود):

- هذا أنت؟

ودخل للصّالون، بعد أن تركه واقفًا، عند الباب، فدخل إلياس، ولحق بالعمّ مروان، الذي جلس في هذه الأثناء، وأمسك بكأس الخمر، فجلس في الجهة المقابلة له، وهنا قال العمّ مروان:

- ألم أنبّهك بألّا تأتي إلى هنا، قبل أن تتّصل بي، في الهاتف؟

فقال إلياس (وقد بدا عليه الخوف الشّديد):

- اعذرني يا سيّدي.. ولكن..

- ولكن ماذا؟ تكلّم.

- لقد طلب منّي السّيّد سالم، بأن أريه جثّتك، لأنّه يشكّ في موتك.
فاتّسعت عينا العمّ مروان، وشعر بالارتباك، ثمّ قال:
- ماذا قلت؟
- كما سمعت سيّدي، لقد طلب منّي بأن أريه جثّتك، وإلّا فسيقتلني، هذا ما قاله بالحرف، وبالكاد استطعتُ الإفلات منه، لذا جئتُ إليك، لتخبّئني عندك، ريثما ينسى الموضوع.
فتنهّد العمّ مروان، ثمّ وضع الكأس، وأخذ يفكّر في هذه المصيبة، التي حلّت عليه فجأة، فقال في نفسه:
- يبدو بأنّه قد علم من الرّاقصة، بأنّني أنا من أرسلتها لتقتله، وإلّا فلما سأل عنّي، بعد أن كان يظنّني ميتًا، كلّ هذه المدّة؟ يبدو بأنّه قد تخلّص منها، والآن يريد أن يصل إليّ، ليقتلني كما قتلها.
فقال له إلياس، ليقطع حبل أفكاره:
- سيّدي.. أين سرح خيالك؟
فنظر العمّ مروان لإلياس بريبة، وعاد ليحدّث نفسه:
- ألا يمكن أن يكون قد تفاهم، مع هذا الحيوان ضدّي؟ ولما لا؟
ثمّ قال لإلياس:
- الحقني.
وخرج الاثنان من البيت، وبعدما ركبا السّيّارة، اتّجه مروان لمستودع، كان يستعمله، في تخزين البضائع، وما إن وصلا حتّى نزل إلياس، ليفتح المستودع، بطلبٍ من العمّ مروان، وبعد أن دخلا، قال إلياس:
- ولكن.. لما أحضرتني لهذا المستودع سيّدي؟

فأخرج العمّ مروان مسدّسه، وأشهره في وجه إلياس، ثمّ قال:
- ألم تطلب منّي بأن أخبّئك؟ هأنذا سأفعل، لأجعلك تختفي من الوجود كليًّا.
ثمّ أطلق عليه الرّصاص، وبعد أن أرداه قتيلًا، قال:
- هذا جزاء كلّ خائن، اعذرني، ولكن لا مكان عندي للخونة، وما دمتَ قد بعتَ سيّدك، ووليّ نعمتك، فهذا يعني بأنّك ستخونني أيضًا.
وخرج من المستودع، ثمّ أغلقه جيّدًا، ليعود من حيث أتى.

***

كان هاني جالسًا، حين جاءه رجل، وقال له:
- أمرك سيّدي.
- اسمع يا مهنّد، أريد منك أن تراقب لي أحدهم.
- أنا رهن إشارتك، أعطني اسمه، وسأتبعه أنّى ذهب.
فنظر إليه هاني للحظات، قبل أن يرنّ هاتفه، وهنا قال:
- اذهب الآن، وسأكلّمك فيما بعد، لأخبرك ما الذي عليك فعله.

***

جلست نور، لتشاهد المسلسل كالعادة، وبقيت على هذا الحال، لمدّة ربع ساعة، أين تشاجر البطل مع زوجته، وخرج من البيت غاضبًا، لتبقى زوجته وحيدة، تفكّر في سبب انفعاله المتكرّر، والمشاكل التي يفتعلها، في كلّ مرّة، ثمّ راحت تتذكّر، كيف كان يعاملها، قبل الزّواج، وكيف تغيّر، لدرجة أنّه قد أصبح شخصًا مختلفًا، عن الذي عرفته.

فسرحت نور بخيالها، هي الأخرى، وتذكّرت تغيُّر حازم، إذْ لم يعد كما كان في السّابق، تمامًا كالبطل في المسلسل، وراحت تبحث عن سببٍ لتصرّفاته، فلم تجد أيّ مبرّرٍ لانفعالاته، إلّا الغيرة، فقالت:

- ولكنّه لم يكن يغار عليّ، قبل الزّواج، لابدّ أنّ هناك سببًا آخرًا، لا يريد أن يفصح عنه، وإلّا فلما تغيّر مع حامد، وتشاجر مع بعض زملائه، أتراه كان يمثّل عليّ، دور الشّاب الطّيب، فقط ليتزوّجني؟ أم أنّ هناك سببًا آخرًا؟ على كلّ حال عليّ أن أعرف، ما يدور في رأسه.

***

- والآن يا مروان، ماذا عليك أن تفعل، بعد أن اكتشف سالم الأمر؟

كان مروان يحدّث نفسه، باحثًا عن حلٍّ لهذه المشكلة، وخصوصًا بعد أن اختفت الرّاقصة، وهو ما يؤكّد بأنّ أبي قد قتلها، بعدما أخبرته بأنّ العمّ مروان، هو الذي بعثها، بهدف التّخلّص منه.. عاد للحديث:

- عليّ أن أختبئ في مكانٍ آمن، فسالم لن يرحمني، إن عثر عليّ هذه المرّة، لأنّه سيقتلني بنفسه، لكي يضمن رحيلي للأبد، عليّ ألّا أخطئ، كالمرّة السّابقة، فإمّا أن أكون أنا الرّابح، هذه المرّة، أو أكون الخاسر، إمّا أن أكون الغالب، أو المغلوب، هذه هي المعادلة الوحيدة، وسأكون الغالب بمشيئة الله.

***

بعد مرور بضعة أيّام، على وفاة نريمان، وفي ليلة من اللّيالي، جمع أبي رجاله، بأحد الأماكن، التي كانوا يجتمعون فيها أحيانًا، ليعقدوا اجتماعًا مصغّرًا، أو يتحدّثوا عن صفقة، فأبي كان لا يتكلّم، في مثل هذه الأمور، في

الهاتف، لخشيته من تجسُّس أعدائه عليه، فكان يبحث عن السّرية التّامة، في هذه الأماكن البعيدة، عن أعين النّاس.

وما إن اجتمعوا حتّى حذّرهم، من مروان، وطلب منهم البحث عنه، في كلّ مكان، وألّا يتركوا له مجالًا للهرب، فقال أحدهم:

- ولكن.. أتذكّر جيّدًا، بأنّك كلّفتَ إلياس بقتله.

فانتبه أبي لإلياس، ثمّ سأل رجاله:

- صحيح.. أين هو إلياس؟ لم أره منذ أيّام؟

فسكتوا كلّهم، وهنا أخرج أبي هاتفه، ليتّصل به، ولكنّ رقمه كان خارج مجال التّغطية، فقال أبي في نفسه:

- اللّعنة.. كيف نسيتُ أمره؟

ثمّ أمر أحد رجاله، بأن يذهب - حالًا - لبيت إلياس، ويحضره معه.

***

بعدما تناولت جنّات قرصًا، تركت العلبة على السّرير، ودخلت للحمّام، وفي هذه الأثناء دخلت أمّها، وإذْ بها ترى العلبة نفسها، التي رأتها آخر مرّة.. فنادت على جنّات، بصوتٍ مرتفع، فخرجت من الحمّام، مستغربة من صراخ أمّها، وما إن رأتها هذه الأخيرة حتّى قالت:

- ما هذه العلبة؟

أحسّت جنّات بالارتباك، ولم تدرِ ما تقول، فعادت أمّها لتسألها:

- ما هذه العلبة يا جنّات؟

فحاولت جنّات أن تماسك، لكيلا تثير الشّكوك، ثمّ قالت:

- هذا الدّواء للصّداع.

- لا تكذبي.. هذه الأقراص ليست للصّداع، بل هي مخدّرات.

وهنا أحسّت جنّات بتنميل، في أطرافها، وأصابها الذّعر، فاقتربت منها أمّها، وأمسكتها من ذراعها، ثمّ همست في أذنها:

- أتعتقدين بأنّني بلهاء، أم ماذا؟

- لا.. هذا الدّواء ليس مخدّر.. ولكن..

وهنا قاطعتها أمّها (قائلة):

- ألا تخجلين من نفسك، أيّتها الحمقاء؟ منذ متى وأنتِ تتناولين، هذه الأقراص؟ هيّا.. أخبريني.

- ولكن يا أمّي.. أنا لا أتعاطى شيئًا.

- من الذي أعطاكِ هذا الدّواء؟

وبينما هما على هذا الحال، إذْ دخلت الخادمة للغرفة، وقالت:

- سيّدتي.. كنت أبحث عنك.

فالتفتت أمّ هاني نحوها، ثمّ صرخت فيها (قائلة):

- ألم أطلب منكِ مئة مرّة، بأن تستأذني، قبل الدّخول بهذا الشّكل، أيّتها الغبيّة؟ هيّا.. اغربي عن وجهي حالًا.

فرّت الخادمة، قبل أن ينزل عليها غضب أمّ هاني، أمّا هذه الأخيرة فقد عادت، لتهمس في أذن ابنتها:

- سأنزل، لأرى ماذا تريد منّي، تلك الغبيّة، ولكنّي أعدك بأنّه سيكون لي حديثٌ آخر، مع أبيك، إن لم تعطني اسم الشّخص، الذي يقدّم لكِ هذه الأقراص.. والتّاريخ الذي بدأتِ تتعاطين فيه، هذه السّموم.

ثمّ خرجت، والشّرر يتطاير من عينيها، أمّا جنّات فقد أحسّت بشلل، أصاب أطرافها كلّها، لدرجة أنّها لم تعد تقوى، على الوقوف، فجلست، أين شرعت في البكاء، وأخذت تقول:

- ويلي.. ماذا سأفعل الآن، ما هذه المصيبة، التي حلّت عليّ؟

***

جهّزت نور العشاء، واتّجهت لغرفة النّوم، أين كان حازم مستلقيًا، ويقرأ أحد الكتب الطّبّية، فقالت له:

- لقد انتهيتُ - للتّو - من تحضير العشاء.

- لا أريد أن آكل.

بقيت نور واقفة، وهي ترمقه باستغراب، وغضب في الآن نفسه، فرفع بصره، وحين رآها على هذه الحالة، عاد ليقول لها:

- ألم أقل لك، بأنّني لا أريد أن آكل؟

- ألا ترى بأنّك قد تماديتَ كثيرًا؟

- أتريدين منّي أن آكل، وأنا ليس لي رغبة في ذلك؟

فقالت (بعد أن شعرت باليأس، من الحديث معه):

- لا.. العفو منك، اعذرني.

***

اتّصل بي المدير مرّة أخرى، لكي يحثّني على العودة للمشفى، وتناسي الأحزان، فالمرضى يحتاجون لكفاءتي، التي لا يملكها الكثيرون، هكذا قال لي، حين أحسّ بأنّني لا أرغب في العودة، ومع هذا الإصرار، لم أجد ما أقوله، سوى الموافقة على عرضه، وبعد أن أنهيتُ المكالمة، فكّرتُ في قرارة

نفسي، فوجدتُ بأنّ ما قاله عين الصّواب، فرغم مكوثي في البيت لأسابيع، وبالضّبط مذ توفّيت لبنى، إلّا أنّني لم أنسَ ما بداخلي، من حزن، على فراق هذه الأخيرة، ونريمان.

***

- أتعلمين؟ لم أعد أطيق تصرّفاته، لدرجة أنّني أفكّر في الانفصال.

قالت نور لرشا، فردّت عليها هذه الأخيرة (وهي مندهشة):

- لا، ما هذا الكلام يا نور؟ تنفصلين عن زوجك، ولم يمضِ وقتٌ على زواجكما؟ ماذا سيقول النّاس عنكما؟ ثمّ إنّي لم أعهدكِ متسرّعة.

- ولكنّكِ لا تعرفين حجم المعاناة، التي أعيشها معه كلّ يوم، فهو أناني، وغيور، بالإضافة لأنّه متقلّب المزاج، بصراحة، أحسّ بأنّني قد تسرّعت، في الزّواج منه، كان يجب أن أتعرّف عليه أكثر.

فضحكت رشا بأعلى صوتها، ثمّ قالت:

- تتعرّفين عليه؟ يا لكِ من مسكينة، أتعلمين؟ أمّي التي تزوّجت بأبي، منذ أكثر من ثلاثين سنة، إن سألتها هل تعرفين زوجك، فستجيبك بلا، فكيف ستتعرّفين على زوجك، في شهور؟

- المسألة ليست هنا، ولكن أحسّ بأنّ هناك سبباً، وراء تغيّره، فليس من المعقول، أن يمثّل عليّ دور الرّجل الطّيب، فأنا لستُ ساذجة، كيلا أميّز الطّيب عن الخبيث، من المؤكّد بأنّه قد حصل له شيء، قلب شخصيّته بهذا الشّكل، أحياناً أشكُّ في خطيبته.

- لا يسعني إلّا أن أطلب منكِ الصّبر، فكلّ الرّجال هكذا.

تنهّدت نور، ثمّ قالت:

- سأرى إلى أيّ مدى، يمكنني تحمّله.

***

دخل خالد، وبيده بعض الملفّات، لمكتب جهينة، وبعدما ألقى التّحيّة عليها، وعلى وردة، أعطى الملفّات لجهينة، ثمّ قال:

- إليكما هذه الملفّات، أرجو أن تراجعاها، وعندما تنتهيان، أعيدها لي.

فقالت جهينة:

- حسنٌ.

ثمّ خرج، ليعود لمكتبه، فقالت وردة لجهينة:

- أمم.. يا لكِ من محظوظة، فخالد شابٌّ مؤدّب.

فابتسمت جهينة، التي شعرت بالخجل، ثمّ قالت:

- ألم تسمعي كلامه؟ دعينا نراجع هذه الملفّات.

- نراجع الملفّات؟ لم أكن أعرف بأنّكِ نجولة، عمومًا معكِ حقّ، دعينا نتقاسم الملفّات، أنا آخذ واحدًا، وأنتِ تراجعين البقيّة، ما رأيك؟

ثمّ ضحكت، فقالت جهينة:

- أتريدين منّي أن أراجع عشرة ملفّات، في حين تأخذين واحدًا فقط؟ لا.. هذا ظلم.

- أنا أمازحك، ليس إلّا.. هاتِ تلك الملفّات.

- يا سلام، كنت أعرف بأنّكِ ستتنازلين، وتأخذينها كلّها.. شكرًا.

فقالت وردة:

- لا.. قلنا نقتسمها بالعدل، أنا آخذ خمسة، وأنتِ ستّة.

- وأين هو العدل، الذي تتحدّثين عنه؟

***

في هذه الأثناء كان خالد قد سار، بضعة أمتار، فوجد هاني في الرّواق، وهو يتشاجر مع أحد الحرّاس، بل وكان يريد ضربه، لولا تدخّل بعض الموظّفين، الذين اجتمعوا حول هاني، والحارس.. ليكوّنوا حلقة، فأسرع خالد إليه، ليفضّ الشّجار، ودخل وسط تلك الحلقة، ثمّ أمسك بهاني، ليبعده عن الحارس، وطلب من الجميع العودة لشغلهم، وبينما هو يسير مع هاني، محاولًا تهدئته، إذْ قال أحد الحرّاس لزميله:

- سبحان الله.. من يرى السّيّد خالد، لا يقول أبدًا بأنّ ذاك المغرور أخاه، شتّان بين الثّرى، والثّريّا.

- معك حقّ.. فالسّيّد خالد شخصٌ محترم، ولا يقبل بالظّلم، وهذا هو الفرق بينه، وبين أخيه، ذاك التّافه المتعجرف.

***

خرجت جنّات من الجامعة، متّجهة لسيّارة عادل، وهي في مزاجٍ سيّء جدًّا، فرآها الرّجل، الذي كلّفه هاني بمراقبتها، والذي ركن سيّارته، على مقربةٍ من باب الجامعة، وما إن تحرّك عادل حتّى انطلق وراءه، ليتبعه أنّى ذهب، إلى أن وصل للعمارة، التي يقع فيها منزله، فركن السّيّارة جانبًا، ثمّ نزل، ومعه جنّات، ليركن الرّجل سيّارته، خلف سيّارة عادل، ونزل هو الآخر، ليتّجه إلى العمارة، ويصعد خلفهما، وما إن رآهما قد توقّفا، عند الطّابق الرّابع، وتأكّد بأنّ عادل سيفتح الباب، حتّى دقّ باب منزل، في الطّابق الثّالث عمدًا، وما إن فتحت له صاحبة البيت حتّى قال:

- أليس هذا منزل السّيّد عبد القادر؟
فقالت المرأة:
- لا، أنت مخطئ.
فاعتذر منها، ونزل ليعود لسيّارته، وينتظر حتّى تخرج جنّات.. في هذه الأثناء كانت جنّات قد ذهبت للمطبخ، لتخرج الأكل الذي بحوزتها، من الكيس، وتضعه في صحن، ثمّ عادت للصّالون، فرآها عادل، الذي كان مستلقيًا، ثمّ قال (مستغربًا):
- لستِ على ما يرام.. لما أنتِ مكتئبةٌ هكذا؟
- لقد عثرت أمّي على علبة المخدّرات، التي كانت بحوزتي.
فقام عادل من مكانه فزعًا، ثمّ قال:
- ماذا قلت؟ ولكن ما بك؟ ألم أنبّهكِ سابقًا، إلى أن تحذري.
فقالت جنّات (بغضب):
- أرجوك.. لا أريد الكلام، في هذا الموضوع.. لستُ في مزاجٍ يسمح لي بالاستماع، لنصائحك القيّمة.
- ما دامت نصائحي لا تعنيك، فابحثي عن حلٍّ لمشكلتك، دون الرّجوع لي، مثل كلّ مرّة.
قال عادل كلامه، وعاد ليستلقيَ مجدّدًا، بعدما أخذ الصّحن خاصّته، أمّا جنّات فقد قامت، لتذهب للمطبخ، أين سحبت كرسيًّا، وجلست، لتعود للتّفكير في المشكلة، ثمّ قالت:
- أتمنّى بألّا تُخبر أبي بالموضوع، يا ربّ، ساعدني في هذه المصيبة.
***

ظلّ الرّجل الذي كلّفه هاني، بمراقبة جنّات، يسير في الطّريق، بعد أن أبطأت جنّات، وصديقها في الخروج، أين قرّر أن يتجوّل بسيّارته، لبعض الوقت، ثمّ يعود ليراقبها مرّة أخرى.. اتّصل بهاني في هذه الأثناء، ولكنّ هذا الأخير لم يجبه، فأعاد الاتّصال به مرّة أخرى، وهو على هذا الحال، وإذْ بسيّارة كانت أمامه، تتوقّف فجأة، بسبب طفل اجتاز الطّريق، دون التّأكّد من خلوّه، فاصطدم بها الرّجل، الذي لم ينتبه لها، حين توقّفت، لأنّه كان مشغولًا، بالاتّصال بهاني، وبالرّغم من أنّ الاصطدام لم يكن قويًّا، إلّا أنّ الرّجل قد فقد وعيه، ليتمّ نقله للمشفى.

***

ذهب أبي لسهرة، بأحد الفنادق الفخمة كعادته، ثمّ جلس في طاولة، مخصّصة لكبار رجال الأعمال، لتبدأ السّهرة بعد ذلك، أين بدأ المغنّي بالغناء، لتدخل بعده الرّاقصة، وما إن رآها أبي حتّى تذكّر الرّاقصة، التي قتلها، والتي أرسلها مروان، فحاصرته الهواجس، من كلّ ناحية، أين عاد بذاكرته للّحظة التي قبض فيها، على مروان، ليبرحه ضربًا، هو ورجاله بالتّناوب، قبل أن يتركه لإلياس، آخر الأمر، ثمّ راح يفكّر في اختفاء هذا الأخير، وهنا بدأ القلق يتسلّل لقلبه، وخاصّة أنّ رجاله قد بحثوا عن العمّ مروان، في كلّ مكان، ولم يعثروا عليه.. في هذه الأثناء كانت السّهرة قد وصلت لذروتها، بحيث قام البعض ليرقصوا، بينما اكتفى البعض الآخر بالشّرب، حتّى الثّمالة، إلّا أبي الذي بدا عليه الحزن، وهنا قال له أحد أصدقائه:

- ما بك يا سالم؟ لا تبدو اليوم بخيرٍ أبدًا.

فالتفت إليه أبي، ثمّ قال له:

- أشعر بالتّعب فقط.
ثمّ قام، ليذهب للحمّام، وهنا قال أحدهم (متسائلًا):
- لا يبدو السّيّد سالم بخير.
فقال له صديق أبي:
- لقد توفّيت ابنته، منذ أيّام.. ولهذا فهو ليس في أحسن حالاته.
فقال الآخر:
- لا يوجد أصعب من موت الابن.
***

استيقظتُ على السّادسة صباحًا، بعدما ضبطتُ المنبّه، في اللّيل، أين غسلتُ وجهي، ونزلتُ للمطبخ، لأعدّ القهوة، وبعد أن انتهيت، نظرتُ لساعتي، التي كانت تشير للثّامنة، فقمت، وبعدما خرجتُ من البيت، اتّجهت لسيّارتي، لأنطلق للمشفى، وما إن وصلت حتّى جاء طبيب، لكي يسلّم عليّ، وجاء آخر، وهكذا.. فكنتُ لا أمشي قليلًا، إلّا وألتقي بموظّف، فيأتي ليسلّم عليّ، وهو مستبشرٌ برجوعي، ثمّ يمضي لشؤونه، لأواصل طريقي، وفي الطّريق التقيتُ بحازم، فحيّيتُه، ولكنّه لم يجبني، وليس هذا فحسب، بل وتجاهلني تمامًا، ليواصل طريقه لمكتبه، وقد بدا عليه الانزعاج من رؤيتي، بحيث احمرّ وجهه، من شدّة غضبه، فواصلتُ طريقي، وأنا مستغرب، من ردّة فعله هذه.

***

كانت جنّات نائمة، حين رنّ هاتفها، فاستيقظت، لترى من المتّصل، ثمّ ردّت (قائلة):

- ألو..

فقال عادل:

- كيف حالك يا جنّات؟

فقالت (ببرود):

- أنا بخير.

- أخبريني.. هل أبلغت أمُّكِ أباك، بما حصل بينكما؟

- لا.. ليس بعد.

ففرح عادل، وقال:

- قلبي يحدّثني بأنّها لن تبلغه، بما حصل.

- آمل ذلك.. ولكن لما اتّصلت بي؟

- بصراحة، كنت أريد أن تقرضيني مبلغًا، وسأعيده لكِ الشّهر المقبل.

فتنهّدت جنّات، ثمّ قالت:

- من طريقة كلامك، قدّرتُ بأنّك ستقول هذا.

فقال عادل (بغضب):

- ماذا تقصدين؟

- لا أقصد شيئًا، لكن بالأمس فقط أقرضتك مبلغًا، وفي الأسبوع الماضي أقرضتك مبلغًا مثله، وفي كلّ مرّة تقول بأنّك ستعيده، ولا تعيد شيئًا.

فغضب عادل، ثمّ قال:

- أتهينينني بمالك؟ إذًا من هذه اللّحظة، لن أطلب منكِ شيئًا.

ثمّ أنهى المكالمة، فتأفّفت جنّات، وقالت:

- يا له من شخصٍ غضوب.

***

ظلّت أمّي جالسة، تنظر لتلك الطّيور، وبالها مشغول كليًّا، بينما كانت الخادمة تراقبها من النّافذة، التي في المطبخ، لتقرّر بعد ذلك بأن تذهب إليها، وتواسيها.. وما إن اقتربت من أمّي حتّى قالت:

- هل أعدّ لكِ فنجانًا، من القهوة سيّدتي؟

ولكنّها لم تجبها، وآثرت الصّمت، فتقدّمت الخادمة بضع خطوات، ثمّ جلست بالقرب منها، وقالت لها:

- أعرف بأنّ الحزن الذي بداخلك، لن يمحوه شيء، في الدّنيا، ولكن هذا هو حال الدّنيا، فلا أحد فيها بلغ الكمال، أو وصل للسّعادة.. ولكن ما يُهوّن علينا، هو أنّ لنا لقاءً، مع الذين غادرونا، وأنّ الفراق ليس بدائم.

ظلّت أمّي تنصت لكلامها، دون أن تعقّب، أو تضيف شيئًا، فبالرّغم من مظهرها، الذي يوحي للنّاظر بمدى حزنها، إلّا أنّ كلام الخادمة أراحها، بعض الشّيء، لما لها من إيمان قوي، بالرّغم من كلّ الصّعاب، التي مرّت بها، في حياتها، هذا الإيمان الذي تتحلّى به، والذي يؤثّر في كلّ من يجالسها، ويصغي لها، ولهذا لم تكن تعتبرها أمّي مجرّد خادمة، كسابقاتها.. بل كانت تعتبرها فردًا من العائلة.

***

أخرجت سارة كلّ الكتب، التي في الدّرج، ووضعتها على السّرير، ثمّ جلست، وأخذت تنظر للكتب، مفكّرة في اجتياز الدّكتوراه، فالتّجربة التي مرّت بها، جعلتها تفكّر بجدّية، في مستقبلها، كما لم تفكّر فيه من قبل.. أخذت كتابًا، وقالت:

- من الآن فصاعدًا، لن أفكّر في شيء، إلّا مستقبلي، والمستقبل هنا.
وأشارت للكتاب، الذي في يدها، وعادت للحديث:
- كنت أظنّ سابقًا بأنّ زواجي، من غني، هو الحلُّ الذي يخرجني من الفقر، الذي أعيش فيه، لكن لم أفكّر يومًا، بأنّ من لا يعتمد على نفسه، في رسم مستقبله، سيعيش حياته ذليلًا.

***

خرجتُ من مكتبي، لأذهب للمدير، وفي طريقي سمعتُ أحدًا، ينادي عليّ، فالتفتُّ خلفي، لأرى من المنادي، وإذْ بها نور التي خرجت للتّو، من مكتب صديقتها، وما إن رأتني حتّى نادتني، لتعزّيني، فبقيتُ واقفًا في مكاني، إلى أن دنت منّي، وقالت:
- حامد.. كيف حالك؟ هل عدت للشّغل؟
- أنا بخير.. أجل، لقد استأنفتُ العمل.
- كنتُ أريد أن أعزّيك.. أنا آسفة، لأنّني لم آتِ لأعزّيكم، فقد كنتُ مريضةً يومها.
- لا عليك.
ونحن على هذا الحال، إذْ جاء الدّكتور حازم، بعد أن مرّ على مكتب نور، ولم يجدها، فقرّر البحث عنها، في أرجاء المستشفى، وكأنّ قلبه قد أخبره بشيء ما، وما إن رآها تكلّمني حتّى جُنّ جنونه، أين أقبل نحونا، كذئبٍ مسعور، وبدون مقدّمات نظر إليّ، وصرخ (قائلًا):
- ألن تكفّ عن ملاحقة زوجتي؟
فنظرتُ له مستغربًا، بينما صرخت فيه نور (قائلة):

- ويحك، كيف تقول هذا الكلام؟ ألا تعرف بأنّه ابن عمّي؟
- عليكِ أن تخرصي، فأنا لم أوجّه لكِ الكلام، ثمّ ماذا تفعلين هنا؟
فشعرتُ بغضبٍ عارم، ولكنّني حاولتُ أن أتحكّم في نفسي، لا لشيء، سوى أنّ نور كانت واقفة، وقد بدا عليها التّوتّر، هي الأخرى، وفي هذه الأثناء أحسّ حازم، بأنّ كرامته قد أُهدرت، وخاصّة حين لزمنا الصّمت، فعاد للصّراخ مرّة أخرى:
- هيّا.. عودي لمكتبكِ حالًا.
فقالت نور (بغضب، وتحدٍّ):
- لستُ طفلة، لتُمليَ عليّ، ما الذي يجب فعله.
وهنا لم يستطع حازم السّيطرة، على نفسه، فقال لها:
- تتحدّينني إذًا؟
ورفع يده، ليضربها، فأمسكتُها، وضغطتُ عليها بغضب، وقلت له:
- إيّاك أن تعود لهذا التّصرّف.
فقال لي (بعد أن أفلت يده، من يدي بالقوّة):
- وماذا ستفعل، إن عدتُ لهذا التّصرّف؟
فأمسكته من قميصه، وقلت له، بعد أن تجاوز حدوده معي:
- سأقتلك بيديَّ هاتين.. أتفهم؟
وهنا احتدم النّزاع بيننا، وتحوّل لتشابك بالأيدي، فبدأت نور بالصّراخ، والتفّ حولنا المارّة، من الممرّضين، والأطبّاء، وهم مندهشون، لأنّهم لم يعهدوني محبًّا للمشاكل، وكلّهم يشهدون بأخلاقي.

***

اتّصل هاني بالرّجل، الذي كلّفه بمراقبة جنّات، فأخبره بأنّه قد اصطدم بسيّارة، ونُقل للمشفى، فتأسّف هاني لأجله، وبعد أن هنّأه بنجاته، سأله عن الأخبار، فأخبره الرّجل بكلّ ما رآه، ليُجنّ جنونه، فأخذ يهدّد بقتل جنّات، وما أن سمعته أمّه حتّى أسرعت، لتستفسر منه.. في هذه الأثناء عادت جنّات، وصعدت للطّابق الثّاني، فسمعت هاني يصرخ، ولكنّها لم تكترث، فقد تعوّدت عليه، سارت إلى غرفتها، وما إن فتحت الباب حتّى سمعته، يتكلّم عنها، فتوقّفت، لتنصت لما يقوله:

- ابنتكِ المصون.. ابنتكِ المدلّلة..

فقالت أمّ هاني (بغضب):

- ما بها؟

- ابنتكِ المصون تلتقي بعشيقها، في إحدى العمارات.

فلطمت أمّ هاني وجهها، ثمّ قالت:

- ماذا قلت؟

وهنا شعرت جنّات بالذّعر، فتراجعت للوراء، وبالضّبط للدّرج، وهمّت بالنّزول مجدّدًا، قبل أن تتراجع، أين قرّرت أن تسمع باقي الكلام، كان في هذه الأثناء هاني يقصّ على أمّه، ما أخبره به الرّجل، فقال:

- لقد كلّفتُ أحد رجالي بمراقبتها، ففعل، وليته لم يفعل يا أمّي، ليته لم يفعل، فقد أخبرني بأنّه رآها، تخرج من الجامعة، لتركب مع شابٍّ، في سيّارته، ثمّ أخذها، ليدخلا لإحدى العمارات.

وهنا تأكّدت بأنّه قد علم، بكلّ شيء، فنزلت للأسفل، لتنجو بجلدها، فهي تعرف ماذا يمكن أن يفعل، إن غضب.. أمّا هاني فقد عاد ليهدّد، ويتوعّد، وأمّه تحاول تهدئته، وثنيه عن قراره هذا، وذلك بأن قالت:

- اهدأ يا هاني، أرجوك.. سيسمعنا الخدم، اهدأ، ولا تفضحنا.

- هذا ما يهمّكِ أنت، مكانتكِ في المجتمع الرّاقي، وتلك التّجمّعات النّسوية التّافهة، أمّا ابنتكِ فلا تهمّكِ أبدًا.

- اخرص.. أيّها الأحمق، قبل أن يسمعنا أحد الخدم، فيبلّغ أباك، الذي لن يتوانى في قتلها.. علينا أن نفهم منها أوّلًا، ونتصرّف بعد ذلك.. أليس من الممكن أن يكون هذا الرّجل مخطئًا؟

- أقول لها كلّفتُ رجلًا لمراقبتها، وهي تقول لي لعلّه يكون مخطئًا!

***

ظلّ عادل يراقب خالد، ويتبعه من مكانٍ لآخر، إلى أن حلّ الظّلام، أين دخل خالد لأحد المحلّات، وهنا نزل عادل من سيّارته، بعدما ركنها في شارعٍ جانبي.. وبقي ينتظر خروجه من المحل، وما إن خرج، واجتاز الطّريق لسيّارته، حتّى اقترب عادل منه، كان خالد في هذه الأثناء قد ركب سيّارته، لينطلق للبيت، فرمى عادل نفسه أمام السّيّارة، ليصطدم به خالد.. فوقع عادل، وبدأ يئن، ويتوجّع، وهنا أوقف الآخر السّيّارة، ثمّ نزل مسرعًا نحوه، ودنا منه، ثمّ قال:

- هل أنت بخير سيّدي؟

وأمسكه، محاولًا أن يسنده، كلّ هذا وعادل ما زال يئن، ويقول:

- ظهري يؤلمني.. ورجلي أيضًا.

فاقترح خالد نقله للمستشفى، فوافق، وهنا ساعده على القيام، وما إن وضعه في السّيّارة، وركب، حتّى استلّ عادل السّكين، من جيبه، مستغلًّا انشغاله، بتشغيل سيّارته، وغرز السّكين في بطنه، ثمّ سحبه، ليطعنه في الصّدر، طعنة كانت كفيلة بقتله، وبعد تأكّده من موته، وخلوّ الشّارع، فتح باب السّيّارة، وقبل أن يلوذ بالفرار، تريّث قليلًا، حين رأى هاتف خالد، الذي أعجبه، وبعد أن أمعن فيه النّظر، قال:

- اعذرني.. سآخذ هذا الهاتف، لأتذكّرك دائمًا، فأنا أولى به منك.

ونزل من السّيّارة، وسار باتّجاه سيّارته، محاولًا التّصرّف بشكل طبيعي، لكيلا يثير انتباه أحد.

***

بعدما ركب عادل سيّارته، انطلق مسرعًا، وفي الطّريق توقّف، لكي ينزع سترته، ويضعها في حقيبة، مع السّكين، وواصل طريقه، لبيتهم القديم، أين أدخل سيّارته لفناء البيت، وخرج تاركًا السّيّارة، مع الحقيبة بالدّاخل، وواصل طريقه راجلًا، ليذهب للبيت، الذي استأجره، من أجل جنّات، لكي يستحم، ويزيل بقايا الدّم، التي علقت بجسمه.

***

كان أبي جالسًا في غرفته، فجاءته الخادمة مسرعة، لتبلّغه بقدوم رجال الأمن، فاستغرب من قدومهم، في هذا الوقت المتأخّر، وبعدما غيّر ثيابه، نزل للطّابق الأرضي، وتوجّه للصّالون، أين جلس الرّجال ينتظرونه، وما إن دخل، وألقى التّحيّة، حتّى سألهم عن سبب الزّيارة، فأخبره أحدهم، بأنّهم

قد وجدوا خالد مقتولًا، لينزل هذا الخبر عليه كالصّاعقة، فقام من مكانه، وقال:

- ماذا؟ خالد مات؟ لا يمكن.. لا يمكن أن يموت، أنتم تكذبون.

***

بعد أن سمعت أمّي بوفاة خالد، لم تصدّق الخبر، فأخذت تنظر لمن حولها بذهول، فهي بالكاد تقبّلت رحيل نريمان، بالكاد تجاوزت الأزمة، دون أن تُشلّ، أو تموت، ليموت ابن آخر؟ قالت لفلّة (التي كانت تنوح):

- لما تبكين؟ أخوكِ لم يمت، لا يمكن أن أصدّق.. خالد، ونريمان؟

ووضعت يدها على قلبها، من شدّة الألم، فأسرعت الخادمة إليها، قبل أن تسقط مغشيًّا عليها، وقامت فلّة مسرعة نحوها (وهي تصرخ):

- أمّي.. أرجوكم، اتّصلوا بحامد.. بسرعة.

***

جلس معي الدّكتور سمير، لنراجع بعض الملفّات، ونحن على هذا الحال، إذْ رنّ هاتفي، فأخرجته من جيبي، لأغلقه كُليًّا، فأنا لم أكن في مزاجٍ، يسمح لي بالكلام، ولكنّي فوجئتُ بفلّة تتّصل.. فأجبتها:

- ألو.. فلّة.. هل من خطب؟

كانت فلّة تبكي بحرقة، فلم أفهم منها أيّ كلمة، فعدتُ لأسألها:

- هل أمّي بخير؟

- يجب أن تأتي حالًا، إلى المنزل.

- لماذا؟ ما الذي حصل؟

- خالد..

فقمتُ من مكاني، وقلت:
- ما به خالد؟ تكلّمي..
- خالد مات، لقد قتلوه يا حامد.

وهنا سقط الهاتف من يدي، دون أن أشعر، فأسرع سمير إليّ، وحاول أن يسندني، أمّا أنا فاكتفيتُ بوضع يديَّ، على رأسي، محاولًا استيعاب الأمر، لأسقط على الأرض، بعد أن أُغمي عليّ، فأسرع سمير، ليطلب المساعدة.. أين نُقلتُ بعدها، لإحدى غرف المرضى.

***

- سيّدي.. أريد منكم أن تغيّروا أيّام عملي، أنا وزوجتي.
قال الدّكتور حازم للمدير، فردّ عليه هذا الأخير (بغضب):
- اسمع يا حازم.. أنا مسؤولٌ عن هذا المستشفى برمّته، ولستُ مسؤولًا عنك فقط، في الفترة الأخيرة لاحظت، بأنّك صرت تفتعل المشاكل، مع زملائك، وآخر مرّة كانت اليوم، مع الدّكتور حامد.
احمرّ وجه حازم، وتوتّر حين سمع كلام المدير، ولكنّه ظلّ صامتًا، وهنا عاد المدير للحديث:
- حاليًّا لا يمكنني تغيير التّوقيت، حتّى أجد آخرينْ، لأغيّر لهما أوقات العمل، فلا يمكنني ترك مكانك شاغرًا، ونفس الأمر بالنّسبة لزوجتك.
فقام حازم، ثمّ قال:
- أستأذنك في العودة لمكتبي.
فأومأ المدير برأسه، ليخرج حازم غاضبًا، أين قال المدير (باشمئزاز):

- يا له من متعجرف، من يظنّ نفسه؟ أيظنّ بأنّني تحت تصرّفه؟ أم يظنّ بأنّ المستشفى ملك لأبيه؟

***

ذهب أبي مع رجال الأمن، ليتأكّد بنفسه، وما إن رأى جثّة خالد حتّى بدأ بالصّراخ، فأمسكه رجال الأمن، محاولين تهدئته، ثمّ أخذوه لإحدى الغرف، أين عاد ليهدّد، ويتوعّد، وهو يحثّ رجال الأمن، على أن يعثروا على القاتل، ويسلّموه له، ليقتله بكلتا يديه، ثمّ رفع يديه، وضمّهما مع بعض بقوّة، لكي يبيّن لهم بأنّه سيقتل القاتل خنقًا.. في هذه الأثناء دخل أحد الحرّاس، وهو يحمل كأسًا به ماء، ليقدّمه له.. أمّا الضّابط فاكتفى بالقول، بأنّهم سيفعلون ما في وسعهم، للقبض عليه، في أقرب وقت.. وأنّها مسألة ساعات، أو أيّامٍ كأقصى تقدير.

***

ما إن فتح عادل الباب، ودخل، حتّى سمع حركة بغرفة النّوم، فارتعدت فرائسه، أين تعوّذ من الشّيطان، اختفى الصّوت في هذه الأثناء، فتنفّس عادل الصّعداء، ثمّ ما لبث أن عاد، فقال:

- يبدو بأنّ صاحب المنزل خدعني، حين أجّر لي هذا البيت المسكون، وإلّا فمن ذا الذي يمكنه أن يدخل للبيت، عدا جنّات؟

ثمّ قرّر الذّهاب لغرفة النّوم، ليتأكّد من مصدر الصّوت، فرأى النّور، في الغرفة، أين أحسّ برعشة، تسري في جسده، فقال (بصوتٍ مرتفع):

- من هناك؟

ففُتح الباب، وهنا تراجع عادل للوراء (وهو يقول):

- أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم.. هل أنت من الإنس، أم الجن؟

وإذ بها جنّات، تخرج من الغرفة، وما إن رآها حتّى قال (مستغربًا):

- هذه أنت؟ ما الذي جاء بك؟ ولما لم تخبريني بأنّكِ هنا؟

- لقد هربتُ في آخر لحظة، من أخي هاني.

- لماذا؟ ما الذي حصل؟

- لقد استأجر رجلًا، ليراقبني، وهذا الأخير أخبره بأنّنا نلتقي خفية.

- هذا يعني بأنّه قد بات يعرف عنواننا؟

- أجل..

- وماذا تنتظرين؟ هيّا، جهّزي نفسك.

- ولكن إلى أين؟

- علينا أن نهرب، قبل أن يأتي، ويقتلنا.

***

بعد أن نُقلتُ لإحدى غرف المرضى، حرص سمير على البقاء بجانبي، ولم يتركني للحظة، حتّى عدتُ لوعيي، وكم تمنّيتُ لو لم أعد لوعيي، فما إن فتحتُ عينيَّ حتّى عادت بي الذّاكرة، للتّوقّف عند اتّصال فلّة، وبالضّبط عند جملة: خالد مات..

وفي هذه الأثناء التفّ حولي العديد، من الزّملاء، ليقدّموا لي التّعازي.. وكلّهم مشفقون على حالي، وخاصّة أنّه لم تمضِ أيّام، على وفاة نريمان، أمّا أنا فكنتُ حاضرًا معهم بجسدي، ولكنّ روحي لم تكن تفكّر، سوى في حالة أمّي، وأهلي، وأبي، فقمتُ من فراشي، وما كدتُ أفعل حتّى دخل المدير، الذي ربت على كتفي، وقال:

- لا تحزن يا حامد.. فكلّنا مجرّد ضيوف، على هذه الأرض.

كلامه هذا أثّر فيّ، لدرجة أنّ الدّموع نزلت منهمرة، من عَيْنيّ، فوضعتُ يديَّ على وجهي، لشدّة خجلي من زملائي، فنحن الرّجال قد ولدنا، بمجتمعاتٍ تُحرّم علينا البكاء، وإظهار ضعفنا، وانكسارنا أمام الآخرين، وهنا لم يتمالك المدير نفسه، فقال لي:

- ابك.. ابك يا بُنيّ، فالبكاء يريح القلب.

خرجتُ بعد ذلك، من المشفى، لأعود للمنزل، وأشارك أهلي حزنهم، فهم أحوج لي، في لحظاتٍ كهذه، وخرج معي سمير، الذي أخذ على عاتقه إيصالي للبيت، وخاصّة أنّ حالتي لا تسمح لي، بأن أسوق.

وفي طريقنا للمنزل، ظلّ سمير يلتفتُ إليّ، من حين لآخر، ليتأكّد بأنّي بخير، أمّا أنا فقد بقيتُ شارد الذّهن، أنظر لتلك الشّوارع الخالية، من خلف النّافذة، والتي لم تمتلئ بالمارّة، فالسّاعة وقتها لم تتجاوز السّادسة صباحًا بعد.. بقيتُ على هذا الحال، حتّى وصلنا، ففتحتُ باب السّيّارة، وهرعتُ مسرعًا للمنزل، لأجد حركة في الدّاخل، أين قدم بعض الأقارب، ممّن سمعوا الخبر، ليقدّموا واجب التّعزية، فتذكّرتُ يوم وفاة نريمان، ليعود ذاك المشهد لمخيّلتي.

***

ظلّ عادل - طول اللّيل - يتقلّب يمينًا، ويسارًا حتّى طلع النّهار.. كان يفكّر في العواقب، يفكّر فيما فعله مع خالد، وما الذي ينتظره من هاني، جرّاء ما اقترفته يداه، في حقّ جنّات، فقام من فراشه، أين اتّجه للنّافذة، وفتحها.. ليستنشق بعضًا من الهواء، لعلّه يُطلّق تلك الهواجس بالثّلاثة، ولكن هيهات، فصورة خالد لم تفارقه، وكأنّه قد أحسّ بتأنيب الضّمير، التفت خلفه، فرأى

جنّات، التي بدت متوتّرة أيضًا، فقد استيقظت في اللّيل عدّة مرّات، وهي مذعورة، وفي كلّ مرّة تستيقظ إلّا وتقول:

- لا تقتلني يا هاني.. أرجوك.

بقي عادل للحظاتٍ يتأمّلها، وهي نائمة.. قبل أن يعود ليطلّ من النّافذة، أين أخذ يحدّث نفسه:

- لقد ثقل حسابك مع عائلة جنّات، نهايتك ستكون على يد أحد أفراد، هذه العائلة، هذا إن لم تصل إليك الشّرطة قبلهم.

***

دخلتُ للبيت، فرأيتُ أمّي جالسة، وبجانبها تجلس الكثير من النّساء، اللّاتي جئن من كلّ مكان، ليعزّينها في مصابها، أمّي التي بُحّ صوتها، من الصّراخ، فما عادت تقوى على البكاء.. وقفتُ في مكاني، أنظر لها، وللنّساء المقبلات إليها، ليسلّمن عليها، وما إن رأتني حتّى قالت:

- حامد؟ بُنيّ.. لقد ذهب أخوك، دون أن يودّعنا.

فأجهشتُ بالبكاء، لسماع هذا الكلام، ومشيتُ نحوها بخطى متثاقلة، توحي بالتّعب، لأعانقها، وأواسيها في مصابها هذا، أو لأواسيَ نفسي، من خلال معانقتها، فكلانا يحتاج الآخر ليواسيه، وكلانا يحتاج لمشاركة الآخر، في تقاسم هذا الحزن، فالحمل كان ثقيلًا علينا، ولذلك وجب علينا جميعًا تقاسمه.

بكاؤنا نحن الاثنين، بالإضافة لكلام أمّي الحزين، أثّر في جميع النّساء الموجودات بالصّالون، ما جعلهنّ يبكين معنا، بكاؤهنّ خفّف علينا بعض الوجع، بالرّغم من قناعتي التّامة، بأنّ أغلبهنّ إنّما بكين، لأسباب خاصّة بهنّ شخصيًّا، فمنهنّ من تذكّرت عزيزًا رحل، ومن بكت حظّها العاثر، وأخرى

لمشاكل بينها، وبين زوجها، وغيرهنّ بَكَيْنَ لأسباب أخرى، إلّا أنّ القاسم المشترك بيننا، هو الشّعور بالألم، والذي لا يخفّف من شدّة وطأته، سوى مشاركته، وذلك من خلال البكاء مع الآخرين.

***

ظلّت أمّ هاني تنوح، على ابنتها، وهي تشدّ رأسها بخمار، لإحساسها بالصّداع، فهي لم تنم طول اللّيل.. التفَّتْ حولها الخادمات، ليواسينها، إلى أن جاء هاني مسرعًا إليها، وما إن رآهنّ حتّى صرخ فيهنّ:

- هيّاا.. بسرعة.. عدن لأشغالكن.

ثمّ التفت لأمّه، وهمس في أذنها (قائلًا):

- أتريدين أن تفضحينا، كم من مرّة طلبتُ منك التّكتّم، عن الموضوع؟ حتّى نجد حلًّا، لهذه المصيبة.

فقالت أمّه، وهي تمسك رأسها، بكلتا يديها، من فرط الألم:

- أريد ابنتي حالًا.. ابنتي ضاعت يا هاني.. ضاعت، ولن تعود.

فجلس بجانبها، ثمّ نادى على الخادمة، وطلب منها بأن تحضر لها، أيّ شرابٍ مهدّئ للأعصاب.. فقالت له أمّه:

- والآن.. ماذا علينا أن نفعل؟ كيف سنتصرّف، لو سأل أبوك عنها؟

فسكت قليلًا، ثمّ قال:

- يجب أن أذهب للبيت.. من المؤكّد بأنّهما لم يغادراه بعد.

- أرجوك يا هاني.. لا تقتلهما.

- سأحاول.

قال هاني لأمّه بغضب، ثمّ قام من مكانه مسرعًا، ليبحث عنهما، قبل أن يهربا، أمّا أمّه فقد نادت للخادمات، وأخبرتهنّ ما يجب عليهنّ فعله، إن عاد أبي للمنزل.

***

كانت وردة في مكتبها، مع جهينة كالعادة، أين رأت حركة غير عادية، في الرّواق، فقالت لجهينة:

- سأخرج، لأعرف سرّ هذا التّجمع.

فلم تكترث جهينة للموضوع، وعادت لتكمل الملف، الذي بين يديها، أمّا وردة فقد ذهبت لأولئك الموظّفين، الذين وقفوا في الرّواق، وقد بدا عليهم الحزن، والدّهشة في آنٍ واحد، فاقتربت منهم، وقالت لأحدهم:

- ماذا هناك؟

- لقد توفّي السّيّد خالد.. وقد اتّفقنا بأن نذهب كلّنا، لنعزّي أهله.

فاتّسعت عينا وردة، ووضعت يدها على فمها، من الدّهشة، ثمّ قالت:

- ماذا؟ ماذا قلت؟

لتعود أدراجها، وهي مصدومةٌ كلّيًّا، وما إن جلست حتّى قالت جهينة:

- ما بك؟ ما الذي حصل في الخارج؟

فنظرت لها وردة، والدّهشة بادية عليها، ولكنّها لم تعرف ماذا تفعل، لم تعرف كيف تخبرها، ومن أين تبدأ، فآثرت الصّمت، وهنا قامت جهينة مسرعةً نحوها، وعادت لتسألها مرّة أخرى:

- ألن تخبريني ما بك؟ لما أنتِ مصدومة بهذا الشّكل؟

ولكنّ وردة ظلّت صامتة، ولم تنطق بكلمة واحدة، لأنّها خافت من ردّة فعل صديقتها، وفي هذه الأثناء دخل موظّف، وقد بدا عليه الحزن، ثمّ نظر لكلٍّ منهما، وقال:

- أما زلتما هنا؟ هيّا، قبل أن يغلقوا أبواب المؤسّسة، دون أن يعرفوا بأنّكما هنا، فكلّ الموظّفين قد غادروا.

فقالت له جهينة:

- لماذا؟ ما الذي حصل؟

فقال لها (مستغربًا):

- ألم تعلمي بخبر وفاة ابن المدير؟

فنظرت جهينة لوردة، ثمّ عادت لتنظر للموظّف، وقالت:

- هاني توفّي؟

وعادت لتنظر لوردة بشفقة، ظنًّا منها بأنّه هاني، فقال لها:

- لا.. خالد هو من توفّي، وليس هاني.

وخرج، ليتركها في حالة ذهول، فقامت وردة لتهدّئها، قبل أن تفعل أيّ شيء، في نفسها، فنظرت لها جهينة في هذه الأثناء، وقالت:

- هل صحيحٌ ما قال يا وردة؟ هل صحيح بأنّ خالد قد..

وهنا عانقتها وردة، وقالت (وهي تبكي):

- للأسف.. كلامه صحيح.

في هذه الأثناء أحسّت جهينة، بأنّها لم تعد تستطيع الوقوف، لثقل الخبر، الذي وقع على قلبها، فمالت على صديقتها، وأمسكت بيدها، ثمّ أخذت تنوح، وتندب حظّها، ووردة تحاول بكلّ السّبل تهدئتها.

***

- أسرع، قبل أن يهربا.

قال هاني للرّجل، الذي طلب منه مراقبة جنّات، وما إن وصل الرّجل إلى العمارة، التي يقع فيها بيت عادل، حتّى توقّف، وقال لهاني مشيرًا بيده، ناحية العمارة:

- هذه هي العمارة سيّدي.

فنزل هاني، ومعه رجلان، بالإضافة للرّجل، الذي كان يسوق السّيّارة، ثمّ اتّجهوا للعمارة، أين صعدوا للطّابق، الذي يقع فيه البيت، واقتحموا البيت، وما إن دخلوا حتّى وجدوه فارغًا، فقال هاني:

- لقد هرب الوغد.. ولكن أين ستهربان منّي، أنتما الاثنان؟

***

بعد أن اقتحم هاني منزل عادل، ولم يعثر على ما كان يريده، عاد يجرّ أذيال الخيبة.. ليجد أمّه جالسة، تنوح على جنّات، وما إن سألته عنها حتّى تأفّف، وقال:

- لقد هربا من المنزل، ولكن إلى أين؟ سأعثر عليهما عاجلًا، أم آجلًا.

فعادت أمّه لنواحها، وهنا نظر لها هاني، وقال (بعدما تذكّر وفاة خالد):

- علينا أن نذهب للعزاء، فليس من المعقول بأن نغيب، في يومٍ كهذا، وإلّا فسنثير الشّكوك، لا أريد لأبي أن يشكّ فينا، هيّا.. انهضي، لتغسلي وجهك، وآخذكِ لبيت حامد.

فبقيت في مكانها، وكأنّه لم يكلّمها، فاقترب منها، ليمسك بها، وقال:

- هيّا، باللّه عليك، كفّي عن البكاء.. سنذهب للعزاء، وأخرج، لأبحث عن تلك السّاقطة مجدّدًا.. أعدكِ بأنّني سأعثر عليها، وعلى ذاك السّافل رفيقها، في أقرب وقت.

***

صعدتُ لغرفتي، بعد أن شعرتُ بالإرهاق، وتناولتُ دوائي، وحاولتُ أن أنام، ولكن دون جدوى، فشعوري بالحزن قتل فيَّ أيّ شعور آخر، قمتُ من فراشي، لأتّجه للشّرفة، أين جلست، لكي أستنشق الهواء، وفي هذه الأثناء دخلت الخادمة، وسألتني إن كنتُ أريد شيئًا، ولكنّي لم أجبها، لأنّه لم يعد عندي قدرة، حتّى على الكلام، فخرجتْ، لتغلق الباب، وتتركني غارقًا في أحزاني.

***

عادت نور لتتشاجر مع زوجها، الذي طلب منها بألّا تُكلّم أيّ موظّف، حتّى لو كان أنا شخصيًّا، وهو ما أدّى بها لأن تحزم حقائبها، وتعود لبيت أبيها، فهي ترى في الموضوع مساسًا بأخلاقها، أمّا هو فيرى فيه احترامًا له، وخاصّة أنّه زوجها الآن، ويحقُّ له التّدخّل في شؤونها، وهذا ما جعل الأمور تسوء بينهما.

***

كانت السّاعة الثّامنة والنّصف ليلًا، حين غطّ عادل في نومٍ عميق، من فرط التّعب، لدرجة أنّه راح يحلم بخالد، الذي دخل للبيت، وهو يحمل مسدّسًا في يده، وملابسه، ووجهه ملطّخان بالدّم، ثمّ اقترب من عادل، الذي كان نائمًا، وهمس في أذنه (قائلًا):

- أيّها القاتل، كيف استطعتَ أن تنام، بعد الذي فعلته؟ كيف يغمض لك جفن، بعد غدرك بي؟ انهض.. انهض.

وهنا صرخ عادل، وقال:

- لا تقتلني، أرجوك.. أنا لم أكن أقصد.

فعاد خالد ليوقظه (قائلًا):

- انهض، أيّها الحقير.

فقام عادل، وقلبه يخفق بشدّة، ثمّ نظر عن يمينه، ويساره، وقال:

- أين أنا؟ هذه أنت؟

قال كلامه لجنّات، التي كانت واقفة بجانبه، فردّت عليه (مستغربة):

- ما بك؟ هذه أنا.. جئتُ لأوقظك.

فصرخ فيها (قائلًا):

- ولما تريدين إيقاظي؟

- ألن تتعشّى؟

- لا أريد أن أتعشّى.. هيّا، اغربي عن وجهي.

عادت جنّات، وهي حزينة، بينما بقي عادل في فراشه، ثمّ أخذ يفكّر في موضوعها، فقال في نفسه:

- والآن كيف يمكنني أن أتصرّف، مع هذه المصيبة، التي حلّت عليّ؟

وأمسك بعلبة السّجائر، ليخرج منها سيجارة، وبعدما أشعلها، أخذ منها نفسًا، ثمّ عاد ليحدّث نفسه:

- لقد كنتُ آخذ منها المال، والآن لن أستفيد شيئًا، طالما هي عندي، وليس هذا فقط، بل عليّ أن أصرف عليها، وأوفّر لها الأكل، والشّرب، خاصّة وأنّها الآن حامل.. آه، يا إلهي.. ما الذي فعلتُه بنفسي؟

***

دخل هشام لغرفته، ليتّجه للخزانة، أين أخرج منها كلّ ما يحتاجه، من ملابس، ومال، وأوراق شخصيّة، ثمّ وضعها في حقيبة، ليستعدّ للهرب، من البلاد، فبعد موت خالد، لم يعد له مكان هنا، هكذا قال لأمّه، التي دخلت عليه في هذه الأثناء، كي تسأله عن سبب حزم حقائبه، وإعداد العدّة للرّحيل، وما إن أخبرها عن نيّته، في الرّحيل، بسبب موت خالد، حتّى نظرت له نظرةً فاحصة، قبل أن تسأله:

- ليس لك علاقة بموت خالد، أليس كذلك؟

فتلعثم هشام، ثمّ قال (بتوتّر):

- ألديكِ شكٌّ في ذلك؟ بالطّبع ليس لي علاقة، ولكن منذ أن أخذتُ فارس، وفراس، ودخلتُ للسّجن، بسبب هذا الموضوع، صرتُ أخاف من أن يشكّوا فيّ، وخاصّة أنّني قد هدّدتُ فلّة، أكثر من مرّة.

***

كانت أمّ هاني جالسة، بين جموع النّساء، وتنوح بحرقة، وكلّها حزنٌ على ابنتها، التي هربت، بكاؤها على ابنتها، لم يكن حزنًا عليها، بقدر ما كان خوفًا ممّا سيقع، إن علم أبي بموضوع اختفائها، وهذا كان أكثر ما تخشاه أمّ هاني، التي أثّرت فيها كلماتُ أمّي، وبكاءُ الأخريات، ممّا جعلها تفرغ ما في جعبتها، لتنفّس عن نفسها، ولكنّها استسلمت آخر الأمر، وخاصّة حين أحسّت بأنّ

ضغطها سيرتفع، أين أطرقت صامتة، واكتفت بمراقبة أمّي، التي بكت بكلّ حرقة، على غائبٍ لن يعود، كانت تنظر لها، مشفقة على ما حصل لها، بفترة وجيزة، خسرت فيها ولدين، وهنا تنهّدت، وقالت في نفسها:
- حزن أمّ حامد على ولديها، اللّذين غادرا للأبد، لا يقارن بحزني على ابنتي، التي هربت، فعلى الأقلّ ابنتي حيّة، أمّا أمّ حامد فمسكينة، كان الله في عونها.. آمل أن تكوني بخير يا جنّات.

***

بعد أن دخل الضّابط بمعيّة أبي، وجلسا في إحدى الغرف، بعيدًا عن المُعزّين، الذين ملأوا البيت، قدّم الضّابط واجب العزاء لأبي، وطلب منه بأن يجيبه، عن بعض الأسئلة، التي بإمكانها أن تساعدهم، في العثور على القاتل، فأجابه عن أسئلته، وسكت قليلًا.. ليعود للحديث:
- أنا أشكّ في شخص.. بل وأكاد أجزم بأنّ له يدًا، في هذه الجريمة.
فطلب منه الضّابط إعطاءه اسمه، وبعدما أخذ الاسم بالكامل، استأذن بالرّحيل، بعد أن اعتذر عن مجيئه، في هذا الوقت غير المناسب، حسب قوله، ولكنّ شغلهم يحتّم عليهم ذلك.. بعد رحيل الضّابط، حمل أبي هاتفه، ليتّصل بأحد رجاله، وطلب منه أن يبحث، هو ورجاله، عن هشام ابن عمّتي، ويجلبوه له حيًّا، أو ميّتًا.

***

أخذ الضّابط - الذي زار أبي - معه مجموعة، من رجال الأمن، الذين توزّعوا عبر ثلاث سيّارات، واتّجهوا لبيت هشام، أين حاصروه، ثمّ نزل الضّابط،

واتّجه للبيت، وبعد أن دقّ الباب، فتحت له عمّتي، فأخبرها بأنّه يبحث عن هشام، فقالت له بأنّه قد سافر للتّو، ليسألها:

- وإلى أين سافر؟

- لا أعلم، كلّ ما أعرفه أنّه يسافر، من حينٍ لآخر، لأنّ عمله يحتّم عليه ذلك، فهو رجل أعمال.

طلب الضّابط من رجاله الاتّصال، بكلّ المطارات، ليخبروهم بضرورة القبض على هشام، وألّا يتركوا له فرصة للهرب، خارج البلاد.

***

بمجرّد أن طلع النّهار ذهب حازم، لمنزل نور، ليعتذر عمّا بدر منه، وما إن وصل، ودقّ الباب، حتّى فتح له والد نور، وبعد أن تكلّما قليلًا قال:

- لقد جئتُ لأتحدّث مع نور.

فقال له عمّي (بعد أن رسم على وجهه بعض الجدّية):

- اسمع يا حازم.. حين جئتنا لتخطب نور، كان أوّل ما طلبتُه منك، هو أن تعاملها بالشّكل، الذي يليق بها.. ولكنّك للأسف لم تفعل هذا، وأنا لا أقبل بأن تُهان ابنتي.

- أنا آسف.. أعدك بأنّ هذا لن يتكرّر أبدًا.

فتنهّد عمّي، وقال:

- حسنٌ.. سأناديها، وسنرى إن كانت ستقبل كلامك، أم لا.

وقام ليناديها، بينما بقيَ حازم بالصّالون، وقد بدا عليه الخوف، والتّوتر، وخصوصًا بعد أن تكلّم معه عمّي بحزم.

***

عثرت الشّرطة على هشام، بأحد المطارات، فأوقفته، ومنعته من مغادرة البلد، فقال هشام لرجال الشّرطة:

- أريد أن أعرف سبب منعي، من السّفر.

فقال الضّابط:

- أنت متّهمٌ بقتل خالد ابن راضي.

فقطّب هشام حاجبيه، ثمّ قال:

- ولكنّي لم أقتل أحدًا.

- سيتمّ التّحقيق معك حول هذا، في قسم الشّرطة، وليس هنا، وحينها يمكنك أن تنفي التّهمة، عن نفسك.

قال أحد رجال الشّرطة لهشام، ليمسك به الآخرون، واقتادوه للسّيّارة، أين ركب معه اثنان منهم، ليأخذوه على جناح السّرعة، لأحد الأقسام، للتّحقيق معه في القضيّة.

***

- ماذا قلت؟

قال أبي لأمّ هاني، بعد أن أخبرته بهروب جنّات، قبل أن يُجن، فما حصل لا يستوعبه عاقل، موت ولدين، وهرب الثّالثة، كلّ هذا جعله يفقد السّيطرة، على نفسه.. عاد لينظر لها بعد ذلك نظرات شرّ، وأمسكها من ذراعها، وصرخ فيها:

- أرأيتِ نتيجة تربيتكِ لابنتك، أرأيتِ أين أوصلها دلالك؟ ابنتي تهرب من المنزل؟ ما الذي ينقصها لتهرب؟ صدّقيني سأقتلك، ولكن ليس قبل أن أعثر عليها، وأقتلها أمام عينيك.

وتركها، وخرج، لتنهار كلّيًّا، فبدأت بالصّراخ، أسرعت الخادمة لتمسك بها، قبل أن تقع على الأرض، وما إن رأتها أمّ هاني حتّى قالت لها (وهي تبكي بحرقة):

- سيقتلها.. كنت أعرف ذلك.. ابنتي ستموت.

***

- إذًا أنت تنفي أيّ علاقةٍ لك، بمقتل خالد ابن راضي؟

قال الضّابط لهشام، الذي أومأ برأسه، بكلّ ثقة، وقال:

- أجل.. سيّدي.

- ولما كنت تريد الهرب إذًا؟

فقال هشام (بغضب):

- لم أرد الهرب، فأنا معتادٌ على السّفر، لأنّني رجل أعمال.

فنظر الضّابط لزميله، في إشارة منه للتّوقّف، عن كتابة ما يقوله هشام، وعاد ليقول لهذا الأخير:

- سندعك تذهب، شريطة أن تبقى في البلد، ريثما ينتهي التّحقيق، في هذه القضيّة.

***

خرج هشام من القسم، وفي طريقه للبيت، اعترضه مجهولون، ووضعوه عنوة في السّيّارة، وانطلقوا بسرعة، ليسلكوا طريقًا، يقع وسط مجموعة من الغابات، قبل أن يصلوا لوجهتهم، التي يريدونها، وما إن اقتربوا من أحد البيوت حتّى توقّفوا، ثمّ نزلوا، ومعهم هشام، وهو معصوب العينين، ليدخلوه لإحدى

الغرف، وأغلقوا عليه الباب، وبقيَ اثنان ليحرسوه، أمّا الثّالث فقد أخرج هاتفه، واتّصل بأبي، أين قال له بالحرف:

- يمكنك أن تطمئنّ الآن سيّدي، فالعصفور في القفص.

***

ما إن حلّ الظّلام حتّى عادت جنّات، للتّشاجر مع عادل، الذي كان متوتّرًا في هذه الأثناء، فلم يتمالك نفسه، أين صفعها صفعة قويّة، ثمّ أمسكها من شعرها، وأخذ يصرخ:

- ألم أقل لك، بأن تتركيني وشأني؟ هيّا، اغربي عن وجهي، أيّتها الغبيّة.

ودفعها بقوّة، لتسقط أرضًا، فبكت بحرقة على الإهانات، التي تعرّضت لها، في هذه المدّة، التي قضتها معه.. بينما خرج هذا الأخير من الغرفة، ليتركها حبيسة أحزانها، واتّجه للصّالون، ثمّ أخرج هاتفه، ليتّصل بهشام، ولكنّ هذا الأخير لم يجبه، فعاد للاتّصال به مجدّدًا، وهنا ردّ عليه شخصٌ آخر.. فبلع عادل ريقه، ثمّ أغلق هاتفه.

***

أمسك أبي بهشام من شعره، ليغمس رأسه في الماء، وبعد مدّة أخرجه، وعاد ليقوم بنفس الشّيء، ثمّ طلب من رجاله، بأن يبرحوه ضربًا، وبقي يراقبهم، وهم يعذّبونه، وهو يصرخ بشدّة، طالبًا الرّحمة، ولكن هيهات، فأبي ليس من النّوع، الذي يرحم أحدًا، وخاصّة إن غضب.. ظلّ الرّجال يتناوبون على ضربه، وكان في كلّ مرّة يتلقّى ضربة، إلّا ويصيح بأعلى صوته، طالبًا الصّفح، ويقول:

- أنا لم أفعل شيئًا.

فقام أبي نحوه بهدوء، وأمر رجاله بأن يتركوه، ليهمس في أذنه:
- من قتل خالد؟
فبلع هشام ريقه، ثمّ قال:
- أنا لا أعرف عن هذا الموضوع شيئًا.
وهنا ثارت ثائرة أبي، فطلب من أحد رجاله، بأن يحضر له شفرة حلاقة، ثمّ قال لهشام:
- سأجعلك تعرف بعد قليل.

***

ظلّت جنّات تبكي، على ما اقترفته من إثم، بحقّ نفسها، فقد أحسّت بالنّدم الشّديد لما فعلته.. تذكّرت أمّها، فقالت:
- سامحيني، لم أعرف قيمتك، ولا قيمة الحياة، التي كنت أحياها، إلّا عندما جئتُ لهذا الوغد، الذي أوهمني بأنّه يحبّني، حين كنت أعطيه المال، وحين كان مستفيدًا منّي، أما وقد أصبحتُ مجرّد عالةٍ عليه، فقد أصبح يهينني، لأنّه طمّاع، وحقير، ليتني سمعتُ كلام هاني، عندما طلب منّي بأن أبتعد عنه.
في هذه الأثناء كان عادل نائمًا، في الغرفة المجاورة، أين رأى كابوسًا، فبدأ يئن، ليرتفع صوته شيئًا فشيئًا، ويصل لجنّات، فقامت، لتتأكّد من مصدر الصّوت، وسارت نحو الغرفة، وأطلّت عليه، أين سمعته يقول:
- أرجوك لا تقتلني.. فأنا لم أقتلك، بل هو الذي طلب منّي ذلك.
وسكت قليلًا، قبل أن يعود للحديث، والذي تحوّل لصراخ:
- لا.. لا تقتلني يا خالد.. أرجوك.

وقام فزعًا من النّوم، وهو يتصبّب عرقًا، ليتفاجأ بجنّات، التي كانت تقف مستغربة، عند باب الغرفة، فقالت له:

- من خالد؟

فبلع عادل ريقه، وقال:

- خالد من؟

- الذي رأيته في الحلم.

فارتبك، وصرخ فيها (قائلًا):

- اغربي عن وجهي.

ولكنّها عادت لتسأله:

- هل قتلتَ أحدًا؟

فغضب.. وقام مسرعًا نحوها، أين أمسكها من شعرها، وقال لها:

- ألم أقل لك، بأن تغربي عن وجهي؟ ألا تفهمين؟

فصرخت جنّات، وقالت:

- اتركني، أيّها الحقير.

وهنا جُنّ جنونه، أين ضربها، بكلّ ما أوتيَ من قوّة، وهي تصرخ:

- ساعدوني.. أنقذوني.. أرجوكم، سيقتلني..

في هذه الأثناء كان الجار الذي يسكن، في البيت المقابل، جالسًا مع زوجته، وأولاده ليتناولوا العشاء، فسمعوا جنّات، التي كانت تستغيث، طالبة النّجدة، وهنا قال (بتذمّر):

- منذ أن وطئتْ قدما هذا الرّجل، هذا البيت، وهو يضرب زوجته.

فقالت زوجته:

- يا لها من مسكينة.

***

دخلت أمّ هاني لغرفة ابنها، ثمّ اقتربت منه، وقالت:

- هاني.. هاني.. قم يا هاني.

فقام هاني فزعًا، ثمّ نظر لهاتفه، وعاد لينظر لأمّه مستغربًا، ثمّ قال:

- ألا يمكنكِ أن تنتظري، حتّى يطلع النّهار، لتوقظيني؟

فقالت أمّه (بغضب):

- وكيف تنام؟ وأختك ليست معنا؟

فتأفّف، وقال لها:

- وما الذي عليّ فعله؟ هي تعيش في سعادة، مع صديقها، وهاني يكلّف نفسه، عناء التّفكير فيها.

- أريد أن أعرف.. ما الذي فعله رجالك؟

- إنّهم يبحثون عنها.. لقد فعلوا كلّ ما في وسعهم، ولم يقصّروا أبدًا.

- أرجوك.. حاول أن تعثر عليها، قبل أن يجدها أبوك، لأنّه سيقتلها.

- لو كنتُ مكانه لفعلت.. صدّقيني، أتمنّى أن أجدها بنفسي، لأقتلها، وأريحكم منها.

فقاطعته أمّه:

- يبدو بأنّي قد أزعجتك، حين أيقظتك قبل الوقت.. عد للنّوم، ولا تُتعب نفسك، في البحث عنها.

- أرجوك لا تعودي لذكر سيرتها.. فأمرها لم يعد يعنيني.

قال هاني كلامه هذا، وعاد لينام مجدّدًا، بعد أن غطّى وجهه، في إشارة منه، إلى أنّه لم يعد يطيق سماع سيرتها.. أمّا أمّه فقد خرجت، وعلامات الحزن، واليأس بادية على وجهها.

***

بعد أن يئس أبي، من جعل هشام يعترف، قام بخنقه، وصرخ فيه:

- تكلّم.. أيّها الأحمق.. هيّا..

فاضطرّ للاعتراف، أين أخبره بأنّه قد كلّف شابًّا، وطلب منه التّخلّص من خالد، مقابل مبلغ من المال، وأخبره باسم الشّاب بالكامل، فغضب أبي، وعاد ليخنقه، إلى أن قتله، ثمّ التفت لرجاله، وقال:

- أريد عادل حيًّا، أو ميّتًا، هيّاا!.. ماذا تنتظرون؟ اغربوا عن وجهي.

***

خرج عادل من البيت، وأغلق الباب بإحكام، أين كانت الجارة تراقبه، من العين السّحرية، وما إن نزل حتّى فتحت الباب، ودنت بحذر، نحو باب منزله، لتسمع جنّات، التي كانت تنادي من الدّاخل، طالبة منه بأن يفتح لها الباب، بقيت الجارة واقفة، وهي مستغربة، من تصرّفات عادل، قبل أن تقرّر العودة لبيتها، بعدما سمعت أحدًا، يفتح باب منزله في هذه الأثناء، ليخرج من الطّابق، الذي يقع فوقهم، فأسرعت بالدّخول، قبل أن يراها.

***

بعد أن طلب أبي من رجاله، بأن يبحثوا عن عادل، سألوا عنه في كلّ مكان، إلى أن اهتدوا لعنوانه، فانطلقوا على جناح السّرعة، إلى بيته، أين فتحت لهم أمّه الباب، وهنا سألها أحدهم:

- أين عادل؟

فقالت أمّه:

- من أنتم؟ وماذا تريدون منه؟

فدفعها من أمامه، ليدخل هو وباقي الرّجال، ويفتّشوا البيت برمّته.. وهنا بدأت أمّه بالصّراخ، وأخته تقف معها.. وفي هذه الأثناء اجتمع الجيران، ليروا ما يحصل، ولكنّ أحدًا منهم لم يجرؤ، على مساعدة أمّ عادل، التي كانت تبكي، ظنًّا منها بأنّ هؤلاء الرّجال، هم من أفراد الأمن، وجاؤوا ليأخذوا ابنها للسّجن.. قال أحد الجيران:

- من المؤكّد بأنّه قد سرق أحدًا ما، كعادته طبعًا.

فردّ عليه الآخر:

- إن كان كذلك، فهو يستحقّ السّجن.

مرّ في هذه الأثناء صديق عادل، من أمام منزل هذا الأخير، وما إن رأى النّاس مجتمعين حتّى اقترب منهم، وسأل شابًّا:

- ما الذي حصل؟ ولما كلّ هؤلاء مجتمعون، أمام منزل عادل؟

فقال له الشّاب:

- يبدو بأنّ الشّرطة تبحث عن عادل.

ظلّ صديق عادل يراقب، من بعيد، حتّى خرج رجال أبي، من المنزل، وتفرّق النّاس، ليذهب كلّ واحدٍ لشؤونه، فأخرج هاتفه، ليتّصل بعادل، وما إن ردّ عليه هذا الأخير حتّى قال له:

- ماذا فعلت؟ لقد جاء رجال الأمن للتّو لبيتكم، وبعدما قلبوا البيت رأسًا على عقب، رحلوا.. لقد كانوا يبحثون عنك.

فاتّسعت عينا عادل، وقال:
- ماذا قلت؟ رجال الأمن جاؤوا يبحثون عنّي؟
وقرّر أن يعود أدراجه، بعد أن أنهى المكالمة، وبالضّبط لبيته الجديد، فهو أكثر مكانٍ يستطيع أن يختبئ فيه.. إلى أن يعثر على غيره.

***

عاد أبي في المساء للمنزل، وما إن دخل حتّى جاءته أمّ هاني تجري، لتسأله عمّا فعله، في موضوع جنّات، فصرخ فيها (قائلًا):
- اغربي عن وجهي الآن.. لا طاقة لي لرؤية وجهك.
ولكنّها ظلّت مصرّة على موقفها، فسألته مجدّدًا، ولم تكتفِ بالسّؤال، بل اتّهمته بالتّقصير، في البحث عنها، الشّيء الذي جعله يغضب بشدّة، فالتفت إليها، وقال (موبّخًا إيّاها):
- تتّهمينني بالتّقصير، وتنسين بأنّكِ السّبب الرّئيس، فيما حصل؟ فلولا تربيتكِ السّيئة، لما وصل بها الأمر، للهرب من البيت، عليكِ أن تتعلّمي أصول التّربية، من أمّ حامد.
وما إن ذكر سيرة أمّي حتّى أحسّت بالغيرة، أين صاحت (قائلة):
- وأين كنتَ أنت، حين ربّيتُها؟ ألم تكن منشغلًا بالمال، والنّساء؟
وهنا ثارت ثائرته، فصفعها، وانقضّ عليها كالوحش، ليضربها في أنحاء متفرّقة، من جسمها، قبل أن يمسكها من رقبتها، محاوِلًا خنقها، ولولا صراخها، الذي ملأ أرجاء المنزل، والذي جعل الخدم يهرعون إليها، ليبعدوها عنه في آخر لحظة.. لكاد يقتلها.

***

- أتمنّى أن تعود - في أقرب وقت - يا رؤوف، فكلّنا بحاجةٍ إليك.

قالت أمّي لرؤوف، الذي تنهّد، ثمّ قال:

- سأحاول..

فقاطعته (قائلة):

- بل يجب أن تأتي.. فنحن في حاجة ماسّة لك، وخصوصًا حامد.

- ما به حامد؟

- منذ وفاة أخيك، وهو ليس بخير، فمعظم الوقت يجلس وحيدًا، في غرفته، ولا يكلّم أحدًا، كما قلّتْ شهيّته.. أنا خائفةٌ عليه.

وهنا وعدها بالعودة، بمجرّد أن ينتهي من شغلٍ مهم.

***

لم يعد عادل للبيت، إلّا في اللّيل، ففي طريقه للعودة، وجد سيّارات شرطة، في الشّارع الذي يسكن فيه، ممّا جعله يفرّ هاربًا، إلى أن حلّ الظّلام، ونقصت حركة المارّة، أين تسلّل بين تلك الأزقّة، إلى أن دخل للمنزل، ثمّ نزع سُترته، وتمدّد على السّرير، ليرتاح قليلًا.. وفجأة وقفت جنّات على رأسه، لتطلب منه قرصًا، من الأقراص التي كان يجلبها لها، فصرخ فيها (قائلًا):

- اغربي عن وجهي.

ولكنّها بقيت واقفة، ولم ترض بأن تغادر، قبل أن يعطيها قرصًا، فهي في حاجة ماسّة له.. وهنا قام عادل من مكانه، وقال لها:

- لم يبقَ لديّ أيّ قرص.. غدًا سأرى كيف سأوفّر لك، البعض منها.

- أريد القرص حالًا.. أعرف بأنّ لديك البعض منها هنا.

فغضب عادل، وقال:

- أتتجسّسين عليّ يا بومة الشّؤم؟

وانهال عليها ضربًا، فصرخت طالبة النّجدة، من الجيران، ليمسكها من شعرها، أين قال لها:

- سنرى الآن من سينقذكِ منّي.

وعاد ليصوّب عدّة ضربات، في بطنها، ليطرحها أرضًا، وتسقط مغشيًّا عليها.. وفي هذه الأثناء قالت الجارة لزوجها:

- والآن.. هل سنتركه يقتلها، بحجّة أنّه لا دخل لنا؟ أرجوك أن تتدخّل، قبل فوات الأوان، فالوضع لا يبشّر بالخير.. ألست مُحاميًا؟

- بلى، ولكن ليس لديّ الحقّ، في التّدخّل بين الرّجل، وزوجته، بأيّ صفة سأكلّم قريبي، في الأمن؟

- ألسنا بشر؟ بصفتنا بشر، ألم تبقَ أيّ إنسانيّة، في هذه الحياة؟ أيعقل بأن نتركها تموت، لنتّصل بالشّرطة؟ ستقوم لتتّصل به، أم أتّصل بالشّرطة؟ حتّى لو كلّفني هذا الأمر، الدّخول للسّجن، فلن أتراجع عن قراري.

فتنهّد زوجها، ثمّ فتح هاتفه، لكي يتّصل بقريبه، والذي كان يشتغل في الأمن، وأخبره بما يحصل، في المنزل المجاور.

***

بعد أن فرغت سارة من الصّلاة، رفعت يديها للسّماء، وقالت:

- يا رب.. أعنّي في محنتي، وانتقم ممّن كان السّبب فيها، إنّك عزيز، ذو انتقام.

وحملت السّجادة، أين وضعتها على حافّة السّرير، واتّجهت لمكتبها، ثمّ أخرجت كتابًا من الدُّرج، لتُحضّر لامتحان الدّكتوراه.

***

خرج هاني من أحد الملاهي اللّيليّة، باكرًا على غير عادته، لأنّه شعر بالملل، ثمّ سار نحو سيّارته، وهنا ناداه شخصٌ، من الخلف:

- هاني..

فالتفت هاني نحوه، وقال (مستغربًا):

- هل تعرفني؟

- وكيف لا أعرفك؟ ألست هاني ابن راضي؟

- من أنت؟ وماذا تريد؟

- سأعرّفك من أكون.

واستلّ السّكين من جيبه، وركض نحوه، أين طعنه في بطنه، وقال:

- أنا أخو سارة.. هل تذكّرتها؟

ثمّ سحب السّكين، وعاد ليطعنه في صدره، وقال:

- سارة التي قضيتَ على مستقبلها.

وعاد ليسحب السّكين، ويطعنه في قلبه، فسقط هاني أرضًا، ليلوذ أخو سارة بالفرار بعدها، ولكن لسوء حظّه، فقد حاصره بعض الشّباب، وبينما هم يحاولون القبض عليه، دون أن يجرؤوا على الاقتراب، لأنّه هدّدهم، بالسّكين نفسه، الذي أصاب به هاني، حتّى باغته أحدهم، من الخلف، ليتشجّع الباقي، والتفّوا حوله، أين تمكّنوا من القبض عليه، أمّا هاني فقد حمله آخرون، لينقلوه على جناح السّرعة للمشفى، على أمل إنقاذه، فقد كان لا يزال يتنفّس حينها.

***

كانت سارة قد عادت، لتمسك بالمصحف في هذه الأثناء، لتقرأ جزءًا يسيرًا منه، على أمل أن ترتاح قليلًا، فقد أصابها الشّعور بالضّيق، وبعدما انتهت من القراءة، دعت الله من قلبها، بأن ينتقم ممّن كان السّبب، في حزنها، وكم أحسّت براحة، سرت في جسدها فجأة، فقالت:

- لابدّ بأنّ الله قد استجاب لدعائي، فهو لا يردّ رجاء أحد.

وأغلقت الكتاب، لتخلد للنّوم، بعد أن أحسّت بتلك الرّاحة المفاجئة.

***

قمتُ من فراشي، ودخلتُ للحمّام، ثمّ فتحتُ الحنفيّة، كي أملأ حوض الاستحمام بالماء، وفي هذه الأثناء نظرتُ لنفسي، في المرآة، فوجدتُ بأنّ لحيتي قد أصبحت كثيفة، فمنذ وفاة خالد لم أحلقها، وهنا سرحتُ بخيالي، وعدتُ للتّفكير في الحلم، الذي رأيته، فكلّ من رأيتهم بالحلم، مات منهم ثلاثة لحدّ الآن، بدءًا بلبنى، ثمّ نريمان، وأخيرًا خالد، وبقي هاني، ونور، وحازم، وجنّات، فتنبّهتُ لشيء، وهو أنّ الحلم يريد أن يخبرني بأمر مهم، ممّا يتوجّب عليّ التّصرّف، قبل فوات الأوان، فأغلقتُ الحنفيّة، وخرجتُ من الحمّام بسرعة.

***

وصل رجال الأمن، لبيت عادل، أين دقّ أحدهم الباب، وحين لم يجبه أحد، عاد ليدقّ الباب مرّة أخرى، وقال:

- افتحوا الباب.

اقترب عادل من الباب، وأطلّ من العين السّحرية، فرأى رجال الشّرطة، يقفون خلف الباب، فعاد للخلف، ولم يشأ أن يفتح لهم، وهنا قرّر رجال الأمن فتح الباب عنوة، كي يتأكّدوا من صحّة الخبر.. وما إن فعلوا حتّى وجدوا جنّات، تغطّ في بركة من الدّماء، أمّا عادل فقد كان يرتعش، من شدّة الخوف، أين اكتفى برفع يديه للأعلى، وقال:

- أنا لم أقتل أحدًا.

***

رنّ هاتف أبي، ففتحه، ليرى من المتّصل، وما إن ردّ حتّى أخبره، هذا الأخير بأمر، جعله يهبُّ واقفًا، قبل أن يقول:

- ماذا؟ ابني هاني؟

ليسقط الهاتف من يده بعدها، أين ركض بأقصى سرعته..

***

خرجتُ من غرفتي، بعد أن سمعتُ جلبة، في غرفة أبي، وما إن فعلت حتّى رأيتُ أمّي، تنزل مسرعة (وهي تقول):

- سالم.. ما بك يا سالم؟

فتبعتُها.. ثمّ قلتُ لها (متسائلًا):

- ما الأمر يا أمّي؟

فالتفتت نحوي، ثمّ قالت:

- لا أعلم.. ولكنّ أحدهم اتّصل بأبيك، وقال له شيئًا عن هاني، فركض بأقصى سرعته..

فقلتُ لها:

- لقد مات.. مات هاني يا أمّي.

وركضتُ بأقصى سرعتي، لألحق بأبي.. بينما بقيت أمّي في مكانها، وهي مصدومة كليًّا.. ثمّ قالت:

- ماذا؟ هاني مات؟

***

ظلّت أمّ هاني تجري، مثل المجنونة، في المستشفى، لتسأل عن ابنها، فكانت كلّما التقت بممرّض، أو طبيب إلّا وتسأله، فيعتذر البعض منها، ليكملوا طريقهم، وآخرون ينفون معرفتهم بمريض، بهذا الاسم، إلى أن جاء ممرّض، وطلب منها بأن تسير معه، ليجتازا عدّة أروقة، قبل أن يصلا للرّواق الخاص، بالحالات المستعجلة، فرأتنا أنا وأبي، واقفيْن عند باب إحدى الغرف، لتسرع نحونا، أين نظرت لأبي، وقالت:

- أين هو ابني؟ هو بخير، أليس كذلك؟

وفي هذه الأثناء خرج طبيبان، من الغرفة، التي كان فيها هاني، فقمنا مسرعين نحوهما، أين أمسك أبي بأحدهما، من يده، ليسأله:

- ابني.. يا دكتور، هل هو بخير؟

فتأسّف الطّبيب، ثمّ قال له:

- البقاء لله.

وغادر، ليتركنا في ذهولٍ تام، أين صرخت أمّ هاني، بأعلى صوتها، أمّا أبي فقد وضع يده على الحائط، ليسند نفسه، قبل أن يجلس على أحد الكراسي، وهو منهارٌ كليًّا.. بينما بقيتُ أنا في مكاني، لا أصدّق كلّ ما حدث مؤخّرًا، بقيتُ مشدوهًا، لا أعرف ما الذي عليّ فعله، وجيشٌ من الهواجس يقتحم

مخيّلتي، شعرتُ وكأنّي قد عشتُ هذا الموقف مسبقًا، وكأنّها المرّة الثّانية، التي يخبرني فيها أحدٌ، بأنّ هاني قد فارق الحياة، ربّما في المنام الذي رأيته، والذي رأيتُ فيه هاني ميّتًا، بجانب نريمان، وخالد.. هذه الأفكار التي كانت تنقطع، على صراخ زوجة أبي، الذي ملأ المشفى برمّته، لدرجة أنّ كلّ المارّة تعاطفوا معها، أمّا هي فكانت تنظر لهم، وتسألهم عن ابنها:

- هل رأيتم ابني هاني؟ أرجوكم أحضروا لي ابني.

ثمّ تعود للنّواح، والنّحيب مجدّدًا، وهي ترثي ابنها هاني، الذي ذهب باكرًا، ولم يخبرها إلى أين.. هاني الذي خدعها، وغادر قبلها، دون سابق إنذار.. تلك الكلمات التي سقطت، على أبي، كسهامٍ أُرسلت من صيّادٍ ماهر، لتصيب سويداء قلبه، أين أخذ يبكي بحرقة، وفي كلّ مرّة يبكي، إلّا ويتنفّس بعمق، وكأنّ كلّ هواء الدّنيا لم يعد كافيًا، ليُخرج ما بصدره، من ألم.. اكتفيتُ بدور المراقب في هذه الأثناء، لأنّني لم أعرف، إلى أيّهما أذهب، وأنا أرى أبي، وزوجته اللّذين كانا يحتاجان للمواساة، لم أعرف أيّهما أواسي أوّلًا، هل أواسي أبي، أم زوجته الثّكلى، التي فقدت ابنها الوحيد؟ حتّى حسمت زوجة أبي الموقف، وسقطت مغشيًّا عليها، من كثرة الصّراخ، الذي أفقدها توازنها، لينخفض ضغطها، أين أسرعتُ إليها، لكي أسندها، قبل أن ترتطم بالأرض.

***

في بيت أبي الثّاني، بيت أمّ هاني، أُقيم العزاء، أين ظلّت هذه الأخيرة تلطم وجهها، على ابنها الذي غادر، ليتركها وحيدة، والنّساء يحاولن ثنيها عن

ذلك، ولكن دون جدوى.. وفي هذه الأثناء دخلت أمّي، وما إن رأتها أمّ هاني حتّى قامت مسرعة، لتعانقها بحرارة، وقالت:

- سامحيني يا أمّ حامد، سامحيني على ظلمي لك، ولأبنائك طيلة هذه السّنين، لقد انتقم الله منّي، حين أخذ منّي ابني.

فقالت لها أمّي (وهي تبكي لتأثّرها بكلامها):

- الموت حقٌّ علينا جميعًا، والله لا يتوفّى الأنفس انتقامًا من ذويهم، بل لعلّه يكون رحمة بالميّت.. عليكِ أن ترضيْ بالقدر يا أمّ هاني.

***

كانت وردة مستلقية، حين دخلت أمّها، لتوقظها (قائلة):

- ألن تذهبي للشّغل يا ابنتي؟

- لا أظنّ.. فأنا مصابة بالزّكام، ولا أريد الذّهاب، وأنا في هذه الحالة.

- ولكن ألا ترين بأنّكِ قد أكثرت، من الغيابات؟

- سأتّصل بهاني، لأخبره عن سبب غيابي.

وأخذت هاتفها، لتتّصل بهاني، وبعد لحظاتٍ ردّ عليها ضابط، لتتفاجأ وردة بتغيّر الصّوت، فقالت له:

- أليس هذا رقم هاني؟

فقال الضّابط:

- بلى.

- ولكن من أنت؟ ولما لم يردّ على الهاتف بنفسه؟

- ومن أنت؟

- أنا خطيبته.

- أوه.. أنا آسفٌ سيّدتي.. ولكن..

فقالت وردة (مستغربة):

- ولكن ماذا؟

- لقد توفّي هاني البارحة.

فقامت وردة من فراشها، وقالت:

- ماذا؟ من؟ هاني مات؟

***

وقف أبي ليستقبل المعزّين، وقد بدا عليه التّعب، ووقفتُ إلى جانبه، محاولًا قدر الإمكان أن أبدو قويًّا، لا لشيء، إلّا لخشيتي عليه، فقد كان ينظر لي، من حينٍ لآخر، بعين الإكبار، وكأنّه يريد القول:

- لم يبق لي إلّا إيّاك.

بقينا على هذا الحال، حتّى دخل الموظّفون، الذين يعملون في الشّركة، ليلتفّوا حول أبي، الذي حاول السّيطرة على نفسه، كما حاول ألّا يبدو ضعيفًا أمامهم، ولكن هيهات، فمحاولاته كلّها باءت بالفشل، ليستسلم للألم، الذي في داخله، فطلب منّي مساعدته، على الجلوس، على أحد الكراسي، بعدما اتّكأ عليّ، فأخذته لأوّل كرسي، في طريقنا، وجلستُ إلى جانبه، ليلحق بنا الموظّفون، أين جلسوا على يساري، وبعد مدّة من الصّمت، سمعتُ أحدهم يهمس، في أذن الآخر (قائلًا):

- أرأيت حال الدّنيا؟ إنّها غدّارة، لا ترحم أحدًا، فالبارحة فقط كان هاني معنا، واليوم انتقل إلى الرّفيق الأعلى.

فقال الآخر:

- قدّر الله، وما شاء فعل.. رحمه الله.
- من المؤكّد بأنّه قد قام بفعلٍ سيّء للقاتل، ولذلك قتله.
فتأفّف الآخر، وقال:
- دعنا من هذا الحديث، ولا تنسَ بأنّ الرّجل بين يديْ الله الآن، اذكروا محاسن موتاكم.
- على كلّ حال.. أتمنّى من الله بأن يسامحه، ويتجاوز عن أخطائه، في حقّنا، نحن الموظّفين.
وفي هذه الأثناء قام أبي، بعد أن بلغ به التّعب مبلغه، وحاول أن يتّكئ على الحائط، فقمت، لأرى ما به، وما إن اقتربتُ منه حتّى همس في أذني، بأن أعيده لغرفته.. فأمسكته من يده، لآخذه لغرفته.

***

بعدما أدخل الحارس أخا سارة، بناءً على طلب الضّابط، طلب منه هذا الأخير الجلوس.. وبعد أن نظر لبطاقة التّعريف خاصّته، سأله:
- والآن.. أخبرني عن علاقتك، بهاني ابن راضي.
فقال أخو سارة (بغضب):
- لا يشرّفني أن تربطني به معرفة شخصيّة.
فتنهّد الضّابط، ثمّ وضع البطاقة فوق المكتب، وعاد ليسأله:
- ولما قتلته؟ ما دُمت تنفي وجود معرفة بينكما؟
- من أجل شرفي.
فنظر الضّابط له بتركيز، وهنا فهم أخو سارة، بأنّه يريد سماع المزيد، من الكلام، فقال:

- لقد ضحك على أختي، وأوهمها بأنّه يحبّها، وحين انصاعت له، ولبّت كلّ رغباته، تركها، ليتزوّج بفتاة غنيّة، وحين علمتُ بالأمر، لم أتمالك نفسي، ففكّرتُ في قتله.. وهو ما حصل.

- ربّما قتلته في لحظة غضب.

قال الضّابط، ليردّ عليه الآخر:

- بل خطّطتُ لهذا مسبقًا، ولو عاد بي الزّمن، لقتلته مرّة أخرى.

سكت الضّابط قليلًا، ثمّ نادى للحارس، وأمره بإعادته للزّنزانة، واتّصل بأحد زملائه، طالبًا منه بأن يحضر سارة، لتُدليَ بشهادتها.

***

بعدما خرجت الطّبيبة من غرفة جنّات، سألها الشّرطي، الذي انتظرها، في الخارج، فأخبرته بأنّها قد نزفت، جرّاء الإجهاض، ولكنّها بخير الآن، وبإمكانه سؤالها.. فدخل، وبعدما ألقى التّحيّة، سألها إن كان بإمكانها، أن تجيب على بعض الأسئلة، فأومأت بنعم.

***

كان الضّابط يسير في طريقه، نحو مكتبه، حين رأى عادل، الذي كان جالسًا بجانب الحارس.. دخل لمكتبه، وبقي لمدّة هناك، قبل أن يتذكّر شيئًا، فخرج مرّة أخرى، وهنا سمع عادل يقول:

- أنا لم أقتل أحدًا.. لما تحتجزوني هنا؟ ماذا فعلت؟

فالتفت الضّابط نحوه، ثمّ نهره (قائلًا):

- ألا تسكت أبدًا؟

وسأل الحارس عنه، فأخبره بأنّهم أحضروه إلى هنا، بعدما قدّم أحدهم بلاغًا، يفيد بأنّه ضرب زوجته، حتّى كادت تموت، لولا تدخّل الأمن، في الوقت المناسب، فنظر له الضّابط، وسأله:

- ولما ضربت زوجتك؟

فقال عادل (الذي كان يرتعش، من شدّة الخوف):

- لا.. أنا لم أقتله.. هو من أراد قتلي.

فاستغرب الضّابط من كلامه، وبقي ينظر له بشكّ، فشكله يوحي بأنّه ليس بخير، فقد كان وجهه شاحبًا، وكأنّه لم ينم أبدًا، بالإضافة لشعوره بالخوف، الأمر الذي جعل الضّابط يأمر الحارس، بأخذه للزّنزانة، ريثما ينظر في قضيّته.

***

- أنا جنّات ابن راضي، تزوّجتُ بعادل في السّر، وهربتُ حين علم أخي بالموضوع، أين ذهبتُ لأعيش مع عادل.. ومن هنا بدأت المشاكل، فهو لم يعد ذاك الشّاب الذي كان، بل أصبح عنيفًا.

سجّل الضّابط كلّ كلامها، دون تعقيب، تاركًا المجال لها، لتقول كلّ ما عندها، وبعد أن سكتت قليلًا، عادت للحديث:

- كان عادل يهذي بقتل شخص، اسمه خالد، في المنام، وحين سألته عنه غضب، واتّهمني بالتّجسّس عليه، وصار يضربني لأيّ سبب، ويغلق عليّ باب البيت، حتّى وقع ما وقع، وكدتُ أموت، لولا أنّكم أنقذتموني، في اللّحظة المناسبة.

***

- اجلسي يا سارة.

قال الضّابط لسارة.. ثمّ سألها عن أخيها، وعن هاني، وعن علمها بنيّة أخيها، في قتل هاني، فنفت ذلك (قائلة):

- لا، لم أكن أعلم، لأنّي كنتُ في المشفى، والسّبب في هذا هو أخي، الذي انهال عليّ ضربًا، حتّى فقدتُ وعيي.

ثمّ استرسلت في حديثها، عن هاني، الذي ضحك عليها، وقضى على مستقبلها، ومستقبل أخيها، بل ومستقبل عائلتها.. وسكتت لثوان، بعدما غلبتها دموعها، ولكنّها سيطرت على نفسها، وعادت لتفرغ ما في قلبها، أمّا الضّابط فاكتفى بالاستماع لها.. إلى أن أحسّ بأنّها قد تعبت، فقال لها (مقاطعًا):

- حسنٍ.. يكفي لهذا القدر.

***

كنتُ جالسًا بجانب أبي، الذي كان نائمًا، تحت تأثير الدّواء، وفي هذه الأثناء رنّ هاتفه، ففتحتُه، لأرى من المتّصل، وإذْ به أحد الضّباط، والذي يكون ابن خالة أبي.. فأجبتُ عليه، ظنًّا منّي بأنّه سيخبرني، عن آخر المستجدّات، في قضيّة هاني، أو خالد، وإذْ به يخبرني بأنّ جنّات ترقد، في المشفى، وعلينا الذّهاب، لنخرجها بأنفسنا.

***

بعد أن نقل الضّابط أقوال جنّات لزميله، الذي يشرف على استجواب عادل، وأخبره عن شكّها، في قتله لشخص، اسمه خالد، قرّر هذا الأخير أن يعرف من هو خالد، الذي كان يهذي به عادل.. فسأل هذا الأخير عنه، أين تلعثم، وشعر بالخوف، ثمّ بكى، وقال:

- لم أكن أريد قتله، ولكنّ هشام هو من زيّن لي ذلك، بعد أن أغراني بمبلغ، يجعلني أعيش بقيّة حياتي، دون الحاجة للعمل.

ثمّ أجهش بالبكاء، بعد أن قال هذه الجملة، وعاد ليقول:

- ليتني لم أوافق على عرضه، ليتني لم أستمع لكلامه.

فسأله الضّابط:

- ومن هو خالد هذا؟ ومن يكون هشام؟

- خالد هو ابن رجل الأعمال، سالم ابن راضي، وهشام يكون ابن عمّته.

فاتّسعت عينا الضّابط، وأصيب بالدّهشة، ثمّ قال:

- سالم ابن راضي رجل الأعمال المعروف؟ خالد يكون ابنه؟

***

بعد أن أبلغني الضّابط بموضوع جنّات، خرجتُ من المنزل، أين كان الظّلام قد عمّ أرجاء المدينة، واتّجهتُ للمستشفى، الذي ترقد فيه هذه الأخيرة، وما إن وصلت حتّى التقيتُ بطبيب، كان يشتغل معي، في وقتٍ سابق، قبل أن ينتقل إلى هنا، فألقى عليّ التّحيّة، ثمّ سألته عن مريضة، تدعى جنّات ابن راضي، فدلّني على الرّواق، الذي نتواجد فيه، لأتركه، وأتّجه للرّواق الذي أخبرني عنه، ومنه لغرفة أختي، وما إن دخلت، ورأتني هذه الأخيرة، حتّى قالت:

- حامد.. أخي.

وكادت أن تقوم من السّرير، لولا أنّي طلبتُ منها، بأن تبقى في مكانها، ثمّ اقتربتُ منها، لأسلّم عليها، فعانقتني، ثمّ قالت (وهي تبكي):

- سامحوني كلّكم، لم أكن أعلم حجم ما اقترفت، من إثم.

- لا عليك يا جنّات.

وجلستُ بجانبها، وقد بدا عليّ التّعب، فنظرتْ لي نظرة فاحصة، بعد أن أثارت انتباهها لحيتي الكثيفة، ثمّ قالت (مستغربة):

- لما يبدو وجهك شاحبًا هكذا؟ هل حصل شيءُ ما، في غيابي؟

فطأطأتُ رأسي، وأطرقتُ صامتًا، لأنّني لم أعرف ما الذي عليّ فعله، أأخبرها بكلّ ما حصل، في غيابها؟ أم أؤجّل ذلك، ريثما تذهب للبيت، لتعرف بنفسها؟ وخاصّة أنّ حالتها لا تسمح، بأن أخبرها الآن.

***

- كم هو مسكين حامد، كلّ هذا يحصل له في ظرف شهر؟ من يستطيع تحمّل كلّ هذا؟

قالت رشا لنور، فردّت عليها هذه الأخيرة:

- معكِ حقّ.. كان الله في عونه.

في هذه الأثناء كان حازم يقف، خلف الباب، فسمع الحوار، الذي دار بينهما، وجُنّ جنونه، حين سمعهما تتحدّثان عنّي، فلم يتقبّل ذلك، وقرّر العودة، من حيث أتى، لأنّه لو دخل في هذه الحالة للمكتب، فسيتشاجر مع نور، التي لن تغفر له مرّة أخرى.

***

عدتُ للبيت مع جنّات، وما إن دخلنا حتّى استغربت هذه الأخيرة، من تلك الحشود المجتمعة عند البيت، فكانت كلّما مرّت على مجموعة من النّساء، إلّا ويأتين إليها ليعانقنها، ويعزّينها في مصابها، في دهشة منها، إلى أن جاءت واحدة، وأزالت الغموض، حين قالت:

- البقاء لله يا ابنتي.. رحم الله أخاكِ هاني.

فاتّسعت عينا جنّات، وقالت:

- ماذا؟ أخي هاني؟

وركضت بسرعة، إلى أين تدخل النّساء، فرأت أمّها، التي كانت تندب حظّها، نائحة على ابنها، والنّساء حولها يواسينها، ومعهنّ أمّي، فاتّجهت إليها، وهي تصرخ، وتبكي، وما إن رأتها أمّ هاني حتّى قالت:

- جنّات.. عدتِ أخيرًا؟ أعلمتِ بأنّ أخاكِ قد رحل، دون أن يخبرنا؟

فعانقتها جنّات، وقالت:

- سامحيني، كان يجب أن أكون معك، منذ البداية، لم أكن أدري بأنّ هاني سيرحل، بهذه السّرعة.. سامحيني أرجوك.

وأخذت الاثنتان في البكاء، لتبكي كلّ الحاضرات، وعلى رأسهنّ أمّي، وفلّة لرؤية هذا المنظر، الذي تقطر له الأفئدة دمًا.

***

داخل الزّنزانة الانفرادية، غطّ عادل في نومٍ عميق، ليحلم بخالد، مرّة أخرى، ولكن بصورة مختلفة هذه المرّة، فقد رأى نفسه يقف، عند قبر، وهو على هذا الحال، حتّى تحرّك تراب القبر، ليخرج منه رجل، فتراجع عادل للخلف مذعورًا، وفي هذه الأثناء أزال الرّجل التّراب، من جسمه، ووجهه أمام مرأى عادل، ليتفاجأ بأنّه خالد، فأحسّ بالخوف، وتجمّدت أطرافه، أمّا خالد فقد قام، وأخذ يقترب منه، شيئًا فشيئًا، وعادل يتراجع للوراء، في كلّ مرّة، إلى أن تعثّر بحجر، فسقط على الأرض، ليقترب منه خالد، منتهزًا الفرصة، أين خنقه بكلتا يديه، ثمّ قال:

- أكنت تظنّ بأنّني لن أصل إليك؟ اليوم سآخذ حقّي بنفسي.

فصرخ عادل (بأعلى صوته):

- لاا.. لاا.. اتركني أرجوك.

ليستيقظ بعدها، ثمّ نظر في كلّ الاتّجاهات، وهو يضع يده على رقبته، ويتنفّس بصعوبة.. ثمّ قال بعد أن وضع يديه، على رأسه (مستسلمًا):

- لا تقتلني أرجوك.. دعني وشأني.

قال هذه الجملة، وقد بدا عليه اليأس، ثمّ أجهش بالبكاء آخر الأمر.. وكأنّه قد صار يعرف ما ينتظره، في قادم الأيّام.

***

- لم أكن أعرف بأنّ خالد، الذي كان يحلم به عادل، هو أخي.

قالت جنّات كلامها هذا، وهي تبكي بمرارة، وحرقة حين علمت بوفاة خالد أيضًا، ثمّ التفتت لأمّي، وقالت لها، قبل أن تعانقها:

- سامحيني يا أمّ حامد، لم أكن أعلم بأنّ غريمكم، هو نفسه الذي ائتمنته على نفسي.

فبكت أمّي.. ثمّ انتبهت لما قالته، فقالت لها:

- أتقصدين.. بأنّكِ تعرفين من قتل ابني؟

فأومأت جنّات برأسها.. وهنا قالت فلّة:

- إذًا عليكِ أن تبلّغي الشّرطة، بما تعرفينه.

- وهذا ما أفكّر فيه..

قالت جنّات، وهي تمسح دموعها.. قبل أن تضيف:

- غدًا سأذهب لقسم الشّرطة، وأخبرهم بكلّ شيء.

***

منذ أن سمعت وردة بمقتل هاني، وهي لم تكفّ عن البكاء، إلى أن بُحّ صوتها، وأهلها يحاولون تهدئتها، ولكن بلا فائدة، وهم على هذا الحال، إذْ دقّ الباب، فقامت أمّ وردة، لتفتحه، لتتفاجأ بمجيء جهينة، لمواساة وردة، وما إن دخلت للغرفة، ورأتها وردة، حتّى أسرعت إليها، وعانقتها بحرارة، ثمّ قالت (وهي تبكي):

- الآن استطعتُ أن أحسّ، بما أحسستِ به، حين علمتِ بوفاة خالد.

فبكت جهينة، وقالت:

- يبدو أنّه قد قُدّر علينا، بأن نشرب من نفس الكأس.

ثمّ جلستا مع بعضهما، وجلست معهما أمّ وردة، التي قالت:

- كان الله في عونكما.. عليكما بالصّبر.

فالتفتت جهينة نحوها، وقالت (معقّبة على كلامها):

- ومن أين نأتي بالصّبر؟ لو أخبروني بأنّه يباع بالمال، لاشتريته، ولكن هيهات.

وهنا لم تتمالك أمّ وردة نفسها، فبكت، ثمّ قالت:

- لا أبشع من إحساس الفقد يا بُنيّتي.. ولكن ما باليد حيلة، عليكما أن تصبرا.. وستتجاوزان هذه الأزمة، بمرور الأيّام.

***

مرّ شهرٌ على وفاة أخي هاني..

كانت أمّي قد اعتادت - في هذه الفترة الصّعبة - الجلوس في الحديقة، كلّ صباح، فتقضي فيها ساعة، أو ساعتين، متأمّلة تلك النّباتات، التي تحيط بها، كنوع من الهروب من أحزانها، التي حاصرتها، من كلّ جهة.

خرجت اليوم أيضًا، لتستأنس بالطّبيعة كعادتها، حين تضيق بها الدّنيا، علّها تجد فيها المتنفّس، لما تشعر به من ضيق، فسرحت بخيالها بعيدًا، لتعود إلى الماضي، وبالضّبط لطفولتها، فتذكّرت أباها، وأمّها، وإخوتها، وجيرانها، وأصدقاءها، الميّت منهم، والحيّ، فتعجّبت من حال الدّنيا، التي غيّبت بعضًا من أولئك، تحت الثّرى، بينما بقي الآخرون لميقات، لا يعلم مداه إلّا الله، كما تعجّبت من نفسها، التي حزنت لفراق ولديها، بينما نسيت أحزانها الماضية، كوفاة أمّها، وأبيها، وصديقاتها، وكأنّها لم تعش هذه الأحزان يومًا، فقالت:

- سبحان من يبتلينا، ثمّ يرحمنا بنعمة النّسيان.

وهي على هذا الحال، إذْ توقّفت سيّارة أجرة، أمام البيت، لينزل منها شاب، ويدخل متّجهًا نحوها، فانتابها الفضول لمعرفته، وأخذت تدقّق النّظر فيه، إلى أن قامت من مكانها، بشكل لا إرادي، وقالت:

- رؤوف.. ولدي.

فاقترب رؤوف منها، وقال:

- يبدو بأنّكِ كبرتِ يا أمّ حامد، لدرجة أنّكِ لم تعرفيني من الوهلة الأولى.

ثمّ تعانقا بحرارة، أين أجهشت أمّي بالبكاء، وقالت:

- حُكم السّن يا بُني.. أهانت عليك أمّك، إلى هذه الدّرجة؟

قالت أمّي معاتبة، فقال رؤوف (بعد أن مسح دموعها):

- اعذريني يا أمّي، فأنتِ تعرفين مشكلتي مع والدي، خشيتُ إن عدتُ أن يدخلني للسّجن، كما حاول أن يفعل من قبل.

فتداركت أمّي خطأها، وقالت:

- اعذرني يا بُني، فشوقي، وحاجتي إليك، أنسياني ما فعله سالم بك.

جلس رؤوف بجانب أمّي، وأخذ يحدّثها، أمّا هي فقد اكتفت بالنّظر إليه، والدّنيا لا تسعها من الفرح، غير مصدّقة بأنه يجلس أمامها، خرجت فلّة مع ولديها في هذه الأثناء، لتأخذهما للمدرسة كالعادة، وما إن رأت رؤوف حتّى ركضت، مسرعة نحوه، وقالت:

- أنت هنا؟ ولكن لما لم تخبرنا؟ كنّا جئنا للمطار، لاستقبالك.

فقال رؤوف، بعد أن عانقها، وسلّم عليها، وعلى ولديها:

- كنت أريدها مفاجأة، لكم جميعًا، بالإضافة لأنّني أعلم، بأنّكم لستم في حالة جيّدة، فلم أشأ أن أتعبكم.

- لا تقل هذا أبدًا.. فهذا واجبنا.

قالت فلّة، فابتسم رؤوف، وقال (مازحًا):

- في المرّة المقبلة، إن شاء الله.

فقالت أمّي (مقاطعة إيّاه):

- وهل تنوي أن تعود للأرجنتين؟

- لا.. أنا أمزح فقط، أردتُ أن أخرجكم، من جوّ الحزن، الذي تعيشون فيه، لا أكثر.

وسكت قليلًا، ثمّ عاد ليسأل أمّي:

- ولكن أين حامد؟

- إنّه في غرفته، منذ أن توفّي خالد، ونريمان، ليلحق بهما هاني، وهو في غرفته، لا يغادرها أبدًا، أرجوك.. حاول أن تقنعه بالعدول، عن تصرّفه هذا.

فتنهّد رؤوف، ثمّ قال:

- حسنٌ.. سأصعد لأسلّم عليه.. وبعدها لكلّ حادثٍ حديث.

***

خرج حازم من بيته، وركب سيّارته، متّجهًا لبيت نور، وبعد أن دخل، جلس في الصّالون، مع كلٍّ من نور، وأبيها، ليحاول إقناعها بالعدول، عن الطّلاق، ككلّ مرّة يتشاجر فيها معها، وتغادر بعدها لمنزل والدها، ليأتي إليها، راجيًا منها العودة.. فقالت نور:

- لستُ مضطرّة لتحمّل شكوكك، في كلّ مرّة، ولذلك لن أعود معك.

فالتفت حازم لوالدها، وقال:

- ألا تقول شيئًا يا عمّاه؟

فطأطأ عمّي رأسه، وتنهّد.. ثمّ قال:

- ولكن إلى متى ستظلّان على هذا الحال؟ لقد أقنعتُها كذا مرّة، لأنّني كنت أجد لك الأعذار، أما وقد تجاوزتَ كلّ الحدود، فلا أستطيع.

في هذه الأثناء دخل أخو نور، الذي جاء من قطر، ليزور والده كعادته، فقام حازم ليسلّم عليه، ثمّ قال:

- ولكن لما لم تخبروني بأنّه هنا؟

ثمّ التفت إليه، وقال:

- أيُعقل بأن تأتي للبلد، ولا تخبرني؟ كنتُ دعوتُك لتقيم معنا.

فتنهّد أخو نور، ثمّ قال:
- إن رفعت يدك مرّة أخرى عليها، فسترى منّي تصرّفًا، لن يعجبك.
فتلعثم حازم، ولم يجد ما يقول، وخاصّة حين رأى أخا نور، الذي تكلّم بكلّ جدّية، وهو مقطّبٌ لحاجبيه.. وبعد لحظات قال حازم:
- كانت لحظة غضب.. عمومًا هذه آخر مرّة.. أعدكٍ بذلك.
فقالت نور:
- في كلّ مرّة تقول هذا الكلام، ولكنّك تعود لنفس التّصرّفات.
وهنا عاد أخوها للحديث:
- ثمّ إنّه لا داعي لتصرّفاتك هذه أصلًا.. إلّا لو كنت لا تثق فيها.
فمسح حازم العرق، الذي تصبّب من جبينه، من شدّة شعوره بالخجل، أمام تحامل نور، وأهلها عليه، ثمّ قال:
- ولكنّها كانت مخطوبة، لابن عمّها، ولم تخبرني بالموضوع.
- ولما تخبرك، إذا كان الموضوع قد انتهى؟ ثمّ إنّه زميلها، قبل أن يكون ابن عمّها، ومن غير المعقول أن تطلب منها تجاهله، أو تجاهل أيّ زميل آخر، لأنّ هذا عملها في الأخير، وعليك أن تحترم ذلك.
قال أخو نور، فردّ عليه حازم:
- ولكن.. أنا لا أرى أيّ بُدّ، من تعامل نور مع حامد.
- إن لم يعجبك كلامي، فعليك تطليقها، وسآخذها، لتعيش معي بقطر، وحينها يمكنك الزّواج، بامرأة غيرها، لتفرض عليها ما تحب.
***
- هل ستبقى هكذا يا حامد؟ إلى متى ستظلّ حبيس هذه الغرفة؟

قال رؤوف محاولًا إقناعي بالخروج، من سجن الأحزان، الذي سجنتُ فيه نفسي بنفسي، فكنتُ فيه المتّهم، والقاضي، والجلّاد في آنٍ واحد.. الجلّاد الذي أقام الحدّ، على نفسه، فعاقبها دون أيّ ذنب.. بقي رؤوف يتكلّم، لمدّة من الزّمن، كنت أنا خلالها قد سرحتُ بخيالي بعيدًا، فلم أصغ لكلّ ما قاله، بل كنتُ ألتقط بضع كلمات، قبل أن يشرد ذهني، ثمّ أعود لألتقط بضع كلمات أخرى، ليعود ذهني لسابق عهده، إلى أن شرد كليًّا.. ونحن على هذا الحال، حتّى قال:

- حامد.. أتسمعني؟

فتنهّدتُ، وأومأتُ برأسي، في إشارة منّي، بأنّني قد أصغيتُ له، فقال:

- إذًا يجب أن تبرهن لي، بأنّك قد سمعت، كلّ ما قلته لك، وأوّل شيء ستقوم به، هو حلق هذه اللّحية.. ما رأيك؟

فسكتُّ، ولم أدر ماذا أفعل، فقام، وأمسكني من يدي، ولم يدع لي أيّ فرصة، لأجيبه عن سؤاله، ثمّ جرّني للحمّام جرًّا، وفتح الباب، وقال:

- هيّا.. أسرع، ولا تنظر إليّ هكذا، عليك أن تحلق هذه اللّحية.

فنظرتُ له مليًّا، ثمّ دخلت، وأغلقتُ الباب، أين حلقتها، وحين انتهيت خرجت، لأتّجه لسريري بنفس الكآبة، التي كنتُ عليها، أمّا رؤوف فقد قال، حين رآني بدون لحية:

- الآن عدتَ حامد، الذي أعرفه.

***

أوقفت سارة سيّارة أجرة، وطلبت من السّائق أخْذها لإحدى الشّركات، التي عُيّنت فيها، كانت سارة تتخيّل في هذه الأثناء، كيف سيكون أوّل يوم

لها، في الشّغل، والدّنيا لا تسعها من السّعادة، وظلّت هكذا.. حتّى وصلت، ودخلت للشّركة، ومن ثمّ لقاعة الاستقبال، أين أخبرتهم بأنّها موظّفة جديدة، وبعدما تأكّد الموظّف من الموضوع، أرسلها مع الحارس، للرّواق الذي فيه مكتبها.. دخلت سارة للقاعة، لتجد موظّفًا آخرًا، يجلس خلف المكتب المجاور، فقال لها الحارس:

- تفضّلي آنستي.. هذا هو مكتبك.

وأشار بيده لمكتبٍ فارغ، طالبًا منها الجلوس خلفه، فقالت:

- شكرًا.

سأله في هذه الأثناء الشّاب، الذي يجلس في المكتب المقابل:

- أهذه هي الموظّفة الجديدة يا عمّي سليمان؟

- أجل سيّدي.

فنظر الشّاب لسارة، وقال:

- مرحبًا بكِ معنا.

- أوه.. شكرًا.

ابتسم الشّاب، وقال:

- أنا مروان.. إن احتجتِ لأيّ شيء، تستطيعين الاعتماد عليّ.

- هذا من لطفك.

قالت سارة، ثمّ أخذت تنظر للقاعة، محاوِلة تجاهل الشّاب، الذي ظلّ يرمقها، بنظراتٍ مليئة بالإعجاب.

***

ما إن أذّن المغرب حتّى دخل رؤوف، لغرفة أبي، بعدما دقّ عليه الباب ولم يجبه، ليجده يصلّي، فجلس، لكي ينتظره.. ثمّ قال:

- كيف حالك يا أبا حامد؟

فتوقّف أبي عن الدّعاء، والتفت خلفه، ليجد رؤوف جالسًا، وهو يبتسم له، فشعر بسعادة غامرة، ثمّ قال (بصوتٍ مرتجف):

- رؤوف.. عُدتَ أخيرًا؟

وقام من مكانه، متّجهًا إليه، ليقوم رؤوف نحوه مسرعًا، وعانقا بعضهما، وقد غلبتهما دموعهما، أين قال أبي:

- سامحني يا بُنيّ.. لقد ظلمتك كثيرًا.

ثمّ انحنى على يده، ليقبّلها، فسحب رؤوف يده، وقال:

- حاشا.. أستغفر الله.

واقترب من أبي، وقبّل جبينه، ثمّ قال:

- لم أعتب عليك يومًا.

فابتسم أبي، ثمّ مسح دموعه، وقال:

- أنا أعرف بأنّك طيّب، كأمّك تمامًا.. آمل بأن يسامحني الله، على ما فعلته معك.

***

بعد أن وصل حازم لاتّفاق، مع أهل نور، عاد معها للمنزل، ولكنّهما بقيا طول الطّريق لا يحدّثان بعضهما، إلّا للضّرورة، لأنّ نور لم تكن راضية، لولا إصرار والدها، الذي أقنعها بضرورة المحاولة، للمرّة الأخيرة، فربّما يتغيّر سلوكه

للأحسن، وهو ما فعلته نور، وإن كانت متأكّدة بأنّه سيبقى على حاله، هذا إن لم يتغيّر للأسوأ.

***

جلس والد وردة بجانبها، بعدما طلب من أمّها، وأختها بأن تتركاهما بمفردهما، ليتسنّى له الحديث، وبعد دقائق، لم يعرف خلالها أبو وردة، من أين يبدأ حديثه.. تشجّع أخيرًا، وقال:

- أعلم بأنّ كلّ الكلام الذي ستسمعينه، لن يهوّن عليكِ مصابك، ولكن صدّقيني، ليس كلّ ما نتمنّاه، في هذه الحياة، يسهل تحقيقه، فالإنسان لم يُخلق في الدّنيا، ليجد الطّرق مذلّلة أمامه، علينا بالصّبر، والتّعايش مع أحزاننا، مهما عظُمت، فنحن أشبه ما نكون في امتحان، وعلينا أن ننجح فيه، مهما تعثّرنا، واعترضت طريقنا مشاكل، وعوارض.

كانت وردة في هذه الأثناء أشبه بشخص، شرب الخمر حتّى الثّمالة، وذلك بفعل المهدّئ، الذي قدّمته لها أمّها، لكن وبالرّغم من ذلك، فقد كانت تصغي لوالدها، دون أن تشاركه الحديث.

- لستِ الوحيدة التي فقدت عزيزًا عليها، فأنا أيضًا قد فقدتُ شخصًا عزيزًا عليّ.

نظرت وردة لأبيها باستغراب، وهنا عاد أبوها للحديث:

- لا تستغربي، فأنا مثلكِ تمامًا، فقدتُ المرأة التي أحببتها، قبل التّعرّف على أمّك.

بقيت وردة تنظر لأبيها باستغراب، لأنّها المرّة الأولى التي يخبرها فيها، بهذه القصّة، وهنا عاد والدها ليواصل حديثه:

- أعرف ما تفكّرين فيه، فأنا لم أخبركم بهذه القصّة، حتّى أمّكِ لا تعلم بهذا الموضوع، أصلًا هذه أوّل مرّة أحكي فيها، عن هذه المرأة، وأتمنّى بألّا تخبري أحدًا بهذا الأمر، حتّى أمّك.

فأومأت وردة برأسها، مشيرة لموافقتها على كلامه، ليعود للحديث:

- في تلك اللّحظة ضاقت عليّ الأرض، بما رحبت، وكدتُ أُجنّ.

- وكيف تجاوزت هذه المحنة يا أبي؟

- وكيف لي أن أتجاوزها؟ لم أتجاوزها كليًّا، ولكنّني تعايشتُ معها، لا أكثر، وتزوّجتُ بأمّكِ لاحقًا، لتأتي أنت، وإخوتك لهذه الدّنيا، وتملؤوا عليّ هذه الحياة، ومن يدر، فلو تزوّجتُ بتلك المرأة، لما كنتِ أنتِ في هذه الدّنيا، أو لو كنتِ ابنة رجل آخر.. أوه، ما أقصده يا ابنتي، أنّه مهما عظم الأمر، إلّا أنّنا لا نعلم الحكمة الخفيّة، التي يريدها الله من وراء هذا الموضوع، وإن بدا حزينًا، فإنّ فيه رحمة لا يعرفها إلّا هو.

شعرت وردة بشيء، من الارتياح، يسري في نفسها المرهقة، فقالت:

- بالرّغم من كلّ الحزن، الذي عشته، إلّا أنّك لم تظهر لنا، هذا يومًا.. وكنت دائمًا تتصرّف مع أمّي بمودّة.

فابتسم والدها، وقال (معقّبًا على كلامها):

- لا أنكر بأنّني قد أحببتُ أمّك، ولكن لم أخبرها، لكيلا أجرحها، فأنتِ تعرفين النّساء.. والآن عليكِ أن تنامي، لترتاحي، أليس كذلك؟

ثمّ قام.. وقبّلها في جبينها، قبل أن يطفئ النّور، وقال:

- تصبحين على خير يا ابنتي.

***

- لا أعرف.. ولكنّ هذا الحلم غريب، وليس كباقي الأحلام، التي نراها، بصراحة.. أحسّ بتأنيب الضّمير، لتقصيري في مساعدة إخوتي، فقد كان بإمكاني مساعدتهم، ولكنّي لم أفعل.

فتنهّد رؤوف، ثمّ قال لي:

- ولكن ما الذي يمكن أن تفعله؟ حتّى وإن حاولتَ جاهدًا مساعدتهم، فلن تقدر، أتدري لماذا؟

وهنا نظرتُ له باهتمام، دون أن أسأله، فقال:

- أتعلم لماذا يا حامد؟ لأنّ الله قد قدّر عليهم الموت، ونحن البشر ليس لنا حيلة، على صدّ قضائه، ثمّ تعال إلى هنا، ألستَ جرّاحًا؟ كم عمليّة بذلتَ فيها قصارى جهدك، وتوفّي بعدها المريض؟ العشرات؟

- بل أكثر من ذلك.

- وهذا دليل على أنّ إرادة الله نافذة، مهما حاول الطّبيب أن يفعل، لينقذ المريض.. ومن هنا لا تُحمّل نفسك، ما لا تطيقه.

وسكت قليلًا، قبل أن يضيف:

- إن كان ولابدّ فحاول مع البقيّة، ألم تقل بأنّك قد رأيتَ عدّة أشخاص، في منامك؟ حاول أن تنقذ من لم يمت.. إن استطعت ذلك طبعًا.

قال رؤوف كلامه هذا، بيأسٍ شديد، ربّما لمعرفته المسبقة بأنّنا نسير، وفق أقدار، لا يمكننا أن نحيد عنها، مهما حاولنا لذلك سبيلًا، أو لإيمانه الشّديد بالله، إيمانُه الذي فاق إيماني، على ما يبدو.

***

قام رؤوف باكرًا.. ليتّجه لغرفة أبي، ثمّ أيقظه، طالبًا منه مرافقته للشّركة، ولكنّ هذا الأخير لم يوافق، إلّا أنّ إصرار رؤوف على اصطحابه معه، كان أكبر من رغبته في البقاء، في المنزل.

خرج رؤوف مع أبي، من البيت أخيرًا، ليركبا السّيّارة نحو الشّركة، وما إن وصلا، ودخلا معًا، حتّى استبشر العمّال خيرًا، بعودة أبي مع رؤوف، الذي التفّ حوله الجميع، وسلّموا عليه، وهم فرحون بعودته.

***

بعد أن أقنعني رؤوف بالعودة للعمل، للخروج من دائرة الأحزان، التي سجنتُ نفسي فيها، استيقظتُ باكرًا، وخرجت، بعدما تناولتُ فطوري، وما إن وصلتُ حتّى التفّ البعض حولي، ليسلّموا عليّ، وهم مستبشرون برجوعي خيرًا.. دخلتُ بعدها للرّواق، الذي أشتغل فيه، وكان أوّل مكتبٍ يقابلني، هو مكتب لبنى، فتوقّفتُ للحظاتٍ أمامه، أين عدتُ بذاكرتي للوراء، وبالضّبط لأوّل يوم، جاءت فيه لبنى إلى هنا، لينهال عليّ جيشٌ من الذّكريات، لم يقطعه إلّا خروج طبيبة، عُيّنتْ في مكتب لبنى، وما إن رأتني حتّى قالت:

- هل من خطب يا دكتور؟
- أوه.. لا.. شكرًا.

ثمّ تركتها، وأسرعتُ لمكتبي، أين عدتُ لأنفرد بتلك الذّكريات، تلك الذّكريات التي أبت أن تتركني وشأني.

***

أسرعت رشا لمكتبها.. أين قالت لنور (والفرحة بادية عليها):

- أسمعتِ آخر الأخبار؟ لقد عاد الدّكتور حامد، ليستأنف شغله.

فأحسّت نور بفرحة عارمة، وقالت (بدون شعور):
- أصحيحٌ ما تقولين يا رشا؟
- أجل.. لقد رأيته للتّو يدخل لمكتبه.. ألن تأتي لنسلّم عليه؟
كادت نور أن تقوم، لتذهب معها، لولا أنّها تذكّرت زوجها، في آخر لحظة، فعادت لتجلس، ثمّ قالت:
- أوه.. لا، لا أستطيع يا رشا، فأنتِ تعرفين غيرة حازم الشّديدة عليّ، لا أريد المزيد من المشاكل.
فقالت رشا (مستغربة):
- ولكنّ حامد ابن عمّك، وليس غريبًا ليغار منه.
فتنهّدت نور، وعادت لتكمل شغلها، دون أن تعقّب على كلامها، وهنا قالت رشا (بتذمّر):
- إذًا سأذهب بمفردي.

***

بعد أن دخلتُ لمكتبي، جلستُ لأباشر عملي، ولكنّ تلك الهواجس، التي تزورني أحيانًا، عادت لتعكّر لي مزاجي، فرحتُ أفكّر في الحلم مرّة أخرى، لأرى صورة نور، ماثلة أمام عينيَّ، وهنا قرّرتُ أن أقوم، لأذهب، وأحذّرها.. ولكنّي عدلتُ عن هذا القرار، في آخر لحظة، بعدما تذكّرتُ غيرة زوجها عليها، وما فعله آخر مرّة معي، ممّا جعلني أعود أدراجي، محاولًا تجاهل تلك الهواجس، وهذا من أجل نور، التي لم أرد أن أسبّب لها، المزيد من المتاعب، يكفيها ما عانته منّي.

***

مرّت أيّامٌ على عودتي للشّغل.. قرّرتُ الذّهاب للمقبرة، ككلّ مرّة، وما إن وصلت، ودخلت، حتّى رأيتُ امرأة، تقف عند قبر نريمان، في البداية لم أعرفها، لأنّها كانت تلفّ رأسها بخمار، وتضع نظّارات، فاقتربتُ منها بحذر، وما إن سمعتْ وقع أقدام شخص، يسيرُ نحوها، حتّى التفتتْ، وإذْ بها تتفاجأ لرؤيتي، فقالت (مستغربة):

- حامد؟

فقلتُ لها (مستغربًا وجودها هنا):

- نور؟ هذه أنت؟

- أجل، لقد جئتُ خصّيصًا، لأقرأ الفاتحة لنريمان، وخالد، وهاني.

فوقفتُ بجانبها، دون تعقيب على كلامها، وبعد لحظاتٍ من الصّمت، شرعتُ في قراءة الفاتحة، أين قرأتها معي، وحين انتهينا منها، قالت:

-كنتُ أتمنّى أن آتيَ إليكم، لأقدّم واجب العزاء، ولكنّ زوجي منعني.

فتنهّدتُ.. ثمّ قلتُ لها:

- لا عليك.

وساد الصّمتُ مرّة أخرى، قبل أن أقطعه، وذلك بأن قلتُ لها:

- أريد أن أطلب منكِ طلبًا.

فنظرت إليّ باهتمام، ثمّ قالت:

- وما هو؟

- أريدكِ أن تعتني بنفسك.. أتعدينني بذلك؟

فابتسمت، ثمّ قالت:

- يبدو بأنّ موت إخوتك قد أثّر فيك كثيرًا.

- أكثر ممّا تتصوّرين.. هل تعدينني؟
فقالت (بلامبالاة):
- أوه.. حسنٌ، سأحاول قدر الإمكان، أن أنفّذ ما طلبتَ منّي.

غادرتُ المقبرة، بنفس البرود، الذي دخلتُ به، بعد أن استأذنتُ منها، أمّا هي فقد ظلّت تنظر إليّ باستغراب، وشفقة إلى أن خرجتُ من باب المقبرة، أين قالت في نفسها:

- يا إلهي.. كيف يستطيع تحمُّل كلّ هذا؟ من كان يدري، بأنّ كلّ هذا سيحصل له؟

***

غادرتُ المقبرة، لأذهب لبيت أبي الثّاني، فمنذ وفاة هاني أخذتُ على عاتقي زيارة أمّه، إذْ وبالرّغم من المشاكل التي كانت تحصل بينها، وبين أمّي، إلّا أنّني كنتُ أعتبرها كأمٍّ لي، لذا لم أحقد عليها يومًا.

حين وصلت استقبلتني جنّات بحفاوة، فسألتُها عن أمّها، لتخبرني بأنّها نائمة، ثمّ طلبت منّي بأن نصعد سويًّا، لأسلّم عليها.. فقلتُ لها:

- لا.. دعيها ترتاح، لا أريد أن أزعجها.
- لا يمكنني ذلك، فلو علمتْ بأنّك جئتَ لتطمئنّ عليها، وغادرتَ دون أن تراها، ستغضب منّي.
- حسنٌ.. هيّا بنا إذًا.

سرنا قليلًا، إلى أن وصلنا للدّرج، وهنا التفتت جنّات، وقالت لي:

- كنت أريد أن أكلّمك، في موضوع، بعد أن تطمئنّ على أمّي.
- حسنٌ.

***

عادت وردة لتكمل دراستها، في المعهد، وفي طريقها إليه، تذكّرت هاني، وكيف كان يركن سيّارته قرب باب المعهد، لينتظرها حتّى تخرج، ويصحبها للكافيتريا، تذكّرت أيضًا كيف كانا يحضّران للخِطبة، كلّ هذا مثل أمام عينيها، كشريطٍ انتهى بسرعة، هذه الذّكريات التي تداعت، دفعة واحدة، والتي أثّرت فيها، لدرجة أنّها وقفت في مكانها للحظات، قبل أن تجهش بالبكاء، فارتدت نظّاراتها، لكيلا يراها أحد، قبل أن تقرّر العودة، لأنّها لم تستطع تحمّل ذاك السّيل الغزير، من الذّكريات، وما إن همّت بالرّجوع حتّى سمعت أحدًا يناديها، فالتفتتْ لترى صديقتها، تأتي مهرولة نحوها، أين قالت:

- وردة؟ لا تقولي لي بأنّكِ قد استأنفتِ الدّراسة؟ يا إلهي.. كم فرحتُ حين رأيتك.

ثمّ سلّمت عليها، فقالت وردة:

- بصراحة.. سأعود للمنزل.

- ماذا؟ ولكن لماذا جئتِ للمعهد إذًا؟

وهنا لم تمالك وردة نفسها، فعادت للبكاء مرّة أخرى، وقالت:

- لم أعد أطيق البقاء أكثر.

- أفهم شعورك يا وردة، تعالي لنجلس على هذا الكرسيّ قليلًا.

وأشارت لأحد الكراسي المتراصّة، أمام باب المعهد، وقالت:

- سنرتاح هنا قليلًا، وبعد ساعة يمكنكِ أن تقرّري.. هذا الأمر طبيعيّ، لأنّها المرّة الأولى التي تأتين فيها إلى هنا، بعد الحادثة، ولكن سترتاحين بمرور الوقت، صدّقيني.

سارت وردة مع صديقتها، إلى حيث أشارت، بعدما اقتنعت بكلامها، وكأنّها كانت تنتظر هذا الكلام، لكي تعود إلى توازنها.

***

بعد أن قبضت سارة أوّل راتب، في حياتها، من المحاسب، الذي يعمل في الشّركة، عادت للبيت بسرعة البرق، وما إن فتحت الباب حتّى نادت على أمّها (قائلة):

- أمّي.. أمّي.. أين أنت؟

فخرجت أمّها من المطبخ مسرعة، ثمّ قالت:

- ماذا هناك؟

فضحكت سارة، ثمّ فتحت حقيبتها، وأخرجت الرّاتب، ثمّ قالت (وهي تحرّك المبلغ بيدها يمينًا، ويسارًا):

- أبشري يا أمّ سارة.. اليوم استلمتُ أوّل راتبٍ لي.

فجاءت أختها تجري، ثمّ قالت:

- يا سلام.. من أين لكِ بهذا المال يا سارة؟

فابتسمت، وقالت (وهي تنظر لذاك للمبلغ):

- من اليوم فصاعدًا، لن نحتاج لأحدٍ أبدًا.

فابتسمت أمّها، وقالت:

- مباركٌ عليك يا ابنتي.

***

حلّ اللّيل على أبي، الذي كان مستلقيًا على سريره، وهو يفكّر بجدّية، في اعتزال التّجارة في الممنوعات، بل ويتوب عن الأخطاء، التي ارتكبها في

حياته، وخصوصًا بعد أن رأى، ما حصل لأولاده، الذين رحلوا قبله، فأحسّ بأنّ ما وقع له رسالة، من الله، ليقلع عن المعاصي..

- ولكن بقيت آخر عمليّة، سأسلّم فيها بضاعة، على أن تكون الأخيرة.

قال أبي لنفسه، والتفت لزوجته، التي كانت تمسك بصورة ابنها، وهي تذرف الدّموع غزيرة، قبل أن يعود لمواصلة الحديث:

- يا إلهي، أعدك - بعد هذه العمليّة - بأنّي سأتوب، عن كلّ ما قمتُ به.

وعاد لينظر لزوجته، التي لم تكفّ عن ذرف الدّموع، منذ أن فارق هاني هذه الحياة.. وحين رأته ينظر إليها، قالت:

- يبدو بأنّه عقابٌ لنا، من الله، على ما ارتكبنا في حقّ الآخرين.

وعادت لتنظر للصّورة مجدّدًا، فشرد ذهنها، وراحت تفكّر، فيما فعلته لأمّي، وإخوتي، وكلّ من عرفها، فقالت لنفسها:

- خسرتُ ابني، وضيّعتُ ابنتي بسبب أخطائي، كيف سأقابل الله؟ وماذا سأقول له، إن سألني عن الذين أخطأتُ في حقّهم؟

***

- أخبريني؟ أما زال زوجكِ يزعجك، بتصرّفاته الصّبيانيّة تلك؟

قال أخو نور لهذه الأخيرة، ليطمئنّ عليها، فردّت عليه:

- حاليًّا نحن بخير، ولكن لا أعرف ما الذي سيحصل، في الأيّام القادمة.

- إن عاد ليزعجك، فساعتها يكون قد جنى على نفسه، لأنّ أبسط شيءٍ يمكنني فعله، هو أنّني لن أتركَكِ تعيشين هناك أصلًا.

دخل حازم في هذه الأثناء للمنزل، فأخفضت نور صوتها، وقالت:

- حسنٌ.. عليّ أن أنهيَ المكالمة الآن، سأكلّمكَ لاحقًا.

***

ما إن أرسلت الشّمس أشعّتها، حتّى بدأنا التّحضير لعمليّة معقّدة، وبعد أن حضّر الجميع أنفسهم، قال لنا أحد المُمرّضين، بأنّ الدّكتور حازم لم يأتِ بعد، فاضطررنا لأن ننتظره، ولكن حين يئسنا من مجيئه، اقترح أحد الأطبّاء تغييره، وهو ما تمّ بالفعل، أين استدعينا أحد الجرّاحين، ليأتيَ عوضًا عنه.

***

دقّ الباب، فقام عمّي - والد نور - ليفتحه، وما إن فتحه حتّى وقف، في مكانه مذهولًا، وقال:

- أخي سالم؟

فابتسم أبي، ثمّ قال (مازحًا):

- هل ستتركني هنا كثيرًا؟

- لا، بالطّبع.. تفضّل.

فدخل أبي، وقال لعمّي:

- كيف حالك يا أخي؟ وكيف حال الأولاد؟

- أوه.. بخير.. بخير.

قال عمّي، وهو غير مصدّقٍ بأنّ أبي قد زاره، ليسأله عن أحواله، قبل أن يسود الصّمت للحظات، ليعقبه قيام عمّي، ليجلب القهوة لأبي، الذي طلب منه بألّا يتعب نفسه، فقال له عمّي:

- وهل يُعقل أن تزورني، ولا تنال واجب الضّيافة؟

وبعد لحظاتٍ عاد، وهو يحمل في يده صينيّة، ليجلس بجانب أبي، أين صبّ له فنجانًا من القهوة، وقدّمه له.. وهنا قال أبي:

- أعرف بأنّك مستغرب، من زيارتي المفاجئة.
- لا.. أبدًا، البيت بيتك يا أخي، تستطيع أن تأتي متى شئت.
- أشكرك.. ولكن دعني أكمل حديثي.
قال أبي، فردّ عليه عمّي (معتذرًا):
- حسنٌ.. تفضّل.
- جئتُ لأخبرك، بأنّي قد كلّفتُ رؤوف، ليعيد لكم كلّ حقوقكم، أنت، وباقي إخوتي.
فاتّسعت عينا عمّي، ونظر لأبي بدهشة، وكأنّه لم يصدّق ما سمعه، أمّا زوجته التي كانت واقفة، خلف باب الصّالون، لتستمع لما يقوله أبي، فطارت من الفرح، حين علمت بأنّه ينوي، أن يعيد لزوجها حقوقه.
- أحقًّا ما تقوله يا سالم؟
- أجل.. لقد ظلمتكم كثيرًا، واستوليتُ على أموالكم، بدون وجه حقّ، وكانت النّتيجة أنّني خسرتُ ثلاثة، من أولادي، في فترة وجيزة.. أرجو أن تسامحوني كلّكم.
قال أبي كلامه، وقد بدا عليه النّدم، لما اقترفه من ذنب، اتّجاه إخوته، الذين مات بعضهم، بينما لم يبق منهم إلّا القليل.
***
بعدما انتهينا من العمليّة عدتُ لمكتبي، واستلقيتُ على السّرير الخاصّ بالمرضى، لأرتاح قليلًا، فقد تعبت، لدرجة أنّني لم أعد أرى أمامي.. وما إن وضعتُ رأسي على الوسادة حتّى غطّيت، في نومٍ عميق، لأرى نفس الحلم، الذي رأيته سابقًا، ولكن هذه المرّة رأيتُ نور، وحازم ممدّدين على الأرض،

وثيابهما مضرّجة بالدّم، لأصحو منه فزعًا، والعرق يتصبّب من جبيني، نظرتُ هنا، وهناك، لأجد بأنّي في مكتبي، فقرّرتُ الذّهاب، لأكلّم نور، وحازم، وأحذّرهما، وما إن خرجت، وسرتُ قليلًا، حتّى رأيتُ سمير مع نور، ورشا، وما إن رآني حتّى ناداني، ليكلّمني في موضوعٍ، وما إن وصلت، ووقفتُ لأتكلّم معه، حتّى تفاجأنا بحازم يقف أمامنا، أين صرخ في نور (قائلًا):

- ألم أنبّهكِ من العودة للحديث معه.

ونظر إليّ في هذه الأثناء، في إشارة منه، بأنّي المقصود بالكلام، فقالت له نور:

- ألن تكفّ عن الخوض في الموضوع؟ ألم نتحدّث في هذا سابقًا؟

واحتدم النّقاش بين الاثنين، إلى أن تدخّل سمير، ليفضّ النّزاع، فقال حازم لنور:

- إن لم تخرجي معي الآن، فسأرتكب جريمة.. أتفهمين؟

ثمّ تركنا.. فنظرت رشا لنور، وقالت لها:

- عليكِ أن تلحقي به، قبل أن يقوم بتصرّفٍ طائش.

فخافت نور، وانطلقت مسرعة خلفه، وهنا التفتت رشا إليّ، وقالت:

- لا تغضب.. فزوجها غيور، لدرجة أنّه لا يقبل أن يراها، تتحدّث مع أيّ زميل لها، في هذا المستشفى.

***

خرج حازم من المشفى، لتلحق به نور، أين ركبا السّيّارة، لينطلق حازم بأقصى سرعته، وقد بدا عليه الغضب، وهنا قالت نور:

- هل عليّ أن ألحق بك، في كلّ مرّة تغضب فيها؟

- لم يكن عليكِ اللّحاق بي، بإمكانكِ النّزول إن شئت.

وهنا عاد الاثنان للشّجار، ليظلّا على هذا الحال، لمدّة من الزّمن، قبل أن تفاجئهما سيّارة آتية، في الاتّجاه المقابل، كان صاحبها يريد تجاوز السّيّارة، التي قبله، ولكنّه لم يكن يعرف، بأنّ سيّارة حازم آتية في الاتّجاه الآخر، حاول حازم الابتعاد عنها، ولكنّه لم يستطع ذلك، نظرًا لسرعته، أين اصطدم بها، وانقلبت سيّارته، ليموت في الحال، متأثّرًا بجروحه، أمّا نور فقد نُقلت، في حالةٍ حرجة للمشفى.

***

عدتُ لمكتبي مرّة أخرى، وأنا أشعر بضيقٍ شديد، مستغربًا سرّ تحامل حازم عليّ، وتغيّره المفاجئ معي، لم يكن لي رغبة، في مواصلة العمل، فبقيتُ للحظاتٍ أراقب تلك النّجوم المتلألئة، التي تزيّن السّماء، وفجأة دخل سمير لمكتبي، وقال:

- ألم تسمع ما حصل؟

فالتفتُّ إليه، وقلتُ له ببرود، بعد أن جلست، لأتفحّص تلك الملفّات، التي فوق المكتب:

- ماذا حصل؟

- تعرّض حازم وزوجته نور لحادثٍ خطير، ليتمّ إحضارهما إلى هنا، على جناح السّرعة.

وقفتُ عند كلمة نور، ولم أستطع التّركيز بعدها، في أيّ كلمة أخرى، أين أغمضتُ عينيَّ للحظات، فاقترب منّي سمير، وسألني:

- هل أنت بخير يا حامد؟

ولكنّي قمتُ من مكاني، دون أن أجيبه، وتوجّهتُ للرّواق، الذي نُقلت إليه نور، ليلحق بي سمير، وما إن وصلنا حتّى رأينا مجموعة، من الأطبّاء، يتكلّمون مع بعضهم، وحين اقتربت، سمعتُ أحدهم يقول (متأسّفًا):

- الدّكتورة نور حالتها حرجة، أمّا زوجها فقد توفّي، في عين المكان.

فقال الآخر:

- يا إلهي، كيف لهذا أن يحدث؟ قبل قليلٍ كنتُ أتحدّث معه.

لم أتمالك نفسي، حين سمعتُ ما حصل لنور، وحازم، فسرتُ لأجتاز أولئك الأطبّاء، كنتُ أمشي دون وعي منّي، وأنا لا أفكّر إلّا في نور، أين عادت بي الذّاكرة، سنين للوراء، لأتذكّر أيّام الطّفولة، وينهال عليّ فيضُ ذكرياتٍ بعدها غزير، أين كانت جدّتي تروي لنا القصص، فنخاف في اللّيل من الغولة، أو مِن أن نغادر أسرّتنا، لأيّ سببٍ كان، كنتُ أمشي، ولا أفكّر في شيء سواها، أمّا أولئك المارّة، من أطبّاء، وممرّضين، فلم أنتبه لوجودهم أصلًا، لدرجة أنّ بعضهم قد ألقوا التّحيّة عليّ، ولكنّي لم أكترث لهم، فهمّي الوحيد كان الوصول للغرفة، التي وضعت فيها نور، وكم بدا الطّريق طويلًا، رغم قصره، إلى أن انتهيتُ من الرّواق، ووصلتُ لآخر غرفة، على اليمين، لأقف عند تلك النّافذة الزّجاجية، وأراها وهي نائمة، والأطبّاء حولها.. بقيتُ هكذا للحظات، أتأمّلها من وراء الزّجاج، إذْ لم تكن لديّ الشّجاعة لأدخل، وأراها عن قرب.

***

- يجب عليّ أن أتخلّص منه، في أقرب وقت.

كان مروان يحدّث نفسه، حول كيفيّة التّخلّص من أبي، قبل أن يسكب الخمر، في الكأس، الذي في يده.. ثمّ عاد ليقول:

- وليس هذا فحسب، بل عليّ أن ألفّق التّهمة، لأيّ شخصٍ آخر، فسالم رجلٌ مهم، وأمر مقتله سيقيم الدّنيا، ولن يقعدها.

وشرب القليل من الخمر، ثمّ عاد ليفكّر في الموضوع:

- هل عليّ أن أتّفق مع أحد رجالي، لألصق فيه التّهمة كالعادة، وأكلّف له المحامين، للدّفاع عنه؟ أوه.. سأحاول أن أجد حلًّا، أحسن من هذا، فلا يمكن لرجالي تحمّل قضاء حياتهم، في السّجن، فكّر يا مروان.. فكّر بجدّية، في الأمر.. فسالم ليس كغيره من النّاس.

***

ما إن بزغت الشّمس لحسناء، أطلّت من مخدعها بخجل، حتّى توجّه أبي، مع اثنين من رجاله، للمستودع كالعادة، ليجهّزوا البضاعة، وفي الطّريق اتّصل بباقي رجاله، وطلب منهم انتظاره، هو ومن معه، في أحد الطّرقات المعزولة، ريثما ينتهون من نقل البضاعة.

***

اتّصل مروان بأحد رجاله، فقال له هذا الأخير، ليطمئنه:

- نحن خلفه.. لا تقلق سيّدي.

- لا أريد أيّ خطأ.. أتفهم؟

- أجل سيّدي.. سيكون كلّ شيء على ما يرام.

أغلق مروان الهاتف، ثمّ ابتسم.. وقال:

- حانت ساعتك يا سالم، كم أتوق لرؤيتك، بعد كلّ هذه المدّة، لأرى كيف سيكون شعورك، حين تراني أمامك حيًّا أُرزق.

وضحك بصوتٍ مرتفع، ثمّ فتح الخزانة، ليخرج ثيابه، ويلحق برجاله.

***

- عليك أن تذهب يا حامد، فأنت متعبٌ جدًّا.

قال أحد الأطبّاء، حين رآني جالسًا، على الكرسيّ المقابل لسرير نور، قبل أن يذهب، أمّا أنا فقد بقيتُ في مكاني، وكأنّه لم يكلّمني، دخل في هذه الأثناء سمير، ثمّ قال لي:

- هيّا..

فرفعتُ بصري نحوه بالكاد، وقد بدا عليّ التّعب، فأمسكني من ذراعي، وقال (متأسّفًا):

- أعلم بأنّك حزينٌ على وضعها، ولكن لنفسك عليك حق، يجب أن ترتاح قليلًا، فحتّى وإن بقيت هنا، لن يفيدها بقاؤك هذا في شيء.

وبالكاد استطعتُ الوقوف، لأخرج مع سمير، الذي قرّر أن يوصلني، فخالتي لم تكن تسمح بأن أسوق السّيّارة.

***

وصل أبي ورجاله للمستودع، وما إن دخلوا حتّى وضعوا البضاعة، في الحقيبة، التي مع أبي، وعندما انتهوا، حمل أبي الحقيبة، وهمّ بالخروج، هو ومن معه، ليتفاجؤوا برجال مروان، يخرجون من وراء تلك الصّناديق المكدّسة، التي وضعها أبي بغرض التّمويه، فظاهرها يوحي بأنّه تاجر، يضع البضائع في تلك الصّناديق، ولكن باطنها يخفي أسلحة، جُلبت من بلدان

كثيرة.. التفّ رجال مروان حول أبي، ورجاله ليشكّلوا دائرة، وكلّ واحد فيهم يحمل مسدّسًا، فرفع أبي ورجاله أيديهم، بأمرٍ من أحد رجال مروان، ليخرج هذا الأخير من وراء رجاله، أين ابتسم لأبي، وقال:

- التقينا أخيرًا.. أليس كذلك؟

فاتّسعت عينا أبي، وقال (مستغربًا):

- مروان؟

- مفاجأة.. أليس كذلك؟

من هول الصّدمة، لم يجد أبي ما يقوله.. وفي هذه الأثناء كان مروان قد اقترب منه، ليهمس في أذنه (قائلًا):

- أنت تدين لي بدين، وعليك أن تُوفّيه.

وضحك بصوتٍ مرتفع، وأشار بعدها لبعض رجاله بيده، وقال:

- خذوا هذين الرّجلين معكم.. لأرى ماذا سأفعل بهما.

وانتظر حتّى خرج بعض رجاله، وأخذوا معهم الرّجلين، ليتوزّعوا، بحيث ركب نصفهم في سيّارة، ليركب الآخرون في سيّارة أخرى، وانطلقوا على جناح السّرعة، وفي هذه الأثناء طلب مروان، من أحد رجاله البحث، في جيوب أبي، ليحضر له هاتفه.. وبعد أن أحضره له، قال:

- إليك الهاتف سيّدي.

فأمسكه، ثمّ تفحّصه، أين دخل لبياناته، ليبحث عن الأرقام الموجودة فيها، إلى أن وصل عند رقمي، فقال:

- أمم.. حامد ابن راضي.. لا شكّ في أنّه ابنك.

قال هذه الجملة، وهو ينظر لأبي، وعاد لينشغل بالهاتف، فمشى بضع خطوات للأمام، ووصل عند باب المستودع، ليجتازه، وهنا اتّصل بي:

- ألو.. سيّد حامد؟

فقلتُ (مستغربًا):

- أجل؟

- سيّد حامد.. أرجوك.. ساعدنا، نحن في ورطة.

- لماذا؟ ما الذي حصل؟ ولما لم يكلّمني أبي بنفسه؟

- كنّا في طريقنا لأحد المستودعات، فاعتدى علينا مُسلّحون، وأصابونا بأعيرة ناريّة.

- ماذا؟ ماذا قلت؟

- كما سمعت، وأبوك الآن بين الحياة والموت، أرجوك أن تسرع لنجدته، فأنا لا أستطيع أن أسعفه، لأنّني مصابٌ في رجلي.

ما إن أنهى مروان كلامه حتّى قمت، من فراشي، وارتديتُ ثيابي، على عجل، لأنطلق مسرعًا للمكان، الذي أخبرني به.

***

بعدما أنهى مروان كلامه، أغلق هاتف أبي، ووضعه في جيبه، وأخرج هاتفًا آخرًا، كان لأحد رجاله، واتّصل بالشّرطة، ليبلغهم بأنّ أحدهم قد قتل رجلًا، ودلّهم على المكان، وبعدما أنهى المكالمة، عاد للمستودع، ثمّ قال لأبي:

- كنت تظنّني ميتًا، أليس كذلك؟ سأنتقم منك، تمامًا كما فعلتَ معي، أم تُراك نسيت؟

كان رجال مروان يراقبون الطّريق، في هذه الأثناء، بينما بقي مروان في الدّاخل، ومعه بعض رجاله، أين أعطى لأبي درسًا، في الأخلاق، وحين تعب أخرج السّكين، من جيبه، وفتحه، ليقترب من أبي، وقام بطعنه عدّة طعنات، كانت آخرها في قلبه، ليطرحه أرضًا، قبل أن يفرّ، هو ومن معه، ليلتقوا بباقي الرّجال، أين ركبوا سيّاراتهم، وهربوا.. كنتُ في هذه الأثناء على مقربة، من المكان، الذي أخبرني به، وبعد دقائق وصلت، فوجدتُ باب المستودع مفتوحًا.. نزلتُ من سيّارتي، ونظرتُ هنا وهناك، فلم أجد أيّ أحد، وأنا على هذا الحال، إذْ بي أسمع صوت أنين، يصدر من داخل المستودع، فأسرعتُ نحوه، لأتفاجأ بأبي ممدّدًا على الأرض، وهو غارقٌ في دمائه، فصرختُ (بأعلى صوتي):

- أبي...

وأسرعتُ نحوه، وجثوتُ على ركبتيَّ، ثمّ قمتُ بإبعاد تلك الحقيبة عنه، وأسندتُ رأسه على كتفي، محاولًا رفعه عن الأرض، وكذا مساعدته على الوقوف، لآخذه للمشفى، ولكن بلا فائدة، فشعوري بالخوف، بالإضافة لارتخاء جسمه، قد حالا دون ذلك، لم أدر ماذا أفعل، في هذه الأثناء؟ فأنا لم أحضر حقيبتي الطّبية، من شدّة الصّدمة، وحين شعرتُ بالعجز، وقلّة الحيلة، عدتُ لأمسك السّكين، بدون وعي، ولكنّني أبعدتُ يدي، حين تأكّدتُ من عمق الجرح، وأنا على هذا الحال، إذْ نطق بالكاد:

- اهرب..

فقلتُ له (بغضب):

- من فعل بك هكذا؟

ولكنّه لم يُبالِ، وبدلًا من ذلك، قال لي (وقد كانت أنفاسه تخرج، من صدره بصعوبة):

- سامحني يا بُنيّ.

فعدتُ لأسأله مرّة أخرى (وأنا أبكي بحرقة):

- أرجوك.. أخبرني من فعل بك هذا؟

- مروان..

وقبل أن يكمل شخص بصره، نحو السّقف، فصرختُ (قائلًا):

- أبي.. أرجوك.. لاااا.. أبي..

وفي هذه الأثناء دخل رجال الشّرطة، ليجدونا على هذا الحال، فالتفّوا حولي، واقترب منّي اثنان منهم، ليسحباني للوراء، أمّا الباقي فقد أمرهم المسؤول عنهم، بإلقاء نظرة، على ما في المستودع، قبل أن يأخذوني معهم، آخر الأمر، وأنا منهارٌ كليًّا.

***

وصل أخو نور للبلد، أين كان الظّلام قد حجب، كلّ ما في المدينة، ثمّ توجّه مع زوجته للمشفى، فوجد أباه، وزوجته ينتظران، خارج غرفة نور، ليسرع نحو والده، وما إن رآه هذا الأخير حتّى عانقه، وهو يبكي بحرقة، ثمّ قال:

- أرأيت ما حصل لأختك؟

فقال أخو نور (وقد امتزجت مشاعره بين الغضب، والحزن):

- كلّ هذا بسبب ذاك اللّعين.. ليتني أخذتها معي، آخر مرّة، ليتني لم أتركها هنا.

ثمّ انهار من البكاء، فربت أبوه على كتفه، وقال:
- هوّن عليك يا بُنيّ.. فهذا قدرها.

***

دخل الحارس مسرعًا، وطلب من الخادمة بأن تنادي لرؤوف، لينزل بعد لحظات، متّجهًا نحو الحارس، الذي قال له:
- رجال الشّرطة في الخارج.. يريدون مقابلتك.
فقال رؤوف (مستغربًا):
- وما الذي يريدونه، في هذا الوقت؟
ثمّ ألقى نظرة على هاتفه، ليجدها العاشرة ليلًا، فقال الحارس:
- الله أعلم.
فخرج رؤوف، ليرى ماذا يريدون، وهنا اقترب منه أحدهم، وقال له:
- أريد أن أحدّثك في أمرٍ هام.
فطلب منه رؤوف الدّخول للمنزل، وسبقه للصّالون (قائلًا):
- تفضّل سيّدي.
ثمّ أغلق الباب، وهنا نزلت أمّي، التي توجّست في نفسها خيفة، فمنذ مقتل خالد، لم تعد ترتاح أبدًا، لمجيء الشّرطة، وخاصّة في هذا الوقت، ثمّ اتّجهت للصّالون، أين اقتربت من الباب، لتسترق السّمع، وفي هذه الأثناء نزلت فلّة، لتسرع إليها، فأشارت لها بأن تسكت، حتّى تسمع ما يقوله الضّابط.. قال رؤوف لهذا الأخير:
- خيرًا إن شاء الله!
فتنهّد الضّابط، ثمّ قال:

- بصراحة.. لم أرد أن أقول هذا الكلام، ولكن تلقّينا خبرًا، يفيد بمقتل رجل، وحين ذهبنا للمكان، الذي دلّنا عليه المتّصل، وجدنا بأنّ الضّحيّة إنّما يكون أباك..

فقال رؤوف (مندهشًا):

- ماذا قلت؟ أبي مات؟

- وليس هذا فحسب، فقد وجدنا أخاك حامد معه، وعلى الأرجح بأنّه هو من قتله، طبعًا لا يمكننا الجزم بهذا، قبل أن نحقّق في القضيّة.

وما إن سمعت أمّي اسمي حتّى قالت:

- ابني.. حامد.

ووضعت يدها على قلبها، قبل أن تسقط مغشيًّا عليها، لتصرخ فلّة، طالبةً النّجدة، وما إن سمعها رؤوف حتّى ركض، مسرعًا نحوها، وهو لا يدري ما الذي عليه فعله، فراح يصرخ هو الآخر:

- أمّي.. هل أنتِ بخير؟ أمّي.. أمّي..

***

- ألن تقول شيئًا يا حامد؟

قال الضّابط بعدما يئس، من استجوابي، أمّا أنا فقد بقيتُ صامتًا، وكأنّه لم يحدّثني، فقد فقدتُ صلتي، بكلّ ما في هذا العالم، حتّى صرتُ مثل شخصٍ يحتضر، شخصٌ حاضر بجسده، في عالم الأحياء، ولكنّ روحه تطوف في عالم آخر.. نظر الضّابط لزميله، ثمّ ضرب أكفّه، وقال:

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله، يبدو بأنّ الصّدمة قد كانت شديدة عليه.

ثمّ نادى للحارس، وطلب منه بأن يأخذني للزّنزانة.

***

بعدما اطمأنّ رؤوف على أمّي، طلب من فلّة بأن تبقى بجانبها، لتتّصل به، إن حصل لها أيّ شيء، لينطلق على جناح السّرعة للمشفى، حتّى يرى أبي بنفسه، لأنّه لم يصدّق بعد، ما قاله له الضّابط.. وما إن وصل حتّى استقبله أحد الضّباط هناك، ليأخذه إلى حيث وُضعت الجثّة، ثمّ تركه وحده بالغرفة، وبقي عند الباب ينتظره.. اقترب رؤوف بحذر، وأزال الغطاء عن وجه أبي، وبمجرّد أن رآه، وتأكّد بأنّه هو، حتّى انهار كليًّا، ولم يستطع التّحكّم في نفسه، أين أجهش بالبكاء، وانحنى عليه ليعانقه، ويقبّله، وقال بعدها:

- أعدك بأنّني سأنتقم ممّن قتلك.. لن يهنأ لي بال، إلّا حين أقتله.

ثمّ عاد ليغطّيَ وجهه مرّة أخرى، وخرج وهو مصدوم.

***

بعد أن أخذني الحارس لزنزانة انفرادية، أغلق عليّ الباب، لأبقى حبيسًا بين أربعة جدران، ولا شيء يؤنس وحشتي، إلّا ذاك النّور، الذي ينبعث خجلًا من النّافذة، التي تقع في السّقف، فجلستُ أراقبها بحزن، وقد اسودّت الدّنيا في عيني، ليس لأنّي دخلتُ للسّجن، ولا لأنّي المتّهم الوحيد، في هذه القضيّة، بل لأنّي لم أستفق من الصّدمات، التي مضت بعد، والتي كان آخرها دخول نور، في غيبوبة، لتُضاف لها صدمةٌ أخرى، تنتهي باتّهامي بالقتل، ممّا جعلني أدخل في اكتئاب.

***

توقّفت سيّارةٌ عند منزل أمّ هاني، فقام الحارس ليرى من الذي جاءهم، في هذا الوقت، ليتفاجأ بمجيء خال هاني، ففتح له الباب، ليترك سيّارته عند مدخل المنزل، ثمّ دخل مسرعًا، فوجد جنّات، التي قالت:

- خالي؟ خيرًا إن شاء الله.

فاقترب منها، ثمّ أخرج منديلًا من جيبه، ليمسح به حبّات العرق، التي نزلت من جبينه، على عجل، فقالت له جنّات مرّة أخرى:

- تبدو على غير عادتك يا خالي.

فتنهّد، ثمّ سألها عن أمّها، فقالت له:

- إنّها في غرفتها، هل جئت لزيارتها؟

- أوه.. أجل، أريد أن أحدّثكما في أمر.

فصعدت جنّات معه لغرفة أمّها، وهي غير مرتاحة، ولكن ما باليد حيلة، فقد كان عليها الصّبر، إلى أن تجتمع بأمّها، ليخبرهما بالموضوع، وبعدما دخلا للغرفة، وسلّم خالها على أمّها، سكت قليلًا، فقالت جنّات:

- ولكن ما الموضوع الذي جئت لتحدّثنا فيه؟ قلبي يحدّثني بأنّك جئت، لتخبرنا عن مكروه، وقع لأحدهم.

فاتّسعت عينا أمّ هاني، ثمّ قالت:

- هيّا.. ما الأمر؟

- زوجكِ سالم..

ثمّ عاد ليمسح العرق، بنفس المنديل، فقالت أمّ هاني:

- لا تقل لي بأنّه قد مات، هو الآخر؟

فأومأ برأسه، وقال:

- أجل، لقد وجدوه مقتولًا، ووجدوا معه ابنه حامد، وعلى الأرجح أنّه هو من قتله.
فقامت جنّات من مكانها، وقد تغيّر وجهها، وتسارعت نبضات قلبها، ثمّ لطمت خدّها بكفّها، وقالت:
- ماذا؟ أبي مات، وحامد هو من قتله؟ مستحيل.. ما تقوله مستحيل، ولا يصدّقه عاقل.

***

بعد أن انتهى مفعول الدّواء، بدأت أمّي تئنُّ بصوتٍ خافت، وتقول:
- أين ابني؟ أريد أن أراه.
فاقتربت منها فلّة، ثمّ قالت لها:
- أمّي.. كيف حالكِ الآن؟
ففتحت أمّي عينيها، ونظرت حولها، أين رأت فلّة، ومعها خالتي، التي ظلّت بجانبها، منذ أن سمعت الخبر، حاولت أن ترجع بذاكرتها للوراء، وما إن تذكّرت الموضوع حتّى عادت للبكاء، وقالت لخالتي:
- أريد أن أرى ابني حامد، أين هو؟
ثمّ التفتت نحو فلّة، وعادت لتسألها:
- أين هو أخوك يا فلّة؟
- سنذهب لزيارته قريبًا، أعدكِ بذلك يا أمّي.
فعادت أمّي للبكاء مرّة أخرى، ثمّ قالت:
- ابني ليس قاتلًا، ولا يستطيع إيذاء نملة، أسمعتِ هذا يا أختي؟
- كُفّي عن إيذاء نفسك، أرجوك.. من المؤكّد بأنّ هناك خطأ ما.

قالت خالتي لأمّي، فردّت عليها هذه الأخيرة:
- وكيف لي ألّا أؤذيَ نفسي، وكلّ هذا يحصل لي، دفعة واحدة، زوجي ميّت، وابني متّهم، وخالد، ونريمان.. من أين آتي بالصّبر؟ قولي لي.

***

جلس رؤوف، وخالي، وزوج خالتي، مع أولئك الضّيوف، الذين جاؤوا، لتقديم العزاء، فكان بعضهم يأتون، وآخرون يغادرون، بعدما يفرغون من أداء الواجب، وهم على هذا الحال، حتّى قال أحدهم لصديقه، واللّذان كانا يجلسان، بجانب رؤوف:
- هل صحيحٌ ما سمعناه؟
- وما الذي سمعته؟
- سمعتُ بأنّ المرحوم قد مات مقتولًا، وأنّ ابنه حامد هو الذي قتله.
فقال الآخر (معترضًا):
- بصراحة، لم أسمع هذا الكلام إلّا الآن.
- أنا أيضًا لم أصدّق ما قيل، فابنه معروف عنه بأنّه شابٌّ عاقل، وحسنُ الخُلُق، ولم نسمع عنه يومًا، بأنه قد قام بفعل قبيح.
فقام رؤوف، بعد أن سمع، ما دار بين الرّجلين، مستأذنًا من خالي، وما إن خرج من الصّالون حتّى اتّصل، بمحامي العائلة، ليطلب منه مرافقته، للنّيابة غدًا، ليرى ما الذي سيفعله، في قضيّتي.

***

خرج رؤوف في الصّباح، متّجهًا لبيت المحامي، ليأخذه معه للنّيابة، وما إن وصلا، ودخلا عند الضّابط، حتّى قدّم المحامي نفسه، على أنّه جاء ليمسك

قضيّتي، وطلب منه رؤيتي، وهو ما فعله الضّابط، الذي أمر الحارس بإحضاري، من الزّنزانة.. دخلتُ لمكتب الضّابط، الذي استأذن من المحامي، ليتركنا بمفردنا، وما إن خرج حتّى طلب هذا الأخير منّي، بأن أروي له تفاصيل الحادث، ولكنّي بقيتُ صامتًا، فقال رؤوف:

- تكلّم.. فالصّمت لن يفيدك، أخبرنا ما الذي رأيته.. من قتل أبي؟

ولكن لا حياة لمن تنادي، فقد كانوا في واد، وأنا في واد، كنت حاضرًا معهم بجسدي، أمّا الرّوح فظلّت مرتبطة، بالذين فارقوا عالمنا، وأبت إلّا أن تبقى بجوارهم.

***

بعد أن غادرتُ قال الضّابط للمحامي:

- إن ظلّ صامتًا فسوف يعدم، لأنّ كلّ الأدلّة ضدّه، أضف لذلك حقيبة المخدّرات، التي وُجدت بحوزته حين قُبض عليه، والسّلاح الذي وجده رجال الأمن بالمستودع، ما يعني أنّه تاجر سلاحٍ، ومخدّرات.

فنظر المحامي لرؤوف، الذي شعر بالتّوتّر، وقال:

- أظنّ بأنّه لا زال تحت تأثير الصّدمة، أرى بأن نمهله بعض الوقت، على أن أحاول معه مرّة أخرى.

***

ما إن أخبر رؤوف أمّي، بما سمعه من الضّابط، وما فعلتُه معهم، حتّى بدأت تلطم وجهها، وتقول:

- عليّ أن أذهب إليه حالًا، عليّ أن أقنعه.. أرجوك، خذني إليه.

- سآخذكِ إليه، ولكن ليس الآن يا أمّي.

- ولما لا؟

قالت أمّي بغضب، فردّ عليها رؤوف:

- أتظنّين بأنّنا نستطيع زيارته، متى ما أردنا؟ لن تريه قبل أن يحين موعد الزّيارة القادم.

- أرجوك - يا رؤوف - أن تُكلّم أحد معارف أبيك، ليتصرّفوا.

قالت أمّي، بعد أن أمسكت يده، مترجّية إيّاه، فتنهّد، وقال:

- حسنٌ.. سأحاول.

***

- أتعلم يا عامر؟ أحسّ بأنّ هذا الشّاب بريء.

قال الضّابط لزميله، فردّ عليه هذا الأخير (مؤيّدًا):

- معك حقّ.. فمنذ أن عُيّنتُ هنا، لم أرَ جرّاحًا يتاجر في المخدّرات، فتجّار الممنوعات يختلفون عن هذا الشّاب، أضف لذلك، فإنّه من عائلةٍ ثريّة، وليس بحاجة لأن يتاجر، في هذه الأمور.

- المشكل هو أنّ كلّ الأدلّة ضدّه، كم هو مسكين، هذا الشّاب.

- لا أعرف لما أحسّ بأنّ هناك شخصًا، أراد توريطه، في هذه القضيّة.

قال عامر لزميله، فردّ عليه هذا الأخير:

- كان الله في عونه.

***

ظلّت أمّي تصلّي اللّيل كلّه، وتدعو الله بأن يخرجني من هذه المشكلة، سالمًا، معافى، وألّا أدفع ثمن أخطاء أبي عوضًا عنه، فمن وجهة نظرها، أنّ كلّ ما وقع لنا، هو بسبب ذنوبه، التي لا تُحصى، والتي راح ضحيّتها، معظم

أولاده.. كانت أمّي مع كلّ سجدة تسجدها، إلّا وتبكي بحرقة، وتدعو الله بأن يأخذ بيدي، ويساعدني في محنتي، وأن يغفر لوالدي، ويتجاوز عن سيّئاته، ويسامحه عمّا فعله بنا حيًّا، وميّتًا.

***

كنت أفكّر في كلّ ما مضى، وفي إخوتي، ونور، ولبنى، الذين لم أفعل شيئًا يُذكر، لأساعدهم، رغم أنّني قد رأيتُ ذاك الحلم، مرّاتٍ عديدة، وكان بإمكاني تحذيرهم، أو على الأقلّ أن آخذ هذا الحلم، على محمل الجدّ، فأسأل المفسّرين ليفكّكوا رموزه، لكنّي لم أكترث بالقدر الكافي، بالرّغم من رؤيتي المتكرّرة له.

بعدما غرقتُ في أفكاري، رحتُ ألوم نفسي، على تقصيري اتّجاه أهلي، فتضاعف حزني، ذاك الحزن الذي أبى، إلّا أن يُطبق على ضلوعي، وأنا على هذا الحال، إذْ فتح الحارس الباب، ليُدخل الأكل، ثمّ قال لي (بعد أن وضعه بجانبي):

- كُل.. يا بُنيّ.

ولكنّي لم أجبه، لأنّني لم أنتبه له حين دخل أصلًا، فقد كنت غارقًا في أفكاري، بما يكفي، لأبتعد عن هذا العالم، لعالمٍ آخر، مختلف تمامًا عن واقعنا القاسي.. فنظر لي مليًّا، ثمّ ضرب كفًّا بكفّ، وقال:

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

ثمّ خرج، وأغلق الباب (وهو يقول):

- كم هو مسكين.. كان الله في عونه.

***

كان الدّكتور سمير جالسًا، في مكتبه، حين دخل عليه أحد الأطبّاء، ليسأله عن أخباري، فأخبره بما حصل معي، أين تفاجأ الطّبيب، وقال:

- هذا غير معقول، لا أصدّق أبدًا، بأنّ الدّكتور حامد يقوم بهذا الفعل، فهو إنسانٌ خلوق، ولا يستطيع إيذاء نملة، قل كلامًا غير هذا.

- هذا ما حصل.

قال سمير بيأس، وإحباطٍ شديدين، فعاد الآخر ليسأله:

- ما رأيك لو نذهب لزيارته؟

- وهذا ما أنوي فعله، فهو في حاجة ماسّة لمن يواسيه، ويعزّيه.

- أتعلم يا سمير؟ أحسّ بأنّ المشفى قد أصيب بلعنة، ففي ظرف شهر ماتت الدّكتورة لبنى، ليلحق بها الدّكتور حازم، وزوجته الآن بين الحياة والموت، وأخيرًا الدّكتور حامد، الذي اتُّهم بقتل والده.

فقال سمير (متأسّفًا):

- معك حقّ.

ثمّ سكت قليلًا، وعاد بعدها ليقول:

- آمل أن يخرج حامد من هذه المشكلة، في أقرب الآجال.

***

مرّت عدّة أيّام، على وفاة أبي، وعلى زيارة أمّي الأولى لي، في السّجن، كنت في هذه المدّة قد تعوّدت، على الوحدة، والحزن، وتعوّدتُ على ظروف السّجن، ولكن بالرّغم من هذا، إلّا أنّ حالتي النّفسية بقيت، على ما كانت عليه، بحيث زارني المحامي، عدّة مرّات، وحاول معي، ولكن دون فائدةٍ تذكر.. ما دفعه للاتّصال بأمّي، لتحاول معي مجدّدًا، عساها تقنعني، بالعدول

عن هذا الصّمت، الذي لا مبرّر له، وهو ما تمّ بالفعل، فقد جاءت أمّي مع رؤوف لزيارتي، وحاولت أن تقنعني بضرورة التّحدّث للمحامي، وإخباره بكلّ ما رأيته، ولكن هيهات.

ظلّ رؤوف هو الآخر يحاول إقناعي، بكلّ الأساليب، فتارة يصرخ فيّ، وأخرى يعود لهدوئه، ويحدّثني بصوته الشّجي، إلى أن عجز، فقام فجأة، ليمسكني من قميصي، بكلتا يديه، وصرخ فيَّ مجدّدًا:

- إلى متى ستظلّ صامتًا هكذا، مثل الأحمق؟ أتريد أن تموت، بسبب ذنبٍ لم ترتكبه؟

ولكمني في أنفي، لكمةً قويّة، فشعرتُ بالدّوار، وحاولتُ التّمسك بأيّ شيء أمامي، ولكن لم أستطع، فوقعتُ على الأرض، لأفقد وعيي.. دخل في هذه الأثناء الحارس، وذلك حين سمع صراخ أمّي، التي لم تمالك نفسها، حين رأت رؤوف ينقضّ عليّ كالوحش، ونادى لباقي الحرّاس، الذين جاؤوا بسرعة البرق، أين قام بعضهم بحملي، أمّا البعض الآخر فقد طلبوا من أمّي، وأخي بأن يغادرا حالًا.

***

بعد مرور أيّام، على هذه الحادثة، فتح الحارس عليّ الباب، ثمّ دخل، وهو يحمل - في يده - ملابس حمراء، وبعد أن وضعها بجانبي، أين كنت جالسًا على السّرير، تراجع بخطواتٍ بطيئة للوراء، وقال:

- هل تريد منّي شيئًا، قبل أن أذهب؟

فنظرتُ إليه مطوّلًا، ولكنّي لم أجبه بكلمة، فخرج (وهو يقول):

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله.. كان الله في عونك يا بُنيّ.

وأغلق عليّ الباب، ليتركني مع تلك البدلة، فرُحتُ أنظر إليها، ولكن ليس لوقتٍ طويل، فقد عدتُ لأنظر للنّافذة، متسائلًا عمّا سيحصل لي، بعد هذا كلّه، وإن كنت على يقين، بأنّها مسألة أيّامٍ فقط، قبل أن ألاقي مصيري المحتوم، والذي لا مفرّ منه، على ما يبدو.

***

ظلّ أبو نور واقفًا، ينظر لابنته، من خلف الزّجاج، وهو يدعو الله، بأن يعيدها للحياة مجدّدًا.. ورغم حزنه عليها، إلّا أنّ يقينه، وإيمانه بالله، لم ينقصا، أو ينضبا، فظلّ يتضرّع لله، بكلّ ثقة، ويقين.. طامعًا في رحمته، التي وسعت كلّ شيء، والتي بنى عليها آماله، فكان في كلّ مرّة يبكي، إلّا ويكفكف دموعه بعدها، ليستأنف الدّعاء.

***

منذ أن صدر الحكم بالإعدام، وأمّي لم تكفّ عن البكاء، أين راحت تندب حظّها العاثر، وتتّهم أبي بكلّ ما حصل لنا، هكذا قالت لأمّ هاني، حين حلّفتها بكلّ عزيز، أن تكفّ عن إرهاق روحها، وتعذيبها.

- أرأيتِ يا أمّ هاني، ماذا فعل فينا زوجك؟ أرأيتِ إلى أين وصلنا؟ أكان يجب أن يحدث كلّ هذا؟ أكان يجب أن يدفع أولادنا، ثمن أخطائه؟

ثمّ عادت للبكاء، ولكنّها لم تكن وحدها، هذه المرّة، فقد بكت زوجة أبي، وجنّات، وفلّة، حين سمعن كلامها، الذي أثّر فيهن، فأخذت كلّ واحدة منهنّ منديلًا، وراحت تمسح تلك الدّموع، التي أبت إلّا أن تنزل، عادت أمّي لتقول:

- كيف لا أعذّب نفسي؟ كيف لا أرهقها؟ كيف لا أبكي؟ بل كيف تطلبين منّي هذا؟ وأنتِ تعلمين جيّدًا شعوري، تعلمين جيّدًا شعور الأمّ المكلومة، التي فقدت اثنين من أبنائها، وستفقد آخرًا بعد أيّام، وهي لا تستطيع حتّى رؤيته، أو معانقته!

***

جاء وقت تنفيذ الحكم، أين دخل عليَّ اثنان، من الحرّاس، بينما بقي الآخران خارج الزّنزانة.. اقترب منّي واحدٌ، من اللّذين دخلا، وقال:

- حامد.. حامد.. هيّا.. استيقظ.

ففتحتُ عينيَّ، ثمّ نظرتُ إليه، محاولًا أن أتبيّن ملامحه، نظرًا للظّلام، الذي يعمّ الأرجاء، ثمّ قلتُ له:

- أين أنا؟

فنظر لزميله متأسّفًا، ثمّ التفت إليّ مرّة أخرى، وقال:

- هيّا.. انهض.. عليك أن تذهب معنا.

واقتادني الاثنان معهما، وأنا أنظر لهما مستغربًا، سرّ مجيئهما إليّ، في ساعة متأخّرة، وما إن خرجنا حتّى أغلق الثّالث الباب، وسار خلفنا، هو والرّابع، فالتفتُّ إليهما، وقلت:

- إلى أين ستأخذونني؟

ولكنّهم لم يجيبوا، فعدتُ لأسألهم، ولكن (بصوتٍ مرتفع):

- إلى أين ستأخذونني؟ دعوني وشأني.. دعوني.. قلتُ لكم اتركوني.

ولكن ما من مجيب، ونحن على هذا الحال، حتّى أدخلوني لغرفة، في آخر الرّواق، أين انتظرنا عدّة رجال، منهم ضابطٌ مُسن، وهو الذي تلا قرار الحكم

بالإعدام، ورجلٌ يرتدي ثيابًا، كثياب الأئمّة، وقد بدا عليه الوقار، وحسن الخُلق، والذي دنا منّي، بعد أن انتهى الضّابط، من تلاوة الحكم، وقال لي (بحزن):

- هل تريد أن تقول شيئًا يا بنيّ، قبل تنفيذ الحكم؟

فاتّسعت عيناي، ونظرتُ له مستغربًا، بعدما بلعتُ ريقي، ورحتُ أنطق بكلماتٍ عشوائيّة، متناثرة، وغير مفهومة:

- لا.. أنا لم أفعل.. أنا.. أأأ..

وشعرتُ بغصّة منعتني من الكلام، لكن لم تمنع تلك الدّموع المتطفّلة، كما لم تستطع كبح حاجتي للبكاء، فبكيتُ بشدّة.. وهنا عاد ليقول:

- قل ورائي: أشهد ألّا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمّد رسول الله.

ولكن بقيتُ أنظر له، وأنا مصدومٌ كليًّا، وغير مصدّقٍ لما يحصل، فطأطأ رأسه، وعاد للوراء، ليترك المجال للحرس، لكي ينفّذوا المهمّة، أين وقف أحدهم خلفي، وربط يديّ بالحبل، ثمّ رجليّ، أمّا الآخر فقد حمل شيئًا أسودًا كالكيس، ولكنّه مصنوعٌ من القماش، ودنا منّي محاولًا وضعه على رأسي، فرحتُ أصرخ (بأعلى صوتي):

- أرجوكم.. أنا لم أقتل أحدًا.. دعوني.. اتركوني..

ولكن بدون جدوى، وذلك بسبب تلك الحبال، التي رُبطت بها يديَّ، ورجليَّ، والتي حدّت من حركتي، فلم يبق لي إلّا الصّراخ، فهو الوسيلة الوحيدة التي وجدتها أمامي.. أين رحتُ أصرخ بكلّ قوّتي، حتّى شعرتُ بدوار فجأة، لأستسلم له، فارتخت أطرافي، ولم أستطع السّيطرة عليها، وفقدتُ الإحساس بجسمي، كلّ هذا والدّوار يزداد حدّة، عن ذي قبل، لدرجة

أنّي شعرتُ بأنّ الأرض غير مستقرّة، في هذه الأثناء كان الحرّاس قد أصعدوني، على درج، ينتهي لحبل المشنقة، الذي لفّوه حول عنقي، أمّا الإمام فلم يتوقّف عن الدّعاء أبدًا، حتّى وأنا أصارع الموت، ظلّ يدعو الله بأن يخفّف سكرات الموت، عن هذه الرّوح، ويرحمها، ويغفر لها ما تقدّم من ذنب، كان هذا ما استطعتُ التقاطه، من كلّ ما قاله..

وبعدما وهنت قوّتي، وتغلّب عليّ الدّوار، استسلمتُ لأولئك الحرّاس، الذين بدوا وكأنّ لهم معي ثأرًا، فقد استماتوا في محاولة شلّ أطرافي، لإرضاخي للأمر الواقع، حتّى لكأنّ النّاظر لهم يظنّ بأنّنا أعداء، ويريدون الخلاص منّي، بأيّ طريقة.. ورغم شعوري بالوهن، الذي غزا جسمي، إلّا أنّي بقيتُ مُصرًّا على الصّراخ، كآخر محاولة، وإن كنت مقتنعًا، بعدم جدواه، فرحتُ أقول:

- اتركوني.. أنا لم أقتل أحدًا، اتركوني..

وفي هذه الأثناء سمعتُ أحدهم يقول:

- قل: أشهد ألّا إله إلّا الله، وأنّ محمّد رسول الله.

ولكنّ لساني انعقد عن نطق الشّهادة، وكأنّي ما زلتُ أتأمّل في النّجاة، بالرّغم من كلّ ما وقع، أين بقيتُ أصرخ عوضًا عن ذلك، وفي هذه الأثناء أمر حارسٌ زميله، بإزالة الخشبة، التي أقف عليها، وما إن سمعتُ كلامه حتّى صرختُ (بأعلى صوتي):

- لاااااااااااااااا...

...فتحتُ عينيَّ بعدها، أين كانت الرّؤية مشوّشة، وضبابيّة، فرأيتُ فتاة ترتدي ملابس زرقاء، وإلى جانبها شاب، كان الاثنان يقفان على رأسي، فاقتربت منّي الفتاة، وقالت:

- حمدًا لله على سلامتك يا دكتور.

فقلتُ لها (مستغربًا):

- أين أنا؟

وهنا قال الشّاب:

- حامد.. حمدًا لله على سلامتك.

فالتفتُّ نحوه، وإذْ به رؤوف يقف إلى جواري، وقد بدت عليه الدّهشة، والفرحة في الآن نفسه، هذه المشاعر المختلطة قد أثّرت فيه، لدرجة أنّ دموعه قد غلبته، فلم يستطع كبحها، وقال (وهو يمسحها):

- حمدًا لله على عودتك للحياة مرّة أخرى.

فقلتُ له (مستغربًا):

- ولكن ما الذي حصل يا رؤوف؟

فهَمَّ بإخباري، ولكن منعه دخول الأطبّاء، الذين التفّوا حولي، وكان من بينهم سمير، والمدير، بالإضافة لرشا، فقال سمير:

- كيف حالك يا صديقي؟

- بخير.. ولكن لما أنا هنا يا سمير؟

قلتُ لسمير مستغربًا، فردّ عليّ المدير:

- قبل أسبوع جاؤوا بك إلى هنا، لأنّك قد غبتَ عن الوعي، ودخلت في غيبوبة بعدها، وحين أخذ الأطبّاء عيّنة من دمك، وقاموا بتحليلها، وجدوا بأنّك قد تناولتَ جرعة زائدة، من أحد الأدوية المنوّمة.

- جرعة زائدة؟

قلتُ مستغربًا، وحاولتُ أن أتذكّر، ما حصل قبل أسبوع، وكم استغربتُ حين عدتُ بذاكرتي، لآخر ليلة قضيتها في المنزل، بحيث تناولتُ جرعة زائدة، من المنوّم، والذي أستعمله عندما أحسّ بالأرق، ولكن يومها لم أتناوله لمرّة واحدة، بل إنّي تناولتُ جرعة على الثّامنة مساءً، وتناولتُ جرعة أخرى على العاشرة، وقد نسيتُ بأنّني تناولتُ الدّواء قبل ذلك، وحين دخلتُ للحمّام، تذكّرتُ بأنّي قد أفرطت في الجرعة، ولكن لم أكترث حينها لهذا الأمر، ظنًّا منّي، بأنّ أقصى ما يمكن للدّواء فعله، هو أن يجعلني أنام ليومٍ كامل مثلًا.

***

بعد ساعة أتى الكلّ لزيارتي، بعد أن بشّرهم رؤوف.. وهنا التفّ حولي الجميع، أمّي، ونور، وخالد، ونريمان، وفلّة، وهاني، وجنّات، وسُهيل خطيب نريمان، وهشام ابن عمّتي، أين انهالت عليّ كلماتُ الحمد، والتّهنئة، أمّا أنا فقد اكتفيتُ بالنّظر لهم، دون أن أقول أيّ كلمة، كنتُ أنظر لهم مستغربًا، بل وغير مصدّق، عودتهم للحياة مجدّدًا، بعد كلّ ما رأيته في الحلم، أو الأصحّ في الكابوس الذي رأيته..

بقيتُ أنظر لهم، الواحد تلو الآخر، بدءًا بنريمان، التي وقفت بجانبي، وهي سعيدة بعودتي للحياة، فقلتُ (وقد اختلطت مشاعري بين الفرح، والدّهشة):

- كيف حالك يا نريمان؟

فقالت (بعد أن ربتت على كتفي):

- بخير.. لا تعلم كم فرحت، حين سمعتُ بأنّك قد أفقت، من الغيبوبة، رؤيتك قد أعادت فيّ الرّوح.

***

بعدما استقرّت حالتي، واطمأنّ عليّ الأطبّاء، غادرتُ للبيت، واتّجهتُ لغرفتي، وهناك التفّ حولي خالد، وفلّة، ونريمان، ورؤوف، فرُحتُ أروي لهم الحلم، الذي رأيته أثناء الغيبوبة، فاستغربوا لما قلته لهم، بحيث قال لي خالد (مازحًا):

- لو حُوّل هذا الحلم لرواية لنجحت، فما رأيته أغرب من الخيال.

وبمجرّد أن انتهى خالد، من قول هذه الجملة، حتّى دخلت علينا أمّي، وهي تحمل صينيّة في يدها، ثمّ جلست بجانبي، وقالت:

- أعددتُ لك هذا الحساء خصّيصًا.

فقال لها رؤوف:

- الآن فقط استطعنا أن نرى هذه الابتسامة الجميلة.

- معك حقّ، فحامد هو المفضّل عند أمّي، أليس كذلك يا جماعة؟

قال خالد، وهو يضحك، فضحكت نريمان، ثمّ أضافت:

- بلى..

وهنا ابتسمت أمّي، وقالت:

- كفاك كلامًا يا خالد، فحامد يحتاج للرّاحة، حتّى يعود لعافيته.

- أمم.. أسمعتم ماذا قالت أمّكم؟ حسنٌ.. سأصمت يا أمّ حامد.

سكتت أمّي قليلًا، ثمّ عادت لتقول:

- بمناسبة شفاء حامد، ما رأيكم لو نقدّم خطبة نريمان، للأسبوع القادم؟

فقال رؤوف:

- فكرةٌ جميلة.. أنا موافق.

وفي هذه الأثناء دخلت نور، برفقة زوجة رؤوف، ثمّ قالت:

- هذه زوجة رؤوف يا حامد.

وهنا قالت زوجة رؤوف بالعربيّة:

- مرحبًا.

فقلتُ (مستغربًا):

- أهلًا!

فتدخّل رؤوف، وقال:

- صحيحٌ أنّ زوجتي أرجنتينيّة، ولكنّي علّمتها بضع كلمات بالعربيّة.

فابتسمت، ثمّ قلتُ له:

- من الجيّد أن تعلّمها العربيّة.

عادت أمّي للحديث، عن موضوع تعجيل الخطبة، فقالت لفلّة:

- علينا إذًا أن نُحضّر للخطبة، من الآن.

فسألت زوجة رؤوف نور، عن الموضوع، الذي نتكلّم فيه بالإنجليزية، فأخبرتها بأنّنا نتناقش، حول موضوع الخطبة، فقالت لها بأنّ لديها فكرة جميلة، وهي أن تُقام الخطبة في الحديقة، كما هو الحال عندهم، وهنا قالت أمّي لنور:

- ألن تخبرينا ما قالت لك؟

فابتسمت، ثمّ أخبرتها بالاقتراح، وهنا قالت أمّي:

- يا سلام، ما رأيكم لو نقيم الخطبة في حديقتنا؟ فهي كبيرة، وجميلة، كما أنّ الاحتفال في الحديقة أمرٌ جديد، وسيكون لنا شرف السّبق فيه.

فقالت فلّة (معترضةً على كلامها):

- أيُعقل بأن نقيم الاحتفال في الحديقة؟ ماذا سيقول علينا أقاربنا؟

- لن يقولوا شيئًا.

قالت أمّي بغضب، فضحك رؤوف، ثمّ قال:

- أرى بأنّ أمّي قد سئمت، من تقاليدنا المكلّفة، وتريد أن تنحوَ منحى الأمريكيّين، والأوروبّيين.

فابتسمت أمّي لكلامه هذا، ثمّ قالت:

- لقد قرّرت، وانتهى الأمر، سنقيم الحفل في حديقتنا.

***

بعد مرور أسبوع:

قامت نور من النّوم، متّجهة للحمّام، وبعد أن غسلت وجهها، عادت لتوقظني، أين ربتت على كتفي، وقالت:

- حامد.. استيقظ.

واتّجهتْ للخزانة، ففتحتُ عينيَّ في هذه الأثناء، وأبعدتُ الغطاء عن وجهي، وقلتُ (مستغربًا):

- أليس الوقتُ مبكّرًا، على الاستيقاظ؟

ثمّ فتحتُ هاتفي، فضحكت نور، وقالت:

- إنّها التّاسعة.. صباح الخير.

فابتسمتُ، ثمّ قلت:

- صباح الخير، ظننتها لم تتجاوز السّابعة، وإذْ بي أجدها التّاسعة!

وقمتُ من فراشي للحمّام، أمّا نور فقد ذهبت، لتتفقّد أمّي، وترى إن كانت تحتاج لشيء، فاليوم هو يوم خِطبة نريمان.. وما إن غسلتُ وجهي حتّى سمعت، صوت ابنتي، فسرتُ إليها، وما إن رأتني حتّى ضحكت، فحملتها، وجلستُ على السّرير، لكي أراقبها بصمت، بينما ظلّت هي تناغي، وتلوّح بيديها الصّغيرتين، اللّتين تنمّان عن لطافة، ليس لها نظير، ما جعلني أتذكّر ليث، ابني في الحلم، تذكّرته، وكأنّه كان يعيش معي، وبقيتُ هكذا للحظات، قبل أن تعود نور، التي قالت (مستغربة):

- لا زلت هنا؟ الكلّ مجتمعون في الأسفل.

فقبّلتُ رغد، ثمّ وضعتها في سريرها، وتركتها مع أمّها، لتلحق بي، بعد أن تطعمها، وتغيّر لها ملابسها، ونزلتُ لأتناول الفطور مع البقيّة.

***

كانت جنّات بغرفتها، حين دخلت أمّها، وهي تحمل فستانين، وقالت:

- هل عليّ أن ألبس هذا، أم هذا؟

فوضعت جنّات ما في يدها، ونظرت مليًّا، ثمّ قالت:

- أرى بأن ترتدي الفستان الوردي، فلونه أنسب لبشرتك، من الأصفر.

- ولكنّي فكّرتُ في ارتداء الأصفر.. فهو أيضًا جميل.

قالت أمّ هاني، فردّت عليها جنّات:

- حسنٌ.. ارتدي الأصفر، ثمّ الوردي، وبعدها سنقرّر.

قالت جنّات كلامها، وهي تنظر لوجهها في المرآة، ثمّ حملت مرهمًا، لترطيب البشرة، ووضعت القليل منه على وجهها، وفي هذه الأثناء عادت أمّها،

لترتدي أحدهما، قبل أن تعود، وتطلب من جنّات مساعدتها، في غلق سحّاب الفستان.

***

صعدت نريمان لغرفتها مجدّدًا، بعد أن انتهينا كلّنا، من تناول الفطور، ورافقتها فلّة.. جاءت المصمّمة، المكلّفة بتصميم فستان نريمان للبيت، ومعها الفستان، الذي أعدّته لها، والذي أخذته لتعدّله، بناءً على طلب هذه الأخيرة، وصعدت مع أمّي، لغرفة نريمان.. ولم تمضِ دقائق على حضورها، حتّى جاءت اختصاصيّة التّجميل، لتمتلئ الغرفة بالنّساء، بدءًا بأمّي، وفلّة، للمصمّمة، واختصاصيّة التّجميل، فأدلت كلّ واحدة منهنّ بدلوها، لتخرج نريمان في أبهى صورة.

***

اتّصل هاني بصديقته، وراح يحثّها على الإسراع، في تحضير نفسها، ليمرّ عليها بسيّارته، ويجلبها للخطبة، ليعرّفها على أفراد عائلته، التي لطالما حكى لها عنهم، خاصّة أنا، فهو يعتبرني مثله الأعلى، وخاصّة أنّ أمّه تحثّه، متى سنحت الفرصة، بالاقتداء بي، والتّصرّف بحكمة.. ثمّ ودّعها، على أمل أن يلتقي بها، بعد ساعات.

***

بعد مضيّ ساعات، نظرت أمّي للسّاعة، التي كانت تشير للثّالثة، بعد الظّهر، فقامت، لتترك نريمان مع فلّة، وذهبت لتفقُّد الطّباخين، الذين كانوا قد انتهوا تقريبًا، من تحضير الأكلات، التي ستُقدّم للضّيوف، وما إن دخلت حتّى

أسرعت إليها الخالة نوال، التي كلّفتها هذه الأخيرة، بالوقوف على الطّباخين، ومساعدتهم، لأنّها على دراية بذوق أمّي، قالت أمّي للخالة نوال:

- هاه؟ هل كلّ شيء على ما يرام يا نوال؟

فابتسمت الخالة نوال، ثمّ قالت:

- أجل سيّدتي.

وسارت معها، وقد أخذت على عاتقها، مهمّة كشف أغطية القُدور، الواحد تلو الآخر، وذلك لتعطي لأمّي فكرة، عمّا أبلاه أولئك الطّباخون، وبعد أن فرغت منها جميعًا، التفتت لأمّي، وقالت لها:

- ما رأيك سيّدتي؟

- أممم.. جميل، ورائحة الأكل جميلة جدًّا.

قالت أمّي، مُحاولة التقاط أكبر قدر، من رائحة الأطعمة، فعادت الخالة نوال لتسألها مرّة أخرى:

- هل تقترحين علينا أيّ شيء آخر؟

- أوه.. لا، بوركت.. ما كان لي أن أعتمد على شخصٍ آخر غيرك.

قالت أمّي، قبل أن تغادر باتّجاه الحديقة، لترى ما فعلته زوجة رؤوف، التي أخذت على عاتقها، مهمّة ترتيب الحديقة، وتوضيب الطّاولات، بمعيّة بعض الشّباب، الذين كلّفهم صاحب أفخم فندق، في المدينة، بنقل تلك الطّاولات للمنزل، فقد أبى إلّا أن يقدّم خدمةً بسيطة لرؤوف، كنوع من المجاملة، باعتباره صديقه المقرّب، صداقتهما التي سبقتها، صداقة أبي بوالده، رحمهما الله، والذي كان مالك الفندق، قبل أن يرثه ابنه، فيما بعد.

- أوه.. يا إلهي، ما كلّ هذا؟

قالت أمّي مستغربة، من الجمال، الذي رأته عيناها، بعد أن رأت صنيع زوجة رؤوف، فالتفتت هذه الأخيرة إليها، وقالت بالإنجليزية:

- هل أعجبك؟

ولكنّ أمّي لم تكن تعرف، من الإنجليزية، سوى القليل، فقالت (وهي تحدّث نفسها):

- كيف لي أن أتفاهم معها؟ ما هذه الورطة، التي أوقعني فيها رؤوف؟

فقال رؤوف، الذي كان خلفها (بعد أن سمع كلامها):

- ما بك يا أمّ رؤوف؟ أتذكرينني في الخير، أو في غيره؟ اعترفي.

فالتفتت أمّي خلفها مستغربة، وقالت (بعد أن رأته، يسير باتّجاهها):

- عدتَ بهذه السّرعة؟

فضحك، وقال:

- يبدو بأنّ السّنوات التي قضيتُها بعيدًا عنكم، قد أنستكِ همّتي.

- إذًا تعال، لتساعدني.

- أساعدكِ في ماذا؟

قال رؤوف متسائلًا، بعد أن اقترب منها.

- أريد أن أسألها، ولكن لا أجيد الإنجليزية، ستترجم لي كلّ ما تقوله.

فضحك رؤوف مرّة أخرى، ثمّ قال:

- سأترجم لكِ كلّ ما تقوله، ولكن ليس قبل أن نلصق الأضواء.

ثمّ ذهب للشّباب، وطلب منهم مساعدته، في إلصاق الأضواء، قصد إنارتها للضّيوف لاحقًا، أمّا أمّي فقد بقيت مع زوجته، التي كانت تكلّمها من حين لآخر، وفي كلّ مرّة تتكلّم معها، إلّا وتقول (بتذمّر):

- ولكن كيف لي أن أفهمها؟ كلّ هذا من ابني، الذي أتى بكِ إلى هنا، ليتركني في حيرة من أمري، في كلّ مرّة تتحدّثين إليّ.

عاد رؤوف بعد أن أنهى عمله، ثمّ قال لأمّي:

- مالي أراكِ منزعجة هكذا؟ أقالت زوجتي ما يغضبك؟

- حين أفهم ما تقول أصلًا.

فضحك رؤوف بصوتٍ مرتفع، ثمّ قال:

- حسنٌ.. سأشرح لكِ كلّ ما تقوله، لا تخافي.

والتفت لزوجته، وسألها عمّا كانت تريد قوله لأمّي، فأخبرته بأنّها تريد أن تخصّص مكانًا، لوضع النّبيذ.

فقالت له أمّي:

- ألن تخبرني بما قالته لك؟

فأخبرها بما قالته له، وهنا ثارت ثائرة أمّي (التي صرخت فيه):

- هذا ما كان ينقصنا.

فضحك رؤوف، ثمّ قال:

- معكِ حقّ، فهم لا يفكّرون إلّا في النّبيذ، ليمرحوا، ويصخبوا، ونحن في المقابل لا يهمّنا من الحفل، إلّا الأكل.. ولهذا فإنّنا نقدّمه للضّيوف، بمجرّد دخولهم للقاعة.

فقاطعته أمّي:

- ليس هذا ما قصدته، وإنّما نحن مسلمون، وأفكار زوجتك لا تناسبنا، تأكّد من كلّ ما ستقوم به، وأبلغني، أخاف أن تحرجني مع الضّيوف.

فابتسم رؤوف، وقال:

- حسنٌ.. سأبقى هنا لأراقبها، لا تقلقي.

***

أرسل هاني سيّارة لوردة، بسائقٍ خاص، لتوصلها، هي وعائلتها، بعد أن نهرته أمّه، التي استغربت من طيشه، فكيف يوصل صديقته، ويتركها، هي وأخته، لتذهبا بمفردهما، فأحسّ هاني بالخجل، واتّصل بوردة، وقال لها بأنّه سيرسل لها السّائق، ليوصلها مع أمّها، لأنّ لديه أمرًا مستعجلاً، عليه القيام به، ويخشى التّأخّر عليها.. والتفت لأمّه بعدها، أين قال:

- اعذريني.. لم أفكّر في الموضوع بهذه الطّريقة، ولكن معكِ حقّ.

- حسنٌ.. عمومًا لم يحصل شيء.

وفي هذه الأثناء دخلت عليهما جنّات، وقالت لأمّها:

- هل سنبقى هنا كثيرًا؟

فقالت أمّ هاني:

- علينا الذّهاب، فأنا لا أحبُّ أن أكون آخر، من يحضر للحفل، علينا أن نكون معهم، قبل مجيء الغرباء، ماذا سيقول علينا معارفنا، وأقاربنا إن تأخّرنا على إخوتكما؟

ثمّ التفتت لهاني، وقالت له:

- هل ستظلّ جالسًا هكذا؟

- أوه.. حسنٌ، سأسبقكما إلى السّيّارة.

قال هاني قبل أن يغادر، تاركًا أمّه، وأخته، فتساءلت هذه الأخيرة، عن سبب انزعاجه:

- ولكن ما به هاني؟

- أخوكِ يفكّر في صديقته، لقد انزعج عندما طلبتُ منه، بأن يوصلنا، ويرسل لها أيّ سائقٍ آخر، ليوصلها للحفل، هي وأمّها.

قالت أمّ هاني بتذمّر، فردّت عليها جنّات (بنفس التّذمّر):

- هذا هو الطّبيعي يا أمّي، أم كان يريد أن يوصلها، ويتركنا لنذهب في سيّارة الأجرة مثلًا؟

فقالت أمّها (مقاطعةً إيّاها):

- دعينا منه الآن.. هيّا أسرعي، قبل أن نتأخّر أكثر.

***

بعدما بدأ الضّيوف يتوافدون، نزلتُ مع زوجتي، وابنتي، واتّجهنا إليهم، للتّرحيب بهم، إلى أن فرغتُ منهم جميعًا، أنا وزوجتي، واتّجهنا لإحدى الطّاولات، الخاصّة بأهل العروس، وجلسنا، لتجلس معنا زوجة رؤوف، هي وابنها الصّغير، ثمّ جاء خالد، وجلس معنا بدوره.

كان بعض المدعوّين يتحدّثون، وهم مسرورون، والبعض يرقصون على تلك الأنغام الجميلة، المرافقة لصوت المغنّي العذب، أمّا البعض الآخر فقد انشغلوا بالتقاط الصّور، لأفراد عائلاتهم.. بينما بقيتُ أراقب خالد، الذي كان يتحدّث بحيوية، لأنتقل بعدها للنّظر لنور، التي شاركته، هو وزوجة رؤوف الأحاديث، وأنا غير مصدّق لما أرى، لأنّني لم أستفق بعد، من الحلم.. وفي هذه الأثناء اقترب منّا الدّكتور حازم، هو وزوجته، وقبل أن يهُمّ بإلقاء السّلام علينا، قال (مستغربًا):

- دكتور حامد؟ أنت هنا؟

- دكتور حازم؟ ما الذي تفعله هنا؟

- العريس يكون قريبي.
قال حازم، ثمّ مدّ يده ليصافحني، والتفت بعدها لزوجته، وقال لها:
- هذا زميلي الدّكتور حامد، وهذه تكون زوجته الدّكتورة نور.
ثمّ التفت إليّ، وقال:
- وهذه زوجتي.
وسار بعد ذلك، برفقة زوجته، وابنتيه، ليجلسوا على إحدى الطّاولات، أمّا أنا فقد بقيتُ مستغربًا، من هذه الأقدار العجيبة، التي تفاجئنا في كلّ مرّة، وأنا على هذا الحال، حتّى قطعت عليّ نور حبل أفكاري، وهمست في أذني (قائلة):
- سمعتُ بأنّه قد قدّم طلبًا، لإدارة المشفى، ليذهب لإنجلترا، ويستقرّ فيها، هو وعائلته، أين سيواصل شغله، وحياته.
في هذه الأثناء جاء هاني، ومعه فتاة، كانت تسير إلى جانبه، وخلفهما أمّه، وجنّات، وامرأة لم أعرفها.. وما إن رآني حتّى أقبل، نحوي مسرعًا، ليترك الفتاة خلفه، وسلّم عليّ بحفاوة، ثمّ التفت إليها، وقال:
- تعالي يا وردة، لتسلّمي على أخي حامد، الذي أخبرتكِ عنه.
وهنا نظرتُ لوردة - التي ألقت عليّ السّلام - مليًّا، وقلتُ (متعجّبًا):
- سبحان اللّه.
فنظر لي هاني مستغربًا، ثمّ قال:
- هل تعرفان بعضكما؟
وهنا قلتُ (نافيًا):

- لا، ولكنّها تشبه فتاة، كانت تدرس معي في الجامعة، حتّى إنّي ظننتُ بأنّها هي، لولا أنّك ذكرتَ اسمها، لجزمتُ بأنّها هي.

فابتسم هاني، ثمّ التفت لنور، وقال:

- أسمعتِ ماذا قال زوجك يا نور؟

فضحكت نور، وقالت له:

- اعذره يا هاني، فقد كان مريضًا.

اقتربت منّا زوجة أبي، وألقت التّحيّة علينا، وفعلت جنّات بعدها نفس الشّيء، وهنا انشغلنا بالمجاملات، التي يقولها النّاس عادة، حين يلقون السّلام، على بعضهم، ونحن على هذا الحال، حتّى سمعنا الزّغاريد، فالتفتنا، لنرى حشدًا كبيرًا، مقبلًا نحونا، تتقدّمه نريمان، برفقة سهيل، وفلّة، وما إن اقتربوا من المكان الخاص، بالعريسين، حتّى طلب المغنّي منهم الرّقص، وهو ما تمّ بالفعل، ليشكّلوا حلقة حول نريمان، وسهيل، وصفّقوا تشجيعًا لهما، إلى أن حمي الوطيس، ودخل الشّباب في جوّ الحفل، فبدأ بعضهم بالرّقص، بينما آثر الآخرون إطلاق صرخات، توحي بمدى انسجامهم.

كان الكلّ منشغلين بأجواء الحفل، في هذه الأثناء، بينما بقيتُ أراقب نريمان، وسهيل عن كثب، وأنا غير مصدّقٍ هذا الكم من الفرح، الذي بدا عليهما، وعلى جميع من في الحفل، وبينما أنا على هذا الحال، إذْ دمعت عيني، دون شعور منّي، فقلتُ في نفسي:

- الحمد لله أنّه كان مجرّد حلم.

وبعد مرور بعض الوقت، طلب شابٌّ من المغنّي، إعارته الميكروفون، ثمّ قال:

- أين أهل العروس؟ نحتاجكم هنا، لبعض الوقت، ليلتقط لكم المصوّر صورًا تذكارية، مع العروس، وزوجها، ثمّ يأتي - بعدها - أهل العريس.

فقالت فتاة، من أهل العريس (بصوتٍ مرتفع):

- ولما لم تقل أهل العريس أوّلًا؟

فتعالت الضّحكات.. ثمّ قالت امرأة أخرى (تؤيّد كلام الفتاة):

- معها حقّ، فالرّجال قوّامون على النّساء، أهل العريس أوّلًا.

فضحك الشّاب، وقال:

- لا بأس.. فليتقدّم أهل العريس إذًا.

اجتمع أهل العريس حول نريمان، وسهيل ليصوّرهم المصوّر، ثمّ جاء دور أهل العروس، فطلب منّا الشّاب بأن نجتمع، حول العريسين، وهو ما قمنا به، وبعد لحظات قام فيها الجميع بترتيب أنفسهم، بحيث كان أكبر همّهم، هو الظّهور بمظهرٍ لائق، أمّا أنا فقد جُلتُ بنظري حول نريمان، وسهيل، ثمّ التفتُّ لنور، وهاني، وجنّات، وبقيتُ أراقبهم بصمت، وكم شعرتُ بالرّاحة، حين رأيتُهم فرحين، حتّى قطع أفكاري قول أحدهم:

- هل كلّ أهل العروس هنا؟

فقال رؤوف:

- ينقصنا خالد، أين هو؟

لتقول فلّة (متسائلة):

- صحيح.. أين خالد؟

ونحن على هذا الحال، إذْ أقبل خالد مسرعًا إلينا، وقد بدا عليه الذّهول، والفزع، ثمّ قال لنا:

- يا جماعة.. أريد أن أقول لكم شيئًا.
فالتفتنا نحوه باهتمام، أين قال (بعد أن أخذ نفسًا عميقًا):
- أوه.. بصراحة، لا أعرف من أين أبدأ.. ولكن..
فقالت فلّة (بغضب):
- ألن تخبرنا ما الأمر؟ المصوّر ينتظر، ليلتقط لنا صورًا للذّكرى.
وهنا ركّز خالد نظراته نحوي، ثمّ قال (مخاطبًا إيّاي):
- بصراحة.. يبدو بأنّ الحلم الذي رأيته، قد تحقّق يا حامد.
فقلتُ له (مستغربًا):
- ماذا؟ ماذا قلت؟
سادت الفوضى في هذه الأثناء، فشعرتُ بالغضب، أين صرختُ في إخوتي، وأمّي، وقلت:
- ألا تسكتون أبدًا؟
فقالت أمّي لخالد:
- أتقصد..؟
فأومأ خالد برأسه، ثمّ قال:
- أجل.. لقد عاد.
فقال رؤوف (مستغربًا):
- وهل يُعقل هذا؟ أيُعقل أن يتحقّق حلمك يا حامد، ويعود أبي؟ لا، هذا غير معقول، بل مستحيل.
وهنا أحسستُ ببرودة، غزت جسمي، لدرجة أنّني لم أستطع الوقوف، أين جلستُ على الدّرج الخاص بالعروس، فصاحت أمّي في خالد:

- أنت تمزح، أليس كذلك؟
فقال خالد:
- وكيف لي أن أمزح، وهو يقفُ خارج المنزل؟
فقمتُ من مكاني مسرعًا، ثمّ قلتُ له:
- خارج المنزل؟
وسرتُ قاصدًا باب المنزل، ولحق بي رؤوف، وأمّي، بينما بقي الآخرون في أماكنهم مستغربين، خاصّة نريمان التي أجهشت بالبكاء، لأنّها تعلم تمامًا بأنّ أبي لن يوافق، على زواجها من سهيل، وسيفسد الأمر، وذلك بأن يلغي الحفل، ويعاقبها فوق هذا، فأدرك خالد خطورة الأمر، ليضحك بصوتٍ مرتفع، ثمّ قال:
- أصدّقتم بأنّ أبي قد عاد؟
فالتفتنا نحوه كلّنا، أين قالت أمّي (بغضب):
- اصدقنا القول، أيّها المجنون.
فعاد للضّحك، ثمّ نظر إليّ، وقال (ساخرًا):
- هدّئ من روعك.. فالأموات لا يعودون للحياة، إلّا في الأحلام.
فانتابني الغضب، وركضتُ خلفه كالمجنون، ليفرّ هاربًا، لأنّه يعلم ما الذي يمكنني فعله، إن أمسكته.. فأخذت أمّي نفسًا عميقًا، وقالت:
- كنت أعرف منذ البداية، بأنّه يكذب، ولكنّ خوفي من مجرّد التّفكير، في الأمر، جعلني أركض كالبلهاء، لأتأكّد من كلامه، سُحقًا له.
فضحك الجميع، في هذه اللّحظة، وهنا قالت نور لنريمان:
- كُفّي عن البكاء الآن، إنّه يمزح معنا، لا أكثر.

فقالت نريمان:

- سامحك الله يا خالد، لقد أحسستُ لوهلة بأنّ قلبي سيخرج، من بين أضلعي، من شدّة الخوف.

فقالت أمّ هاني لأمّي:

- أنا آسفة، ولكنّ ابنكِ بالغ في الوصف، لدرجة أنّنا صدّقناه، عليكِ أن تتصرّفي معه بحزم، لكيلا يعود لهذه التّصرّفات.

فقاطعهم رؤوف (قائلًا):

- يا جماعة، الأمر لا يستحق كلّ هذا الخوف، لقد كانت مجرّد مزحة، وأنتم تحمّستم للقصّة، رغم أنّني لم أصدّق حرفًا، ممّا قاله، والآن.. عودوا لأماكنكم، لكيلا نطيل على المصوّر، هيّا.. أسرعوا.

فقالت أمّي:

- ألن ننتظر حامد؟

فقال:

- يمكنه أن يلتقط صورًا مع نريمان، وزوجها حين يعود.

وهنا التفّ الجميع حول نريمان، وسهيل، أين طلب منهم المصوّر، بأن يقولوا هذه الكلمة وراءه، لترتسم على وجوههم ابتسامة، ما قبل الصّورة.. ثمّ قال بصوتٍ مرتفع.. ليقول بعده الجميع (بصوتٍ مرتفع):

- تشيييييز...

تمّت بحمد الله.

تنويه:

كلّ ما جاء في الرّواية، من أحداث، وشخصيّات، ما هو إلّا من وحي الخيال، ولا يمُتّ للواقع بِأيّ صلة.

عودة
ميت للحياة

تتحدث الرواية عن شاب غني يعود والده الشرير بعد غياب دام سنة كاملة، بعدما ظن الجميع أنه قد مات إثر غرق الباخرة التي كان على متنها... برجوعه يعود كل الأشرار الذين تربطهم علاقات بوالد البطل، أو الذين لديهم عداوات معه.

تتألف هذه الرواية من جزأين. الجزء الأول بعنوان: "أفق.. أنت تحلم"، حيث نشهد عودة والد البطل الذي تحوم حوله الشكوك، وكيف أن عودته جلبت معها الكثير من المشاكل لكل المحيطين به من أفراد عائلته. كما جلبت الأشرار، بدءًا بزوجته الثانية الشريرة التي حاولت أن تستفيد من رجوعه، مرورًا بصديقه العم مروان الذي يتحول إلى عدو لدود إثر خلافات بينه وبين والد البطل.

أما الجزء الثاني الذي جاء بعنوان: "عودة ميّتٍ للحياة"، فتتصاعد فيه الأحداث بموت إخوة البطل، ثم والده (العم سالم)، واتهام البطل بقتله والحكم عليه بالإعدام. ثم تأتي اللحظة الحاسمة، وهي لحظة إعدام البطل، حيث يحدث شيء غير متوقع يقلب كل الموازين، ويجعل الرواية تأخذ منحى مختلفًا تمامًا عما سبق.

9 789969 573435

أدليـــس بلّزمـــة
للنشـــر والتوزيـــع

COVER BOOK DESIGNED BY
Akram Medkour
أكـرم مـذكـور